
عبدالحق فاضل

بقرة الخبيث

[الحقوق محفوظة المؤلف]

الاهتداء

حُلوتى ! أنتِ حياتى ، أنتِ أرضى وسمائى !
قد دخلنا جنّة الحبِّ برغم الخفراء !
ونهلنا من أفويق شقاء وهناء !
فهل أستعذبتِ ياليلاي حُبِّ الشعراء !؟

قد تزوّجنا زواجَ الرّوح فى دنيا الترابِ
عقدَ الحبِّ لنا العهدَ على شرعِ عُجابِ
فإليكِ الآن أهدى ، يامنّى النفس ، كتابى
وهو ذِكرٌ ، وهو شكرٌ عن نعيمى وعذابى !

عبد الحى

تقديم

بقلم العلامة الجليل

المركنور أصمير أمين بك

عُرِضَ على « لجنة التأليف والترجمة والنشر » طبع كتاب « ثورة الخيام » للأستاذ عبد الحق فاضل ، وقد قرأته واستحسنت نظمه . ورباعيات الخيام غنية عن التعريف فقد ترجمت إلى لغات كثيرة ، بعضها ترجمات حرفية و بعضها ترجمات استوحى فيها المترجمون روح الخيام ولم يتقيدوا بمعناه ، كما فعل فتز جرالدي . وقد أقبل عليها المعاصرون إقبالاً كبيراً لأنها تتفق وروح العصر من حيث الملل من الحياة والاستعانة على هذا الملل بالانغماس في اللذات . وقديماً سلك الناس مسلكين متناقضين لمحاربة هذا الملل ، أحدهما الزهد فيها كما فعل أبو العتاهية وأبو العلاء ، والثاني الانغماس في لذاتها كما فعل أبو نواس والخيام . وقد ترجمت هذه

الرباعيات إلى اللغة العربية مراراً وتقبلها الناس قبولاً حسناً ، لما فيها من شذوذ أحياناً ودعوة إلى الإيمان في اللذة أحياناً . وأنا لا أوافق على هذه الدعوة ولا على هذا الشذوذ لأنه كما قال الفيلسوف كُنتُ « إذا أردت أن تعرف شيئاً صحيحاً هو أم فاسد فعممه » ، ونحن لو عممنا هذا المسلك لكان الناس كلهم إباحين متلذذين بوهيميين لا يابهون لشيء إلا الخمر والنساء ، ولو تصورنا مجتمعاً هذا شأنه لكان مجتمعاً منحطاً يسرع إليه الفناء . فكل مجتمع إنما يبقى بتحمل أعبائه وبمقدار ما فيه من حياة الجد مشوبة بقليل من اللذائذ ، لا بحياة لذيدة ليس فيها شيء من الجد . على أنه هو نفسه قد يكون أدرك هذا المعنى فلم يحى الحياة التي دعا إليها بل كان فقيهاً عالماً بالرياضيات مخترعاً فيها ، وهذا كله جد لا هو . والمؤمن إيماناً تاماً بدعوته ليس أقل من أن يسير عليها هو نفسه ، أما أن يكون عمله في جانب ودعوته في جانب فإن ذلك على شيء وإنما يدل على عدم الإخلاص التام في أحدهما .

لقد وقفنا كثيراً عند مهاجمته للدين وللسماء ولعله في ذلك مقلد لأبي العلاء المعري في لزومياته ، ولكننا اعتدنا أن نسمع من مشايخنا قولهم : « ناقل الكفر ليس بكافر » ، واعتقدنا أن

هذه النزعات سواء من الخيام أو من أبي العلاء لا تحدث إلا فورة وقتية لا تلبث أن تزول ، وأنهما إن كفر لسانهما أحياناً فإن قلبهما لا يفارقه الإيمان ، كالذي قيل عن « هيجل » الفيلسوف الألماني الشهير أنه كفر عقله وآمن قلبه . ونحن في حياتنا اليومية المشاهدة كثيراً ما نرى أفراداً ممتازين يؤمنون كل الإيمان ولكن قد تحدث لهم فورة وقتية بسبب حدوث كارثة فظيعة لهم أو نزول مصيبة فادحة في أموالهم أو أنفسهم أو نحو ذلك فيجانبهم الإيمان في تلك اللحظة ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى إيمانهم . ففعل الخيام كان من هذا القبيل ، وجد الحياة كلها بؤساً وغماً ، ووجد الناس كالكلاب ينهش بعضهم بعضاً ، ووجد عاقلاً بائساً وأحمق غنياً ، فلم يجد مخرجاً له إلا الزندقة أحياناً ثم تهدأ ثورته فيعود إلى دينه . لقد صدق عمرو بن العاص إذ قال : « ليس العاقل من لم يعرف الشر من الخير ، إنما العاقل من عرف الخير والشر ، ثم تجنب الشر » . فلا بأس أن يُعرض على أنظارنا خير وشر ، بل لا بأس أن يعرض على أنظارنا خير كثير وشر كثير ، فنفعل الخير عن علم وتجنب الشر عن علم .

على هذا الأساس أقدمنا على طبع هذا الكتاب لنضع بين يدي القارئ خيراً كثيراً وشرّاً كثيراً ، ثم يأخذ كل ما يرشده

إليه عقله وطبيعته كما يأخذ الحنظل والورد ، فكلٌّ يجد في
الأرض غذاءه الصالح له . فنشر رباعيات الخيام على وضعها هذا
خدمة للمجتمع ، وخدمة للتاريخ ، وخدمة للأدب العربي .
ولناقلها على هذا الوضع أيضا الشكر الجزيل ، فليس يعرف
مالاقي من عناء إلا من حاول أن ينقل الشعر من لغة إلى لغة ،
مجتهداً أن يحافظ على معاني المنقول منها إلى المنقول إليها ، وعلى
روحها وحسن وقعها وتنظيمها . فالله يجزل أجره ويُعَظِّم مشوبته .

أحمد أمين

١٩٥١/١٠/٢٩

مقدمة الطبعة الفارسية

مترجمة عن كلمة

للعالم المحقق الإيراني

آفاي - سعيد نفيسى

«هما بلغ امرؤ مثلى من إنكار القضاء والقدر ، وعدّ كلَّ
أمرٍ نتيجةً للهمة والتوثب ، فهو يجد بين حين وحين نماذجَ عجيبةً
تجعله يجنح إلى الحظ والإقبال ويؤمن بالمقدور من خير وشرّ ،
أراد أم لم يرد . وإن إحدى شؤون الدنيا العجيبة هذه هو الحظ
الذى أصابته رباعيات الإمام حجة الحق غياث الدين أبي الفتح
عمر بن إبراهيم الخيام النيسابورى ، الحكيم النحرير ، والعلامة
الإيراني الإسلامى الكبير . كان البلغاء فى الدنيا كثيرين ،
وظفقت أقوالهم تشعّ نوراً فى قلوب بنى آدم ، وتجيش حماسةً وغبطةً
مدى قرون . وكثيراً ما حام حولهم الرواة والمترجمون ونقلوا

أقوالهم المحيية إلى اللغات الأخرى ، ولكن قلما اتفق لمترجم أن
أدى إلى اللغة الثانية ما للقول في لغة الأصل من فصاحة وروعة
وبلاغ . حتى ان أكثر المترجمين ، مهما أوتوا من مقدرة وتسلط ،
لم يستطيعوا أن يؤدوا فكرة ذلك القائل حق الأداء . لهذا
ما يزال من يريد أن يدرك قيمة طرفة فنية ونفاستها ، مضطراً في
كثير من الأحوال إلى تعلم لغة الأصل وتفهم جمالاتها ، لكي
يستطيع أن يستمتع بها ويفوز بمآربه منها كاملاً .

إن القوالة الوحيد الذي أعرفه من بين كل هؤلاء البلغاء ،
والذي هيأ له سعد طاعه مترجماً بالغ التفوق مرتين ، فخرقاً هذه
القاعدة الكلية ، هو خيامنا النيسابوري . أولاهما أن ادورد
فتزجرالد الإنكليزي ، وهو في لغته شاعر فذ ، كان قد استهوته
أقوال هذا الحكيم الرياضي السُموية ومنطقه الرائع قبل خمسة
وتسعين عاماً ، فصاغ بعضاً من الرباعيات المنسوبة إليه شعراً
بالإنكليزية . وقد لقي عمله هذا من الاستحسان ما أصبح معه الخيام
أشهر شعراء آسيا في العالم المتمدن ، وطُبعت ترجمات رباعياته
بالإنكليزية أكثر مما طبع أيُّ من كتب هذه اللغة ، وترُجمت
بلغات الشرق والغرب أكثر مما ترجم أيُّ أثر أدبي آخر . وفي
هذا العام ، في عاصمة وطن الخيام أيضاً ، حظي بهذا الجذ الرفيع

فتصدى أديبٌ متمرسٌ ساحرٌ ، لترجمة رباعياته بلغة العرب .

في صيف هذا العام ، لما سرّني الشاعر المفلق آقاي عبد الحق فاضل قنصل العراق في طهران^(١) برؤيته ، وتلا عليّ بعض رباعيات الخيام التي ترجمها حديثاً باللغة العربية بمقدرة بالغة وحذق يبعث الدهشة ، عاودت ذهني نفس الفكرة ، وهي أن هذا الحكيم النيسابوري الكبير أسعد شعراء الدنيا حفظاً في الحقيقة إذ يتاح له مثل هؤلاء المترجمين والمعرفين الأفاضل ، في مختلف اللغات .

إني من ذلك اليوم الذي عرفت فيه غرّيد أرض العراق الكبير ، وأدركت هذه المهمة الشاقة التي وقّأها حقها بكل هذه البراعة — أصبحت وكلّي أمل وانتظار لذلك اليوم الذي يُطبع فيه هذا الأثر الخطير ، عاجلاً ما أمكن ، وينتفع به هواة الأدب ويدركون لبااتهم منه .

كان المؤلف المحترم قد استودعني كتابه « ثورة الخيام » قبل طبعه ، وقد قرأته قراءة إمعان . لم يبلغ أحد حتى اليوم هذا المنحى وهذه الدرجة من الكمال في تحليل نفس الخيام

(١) الآن في القاهرة .

واكتناهما، وتمحيص أفكاره . لقد استهواني هذا الكتاب إلى حدٍ صرت معه أترصد بفارغ الصبر ذلك اليوم الذي أقرأ فيه نسخته المطبوعة أيضاً مراراً عديدة أخرى . وإني لا أعرض هذه الأمنية جاداً كل الجدّ بلسان القلم وحسب ، وإنما أنا أشكر كذلك آقاي عبد الحق فاضل عن كل الإيرانيين وعن كل عشاق آثار الخيام أن هتياً مثل هذا السفر الخطير ، وعرف الحكيم الإيراني الكبير ، بكل هذه القدرة والبصيرة الثاقبة ، إلى أبناء الدنيا .

سمير نفيسي

٢ دعاء ١٣٢٩
طهران ١٩٥٠/١٢/٢٣

أستاذ تاريخ الأدب وتاريخ التصوف
وتاريخ التمدن — في جامعة طهران
العضو الدائم في المجمع العلمي الإيراني

الباب الاول

الخيام

توطئة

وُلِدَ عمر الخيام في نيسابور ووُلِدَتْ في بغداد ، وعاشَ في القرن الخامس الهجري ، وعشتُ في القرن الرابع عشر ، وهو آريُّ فارسيُّ ، وأنا ساميُّ عربيُّ — ولكني بالرغم من هذا البؤن الشَّاسع في المكان والزمان والأرُومة ، أجد كأن بيننا عاطفة من الود والتعارف . وأحسُّ لطول ما صحبته في رباعياته على الأخص — كأنه لا يزال حيًّا يعيش في مكان ما ، وأتصوره أحياناً في الغرفة المجاورة ، يقرض الرباعيات حتى لأكاد أسمع صرير قلبه ، وغمغمة صوته ؛ أو يُلقى محاضرةً على تلاميذه في الفلك أو النقه ، أو في الطبيعات .

ولعل هذا قد أعانني على فهمه .

وقد آثرتُ الإيجاز في هذا البحث فلم أتطرق إلى الشائع المعروف من أخباره وسيرة حياته مما تجده في سائر الكتب ،

وإنما اقتصر على ما كان لي فيه رأيٌ جديد ، أو نظرت فيه من زاوية جديدة ، أو خالفت فيه جمهرة الخياميين — إلا ما اقتضاه سياق الموضوع من استطراد أو استشهاد .

الترجمة

يضمُّ هذا الكتابُ بين دفتيه أكبر عدد من رباعيات الخيام تُرجم إلى العربية قطّ ، نظماً أو نثراً . وليست العبرة بالعدد بطبيعة الحال ، ولكن اعتمدت في الترجمة ست نسخٍ فارسية ، في كلِّ منها من الرباعيات ما ليس في الأخريات . فجعلتُ أتعب في أنحاءها كل رباعية شرود ، شأن الصياد ، فكلمها وقعت عيني على واحدة تمثل جانباً من جوانب تفكير الخيام أو فلسفته اقتنصتها ووضعتها لك في قفص من العروض . فوقعت في هذه المجموعة رباعيات لم يسبق ترجمتها إلى العربية ، هي من خيرة ما جادت به قريحة الحكيم الفارسي ، ومنها ما لم يكن معروفاً منذ بضع سنوات أنه للخيام ، مما كشف عنه الباحثون أخيراً .

وقد توخيتُ في ترجمتي كلَّ دقةٍ ممكنة ، حتى جاءت بمطابقتها الأصل الفارسيِّ وكأنها ترجمة لفظية . وحرصت على

أن يكون المبني وعاء للمعنى وحسب ، فهو سهل واضح لم أجنح فيه إلى تعقّد ولا تنطع ، ولا تكلفتُ من البلاغة إلا اجتناب الركاكة ، ولا استسلمت إلى تلك الشوائب اللغوية التي يُسمونها ضرورات الشعر — ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

فإن كنتُ لم أبلغ من ذلك ما يرضيك ويرضيني ، فعزائي أنه ما من ديوان في العربية يخلو من حشو أو ركاكة ، مع ما للشاعر المفصح عن خوالج نفسه من حرية في تصريف معانيه وألفاظه ، خلافاً للمترجم عن أفكار غيره . ولست أريد بهذا اعتذاراً لنفسى فإنى لا أعذر فنانياً على التهاون في فنه والتقصير في تجويده وإتقانه . ولكنى إنما أريد تذكير القارئ بما في ترجمة الشعر من لغة إلى شعرٍ في لغةٍ أخرى من مشقة بالغة ، ولا سيما إذا أراد المترجم أن يكون أميناً في نقل المعنى ، دقيقاً في أدائه . ويعلم الذين زاولوا ترجمة الأدب اللباب — ولو من نثر إلى نثر — ما في توخّي الدقة من إرهاق ومتاعب ، فأما توخّيها في ترجمة الشعر شعراً فضربٌ من الأهوال أوثر أن أعني القارئ من وصفه .

على أن نقل المعنى من لسان إلى لسان لا يُعني وحده عن الأصل شيئاً ، فياربّ معنى يتناوله شاعرٌ فيهزك ويطربك ،

ثم تقرأ نفس المعنى لشاعر آخر ، فإذا هو جامدٌ ميت لا يبعث
فيك حسًا ولا يهيج شيئاً . فلماذا حاولت أن أنقل مع المعنى روحه
وملاحظته .

ولكل رباعية صورة ذهنية لها ألوانها . فلعلّي ما أضعفت
لها لونها ، ولكنني اجتهدت أن أقويها وأوضحها — حينما استطعت .
وما فوّتْ نكتة ، ولا قدّمت وأخّرت ، ولا حوّرت — حينما
يكون في ذلك إفسادٌ لمعنى ، أو تشويه لصورة ، أو إغفال للفتية
ذهنية . وإنما سعيت جهدى أن أنقل لك الخيام بأسلوبه وطلاوته
مع تشابيه واستعاراته كما هي . فإذا هو شبّه القصد بالسروّة
لم أذكر البان ، وإذا قال « ثقبوا دُرّ المعاني » لم أقل « ابتكروا
المعاني ، أو سبّحوا إليها ، أو افتضوا أبقارها » . فأنا إذن لم أنقل
هذه الرباعيات الفارسيّة إلى الذوق العربيّ ، وإنما حاولت أن
أنقل الذوق الفارسيّ والأسلوب الخياميّ إلى قرّاء العربية .

وإن كنت قد أبخّت لنفسي شيئاً من التصرف ، فإنما هي
ضرورة الوزن والقافية ، تقتضيني كلمةً أضيفها أو أحذفها ،
فلا تضير المعنى إضافتها ولا يفسده حذفها ، حتى لا تكاد تحسّ
بها في الحالين . وقد اضطر الخيام نفسه إلى النزول على أحكام
هذه الضرورات في لغته ، فأوجز بعض معانيه كلّ إيجاز ، ومطّ

بعضها كلَّ مطّ . ولا بدّ للمتّرجم من اختزال هذه وإيضاح تلك — وقد فعلت من ذلك ما واتانى .

ولكنّ الخيام يكثر من ذكر الخدّ والطُّرّة من محاسن الملاح ، فذكرت معهما ما تيسّر من مفاتيح أخريات ، دفعاً للتكرار ، وحبّاً بالتنويع .

هذا إلى أنّ بعض الرباعيات يختلف نصّها الفارسيّ باختلاف الروايات ، وقد وزانتُ بينها وتخيّرت منها ما بدا لي أنه أقوم وأجمل .

وثمة رباعية قبيحة يجعلنا ما فيها من فاحش القول نعتقد أنها ليست للخيام ، وقد هدّبتها . وإليك ترجمة الشطرين الثالث والرابع منها :

« أنا لا جرم لي خلافاً للشرع ، يا أهل الصلاح ،
« سوى العذر واللواط والزنا ... » .

وقد ترجمتها هكذا :

أنا يا أهل التّقى لم أرتكب في الشرع إثماً
طول عمرى ، غير كفران ، وسكر ، وزنا

وهذا بالخيام أجمل ، وإلى طراز تفكيره أقرب . وحسبي

أن نَهتُ القارىءُ إلى أن هذه الرباعية قد لا تكون للخيام أصلاً .
وأمثال هذا التحوير في هذه الترجمة نادر على كل حال .

التكرار

وآفة هذه الرباعيات هذا التكرار الملعون الذى ضقتُ به
فرعاً ، وعسى ألا يضيق به القارىءُ . فإن بعضها مُعادٌ بنصته
تقريباً ، وبعضها نجد جانباً من معناه في رباعيات أخرى .
والغالب أن يكون نصف الرباعية مقدمة ونصفها نتيجة ،
وكثيراً ما تتكرر المقدمة وحدها هنا والنتيجة وحدها هناك ،
لتؤدِّي كلٌّ منهما وظيفة أخرى في أداء معنى آخر . ذلك بأن
الخيام نظم رباعياته في أوقات متباعدة ، فإذا عاوده نفس المعنى
أفرغه في قوالب شتى ، أو تناوله من نواحي متباينة . فصار يكرر
نفسه شكلاً أو استعارةً أو تشبيهاً أو موضوعاً أو مغزىً — مع
شيء من الاختلاف قليل أو كثير .

ولم أجد علاجاً للأمر غير الحذف ، ولكن التكرار ما يزال
موجوداً بالرغم من كثرة ما حذف . ولو قد نبذت كل رباعية
تكرر بعض معناها لما بقي منها إلا القليل ، ولو حذف من كل
رباعية ما تكرر من معناها لما بقي من بعضها غير شطر واحد .

وقد أُطْرِحَتْ كَذَلِكَ رُبَاعِيَاتٌ أُخْرِيَاتٌ لَتَفَاهَتِهَا ،
أَوْ لَثَبَتْ بَطْلَانَ نَسَبَتِهَا إِلَى الْخِيَامِ ، مِمَّا لَا يَنْسَجَمُ مَعَ نَفْسِيَّتِهِ
وَتَفَكِيرِهِ ، كَهَذِهِ الرَّبَاعِيَّةِ :

إِنْ نَكُنْ جِئْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ نَمْشِي خَاشِعِينَ
فَلَعَمْرِي لَمْ نَجِيْ كَيْمَا نَصَلِّي طَائِعِينَ !
إِنَّمَا كُنَّا سَرَقْنَا مِنْ هُنَا سَجَّادَةً
وَلَقَدْ رَأَيْتُ لِحْنَنَا بِسَوَاهَا طَائِعِينَ !

وكهذه الرباعية :

عِنْدَمَا تَأَقَّ فَوَادِي لَصِيَابِ لَصِيَابِ وَصِيَامِ
قَلْتُ : هَاقِدْتُمْ لِي مَا كُنْتُ أَرْجُو مِنْ مَرَامِ
ضَلَّةٍ لِي ، فَوْضُوْنِي نَقَضْتَهُ نَسْمَةً
وَصِيَامِي أَبْطَلْتَهُ رَشَفَاتٍ مِنْ مَدَامِ !

وما إلى ذلك من رباعيات كثيرة شائعة على السنة قرأه
الخيام وهي ليست له . وقد بلغ ما حذف نحواً من خمسين
رباعية ، بعد أن عانيت ما عانيت في نظمها . ولم تجد نفسي
بأن أطرح منها أكثر من هذا ، فإن شاء القارى فليشطب
بالقلم ما لا يعجبه منها .

تمحيص الرباعيات

تكمُّ الخيام

وماخال أن الذي زعمتُ من دقة ترجمتي ومطابقتها الأصل
الفارسيّ خليقٌ بان يسؤل للباحث العربيّ أن يعتمد هذه المجموعة
في درس فلسفة حكيمنا الشاعر وبحث آرائه في الكون والحياة
والمات . فمن الحقّ عليّ إذن أن أنبّهه إلى أمرٍ قد لا يروقه أبداً ،
وهو أنني لست على يقينٍ من أن هذه الرباعيات التي يقرأ هي
رباعيات الخيام حقا . فما من محقق خياميّ يسعه أن يجزم بأنّ
معشار تلك الرباعيات التي تعدّ بالألوف والتي تكتظّ بها النسخ
المختلفة — للخيام حقا ، كما يسمعك أن تقطع بأن :

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي نوحُ بالكِ ولا ترثمُ شادي
لأبي العلاء المعري ، وأنّ :

معاني الشعب طيبًا في المعاني بمنزلة الربيع من الزمان

لأبي الطيب المتنبي .

ذلك بأن عمر الخيام ، فيما يبدو ، لم يجمع رباعياته في حياته كما جمع أبو الطيب ديوانه ، وكما جمع أبو العلاء لزومياته ، وسقط زنده . ولعل الخيام قد جمع رباعياته ، بيد أنه لم يستطع أن يُظهرَ الناسَ عليها إلا خاصة أصدقائه وصريديه ، من الزاهبين مذهبه في التفكير . وأنا أكاد أجزم أنه كان كتمها عن أهل زمانه خيفةً على نفسه من مغبة ما فيها من خروجٍ على الدين ، وثورة .

قال في إحدى رباعياته :

فُصِّلَتْ أسرارُ دنياكم لدينا في الدفاترُ
قد طويناها ، ففي النَّشرِ وبالٍ ومخاطرُ
لم نَجِدْ في الناس من يعقلُ من أهل البصائر
فعدا يُعجِزنا إظهارُ ما تُخفي الضمائرُ

وقد اتهموه بالكفر حتى خشي أن يفتكوا به ، بل لقد أخبرنا في رباعية له طريفة أن القوم اتهموه كذلك بالفلسفة :

يتظنّ الشانىء الواهمُ أنى فيلسوف
علم اللهُ بآنى لا كما قال السخيفُ

بيد أنى وأنا فى وكرِ أتراحِ وبؤسِ
لا أقلَّ الآن أن أعرف فيه كُنْهَ نفسى!

فهو يتنصّل من التهمة ويُشْهِدُ اللهَ على براءته منها مدّعيًا أنه أراد
أن يعرف نفسه ليس إلا . وذلك دفاع فيه مكر كثير ، لأن
معرفة النفس هى باب الفلسفة فى مذهب سقراط ومشايعيه .
ولكن يظهر أن عمر الخيام كان يعتمد على جهل المتهميه .

ووجهُ الاتهام بالفلسفة والتنصّل منها هو أنها كانت توأم
الزندقة فى عرف القوم . وقد يما قالوا : من تمنطق تزندق !

فرجلٌ هذه حاله ، فى جيل من الناس كذلك الجيل
التمسك بأهداب الدين ، يسوسه المتعصبون من رجاله الذين
كان يكفّر بعضهم بعضاً ويُفتي بقتله لخلافِ يسير فى الرأى —
ما كان يسعه أن يعلن على الملأ رباعياتٍ له حريفةً الطعم ،
لاذعةً التهكم ، فيها مروقٌ عن الدين ، وتنديد بالمراثين من
رجالهِ ، وفلسفة .

ونحن مازلنا فى هذا القرن العشرين ، نشهد فى بلادنا

العربية مفكرين لا يجدون مناصاً من كتمان آراء لهم في الدين أو الاجتماع أو السياسة ، مخافة غضبة مضرية تحل نعمتها عليهم من رجعية أو جهالة أو حكومة .. وكثيراً ما حلت .

على أن الخيام كان بالرغم من هذا ، وأحياناً بسبب هذا ، ينظم الرباعيات اللاذعة (ولعل الأذعها وأوجعها ما نظمه أيام تكفيره) ويتلوها حين تتاح له الفرصة على من يأمن جانبه من خاصة صحابته والمعجبين به من أهل طريقته . فكان بعضهم ولا شك يحفظها ، وبعضهم ينسخها ويتلوها بدوره على أصدقائه .

فلما توفي الشيخ الحكيم كانت رباعياته متفرقة في بطون الدفاتر وعلى أفواه الرواة . وإذا كان هو قد ترك نسخة في منزله أو نسخاً لدى رواته وتلاميذه تضم رباعياته كاملة ، فأمرنا لا نعلم عنه شيئاً . ولكن بعضهم قد حاول من غير شك أن تكون له نسخة كاملة ، ولعل بعض مريديه قد نسخ ما ليس لديه منها عن بعضهم ، فتمّ لهم من ذلك ما أرادوا ، أو لم يتمّ لهم من ذلك ما أرادوا .

اختلاط الرباعيات

وقد جهد الباحثون من المتأخرين أن يظفروا بإحدى هذه النسخ القديمة فأخفقوا . وكان أقدم ما وقعت عليه أيديهم هي النسخة المعروفة بنسخة بودلين Bodleian المحفوظة في أكسفورد . وقد كتبت سنة ١٨٦٥ هـ ، أى بعد وفاة الخيام بثلاثة قرون ونصف قرن . ونحن بعد لا نعرف المصدر الذى أخذ عنه جامع هذه النسخة ، ولا مبلغ ما يحق لنا أن ننيط بها وبه من ثقة . وقد وردت فيها رباعيات ثبت أنها منسوبة دخيلة .

ولا تحتوى نسخة بودلين هذى إلا على ١٥٨ رباعية ، أما النسخ التى تليها تاريخاً ، فهى كلما كانت أحدث عهداً كان ما تحتويه من الرباعيات أكبر عدداً ، حتى أن نسخة طبعت فى طهران تضم نحواً من ألف رباعية . ويؤمن مجموع ما يعزى من الرباعيات إلى الخيام فى مختلف النسخ الراجحة بنحو خمسة آلاف رباعية^(١) .

(١) المستشرق الألماني الدكتور فردريك روزن — مقدمة (رباعيات حكيم عمر خيام) وهى النسخة التى وقف على طبعها بالفارسية فى مطبعة (كاويانى) ببرلين سنة ١٣٠٤ شمسية ، أى ١٩٢٥ م وقدم لها بمقدمة ضمنها نتيجة بحوثه فى الخيام ورباعياته .

إن الذي لدينا من أخبار الخيام نفسه وأطوار حياته جُدُّ قليل ، وما نعرف أن أحداً من معاصريه — على قلة من كتب عنه منهم — قد أشار بكلمة إلى الرباعيات . وأما الذين أشاروا إليها وذكروها فكلهم قوم لم تقع أعينهم على الخيام ، فاعتمدوا على السماع بعد آحاد طويلة لا يوثق معها بالسماع وحده .

ومهما يكن من الأمر ، فإنني أحسب أن المعجبين بالخيام طفقوا بعد وفاته ينسخون الرباعيات بعضهم عن بعضهم ، حتى خرجت من أيدي خاصة الخيام إلى أيدي عامة الناس . وكانت طرافة الرباعيات وما فيها من روعة في التعبير ، وإفصاح عن خواجه الكثيرين من مثقفي ذلك العصر المتلاطم الآراء ، المتباين النزعات — باعثاً للشعراء ممن أولعوا بالخيام على أن ينسجوا على منواله في نظم الرباعيات ، حتى كثرت ما نُظِمَ منها على طريقته كثرة عظيمة . وإذا بالخيام يفتدو إمام مدرسة في الشعر والفكر .

ولم يشتهر أحد من هؤلاء التقليديه . ولعلمهم كانوا يكتمون أمرهم مثله ، بل لعل بعضهم كان يعزو بعض رباعياته إلى الخيام تنصلاً من تبعها . فانضافت رباعيات هؤلاء إلى رباعياته .

ولم يقتصر نظم الرباعيات على هؤلاء الخياميين المفلسفين

الذين ظلُّوا يتساءلون عن أسرار الكون وغاية الحياة والموت ،
يناقشون مسائل الدين والكلام مناقشةً أقرب إلى الإنكار
أحياناً ، وهي الإنكار بعينه أحياناً ، غير قانعين بما يجدونه لدى
الدين من أجوبة عليها . وإنما كان للأتقياء المؤمنين كذلك
رباعياتهم يذُبُّون بها عن حياض الدين ويردُّون ريب المرتابين وكفر
الكافرين ، فيها وعظ وفيها تذكير ، وفيها قنوت وخشوع .

وكان للمُجَّان كذلك رباعياتهم . فيها خمر وفيها صباغة
وفيها خلعة . يتغنَّون بها في الحانات ، على أنغام المزاهر
ورنات الأقداح .

وكان للمتصوفة رباعياتهم يترنِّمون بها في حلقات أذكارهم ،
فيها غزل ونسيب ، وفيها مناجاة و (شطحات) . بل إنهم
كثيراً ما ترنَّموا برباعيات الخيام ، أو برباعيات الماجنين الخلعاء ،
من باب الوجد والشطح !

وكان للزهاد رباعياتهم يعبرون بها عن غر وفهم عن عرض
الحياة الدنيا وأطماعها ، في ذلك العصر الذي كثرت فيه الفتن
وفشا التكالِب على الجاه والسلطان ، فكان طبيعياً أن يفسو
فيه الزهد والانزواء .

وقد اختلطت هذه الرباعيات كلها برباعيات الخيام ،
اختلاطاً أصبح يتعذر علينا معه أن نميز بينها ونرد كلاً منها إلى
صاحبها ، ولا سيما أن أصحابها مجهولون لم يسجل التاريخ أسماء
لأكثرهم . والمعروفون منهم لم يشتهر أحدهم شهرة الخيام ،
فأصبحت كل رباعية متشردة لا صاحب لها تنتمي إليه .

وكانت الرغبة في استكمال الرباعيات وعدم تفويت شيء
منها يجعلان النسخ يضيفون إلى نسخهم كل ما تقع عليه أعينهم
من رباعيات يقال لم إنها للخيام ، فيلحقونها بها — يضمونها
إلى آخرها أو يدشونها في أثنائها . وهو عين ما تفعله أنت وأفعله
أنا ، إذا أراد أحدنا استكمال نسخته . فهكذا أصبحت رباعيات
الخيام أشبه بكرة الثلج ، تكبر حجماً كلما زادت تدحرجا .
وهكذا حملوا الكثير مما وجدوا من رباعيات الشعراء على الخيام ،
كما حملت العرب الكثير من الحمريات وشعر المجون على أبي نواس ،
وكما أضافت الفرس الكثير من نوادر الأذكياء والباهاء إلى
ملا نصر الدين .

تحرّيف الرباعيات

ويبدو أن طائفة من الصلحاء تعمّدوا أن يعزّوا إلى الخيام
من الرباعيات التي تحضّ على التوبة والتقوى ما لا علم له به ،
وحوروا رباعياتٍ له فرووها على غير وجهها ، تحقيفاً لما فيها من
تطاول على الشرع .

وإليك من أمثلة التحوير هذه الرباعية :

كويند مهرا كه دوزخی باشد مست
قولیست دروغ دل در آن نتوان بست
گر عاشق ومیست دوزخی خواهد بود
فردا بینی بهشت را چون کف دست

وترجمتها :

« يقولون إن السكران مصيره النار » .
« قولٌ كذبٌ لا يستطيع القلب أن يعلق به » .
« إذا كان مصير العاشق والسكران إلى النار » ،
« فغداً ترى الجنة كراحة الكف »^(١) .

(١) الرباعية ٣٩ في هذه المجموعة .

فقد استبدلوا في بعض الروايات كلمة (دروغ) أي (كذب) من الشطر الثاني بكلمة (وليك) أي (واكن) . فصار المعنى هكذا :

« إنه قول ، ولكن لا يمكن أن يعلق به القلب » .

وربما استقام المعنى على هذا الوجه ، ولكنه على كل حال أضعف من الوجه الأول . ولو كان في الكتابة شبه بين الكلمتين الفارسيتين (وليك) و(دروغ) لقلنا : لعلها من أخطاء النساخين المشهورة . فالظاهر إذن أن أحد الأتقياء أراد أن يهون من وقع المعنى ، فنفي الكذب عن الدين القائل بأن الشارب الخمر مصيره إلى النار . ولكنه نسي أن الرباعية قائمٌ كيائها كله على محاولة إثبات هذا الكذب ، وأنه لهذا لم يكذب يصنع شيئاً بهذا التحوير .

وإليك مثالا آخر :

أبها القالي الحميا ، لا تندد بالسكارى
لا تشيد بالأباطير وبالتدجيل دارا
إن تخرجت من الخمر فلم تزهي أغترارا ؟
كم فوال لك يخزي الخمر منه وتواري !

قد ورد الشطر الثاني في بعض النسخ هكذا :

« وأنا إن تسنى لي تبتُ إلى الله »

على حين أن موضوع الرباعية يدور بأجمعه على المخاطب لا المتكلم . كما أن المعنى في الرواية الأولى أكثر انسجاماً مع بقية الأشطر ، ولا سيما الأخير .

هذا وأمثاله ينبئك بما أصاب رباعيات الخيام من تحريف مقصود بالإضافة إلى ما مُنيتُ به من الآفة الشائعة التي لم يكدها يسلم منها كتاب قديم ، وهي تصحيف النساخين وأخطاؤهم .

الرباعيات الجواله

وقف الباحثون حيال ركام ضخمة من الرباعيات المتباينة الأغراض ، المتناقضة المعاني ، موقف الحيرة والتهيب . وحاولوا بما أوتوا من صبر وفطنة أن يمحّصوها ويستخلصوا منها رباعيات حكيمنا الفلكي مما خالطها من رباعيات سواء ، فتقدموا في هذا السبيل متدرجين ، يفيد لاحقهم من خطأ سابقهم وصوابه — شأنهم شأن العلماء في كشف حقائق العلم وارتداد مجاهل الأرض والسماء .

جاء المستشرق الروسي جو كوفسكي بنظرية « الرباعيات

الجوالة « حين لحظ أن بعض الرباعيات يحول في دواوين الشعراء
الفرس ، فافترض أنها منسوبة إلى الخيام . إلا أنه اعترف أن مجرد
وجود الرباعية في دواوين بعض الشعراء ليس بالدليل القاطع على
أنها لهم دون الخيام ، فقد اتضح أن بعض هذه الرباعيات موجود
في نسخ من رباعيات الخيام أقدم عهداً من الشعراء الذين وردت
في دواوينهم ، فكان هذا دليلاً على أن بعض رباعيات الخيام
قد سافر إلى دواوين الشعراء كما هاجر بعض رباعياتهم إلى
ديوانه — على حدّ تعبير فردريك روزن .

أنظر مثلاً إلى هذه الرباعية التي وردت في بعض النسخ
من ديوان حافظ الشيرازي :

يا لجمشيدَ وقصرٍ كان فيه يشربُ
وَلَدَتِ فِيهِ ظِبَاءٌ ، وَأُسْتَكَنَّ الثَّلَبُ
يا كبهرامَ الذي كان يصيد العَيْرَ عمراً
أرأيتَ القبرَ كيف اصطاده لا يرهبُ ؟

يقول فردريك روزن وهو مصيب : « إن هذه الرباعية
قد تكون للخيام وقد لا تكون ، إلا أنها لا يمكن بحال أن
تكون لحافظ . ذلك بأن الفرق بعيد بين دنيا الشاعرين » .

ومهما يكن فإن نظرية « الرباعيات الجوّالة » طريقة في البحث سلبية ، لم يكن يُنتظر منها أن تفضيَ إلى نتيجة إيجابية . فلو افترضنا أن كل الرباعيات الجوّالة محمولٌ على الخيام لكان قصارانا أن ننبذها ، ولبقيت لدينا بعد ذلك كومة مركومة من الرباعيات نحتاج إلى التحقيق في أمرها .

الرباعيات الموسومة

وجاء الأستاذ كريستنسن بطريقة أخرى . فكان منه أن جمع كلَّ رباعية ورد فيها لقب « الخيام » ، وقال يحتمل أن تكون أصيلة غير دخيلة . ولكن هذه الطريقة وإن تكن إيجابية ، فإن عدد هذه الرباعيات لا يتجاوز الاثنتي عشرة . فلو صحَّت نسبتها إليه كلها لكانت مع ذلك قليلة . على أن الأستاذ جامعها يعترف ، مثل اعتراف جوكوفسكي ، أنها طريقة لا يعوّل عليها . وأثبت ذلك برباعية ورد فيها اسم الخيام موضوعا مكان اسم صاحبها .

وقد نفى فردريك روزن ستًا من هذه الرباعيات الاثنتي عشرة . أما ثلاثٌ من هاته الست فيبدو أنه لا ريب

في كونها محموة على الخيام ، وأما الثلاث الأخريات فلستُ
أستطيع أن أجزم مع المستشرق الألماني بنفيها . إحداهما مثلاً
هذه الرباعية :

خاطَ للحكمة خيامَ خياماً وارتحلُ !
مذهوى المسكينُ في أتونِ حزنٍ واشتعل !
قطعتُ أطنابَ دنياه مقاريضُ الأجل !
ورخيصاً باعه في الشوق دلالُ الأمل !

فهو يقول : « وأكبر الظن أنها كتبت بعد وفاة الخيام » .
وقد تابعه على ذلك العلامة فروغى^(١) حيث يقول : « ويقينٌ
أن شخصاً آخر قالها عن الخيام ، كما لحظ الدكتور روزن » ولستُ
أعرف لذلك سبباً ، لأنهما لا يذكرا سبباً . فإن كان حديث
الرباعية عن الخيام بضمير الغائب هو الذي جعلهما يظنان أن

(١) المرحوم آقاي محمد علي فروغى ، كان أحد جهابذة السياسة
والعلم والأدب في إيران ، توفي منذ بضع سنوات أثناء الحرب العالمية
الأخيرة . وله تصانيف في الأدب الفارسي منها مجموعة رباعيات الخيام طبعها
باسم « رباعيات حكيم خيام نيشابورى » وقدم لها يبحث قيم ممتع على إيجازه ،
وعلى مخالفتنا لبعض آرائه فيه . طبعت في طهران سنة ١٣٢١ شمسية ،
أي ١٩٤٢ م .

قائلها غيره ، فالحق أن الخيام يتحدث عن نفسه في الرباعيات
الاثنتي عشرة كلها — الصحيح منها والمنسوب ! — بضمير
الغائب طوراً والمخاطب طوراً ، وليس بينها واحدة يتحدث فيها عن
نفسه بضمير المتكلم . وإن كان حديثها عن موت الخيام بصيغة
الماضي هو الذي جعلهما يتوهمان ما توها فما أكثر ما يتحدث
الشعراء الفرسي خاصة ، عن الموت المستقبل بصيغة الماضي ، وما
أكثر ذلك في رباعيات الخيام نفسه . وما أكثر ما قال فيها :
« هلكنا ، ورحلنا » وهو يقصد « سنهلك ، وسنرحل » .

وقد وردت هذه الرباعية في النسخة التي وقف على طبعتها
الدكتور روزن . وإذا راجعت جدول الرباعيات الجوّالة تبين
لك أنها ليست منها ، فليس لها إذن غير الخيام صاحب معروف .
وصحيح أن هذا ليس بالدليل القاطع على صحة نسبتها ، إلا أنه
لا داعي إلى نبد رباعية موسومة باسم الخيام خاصة ، لجرد أنها
تتحدث عن موته على نحو مألوف في الشعر الفارسي . وأنا أستطيع
أن آتيك بعشر قصائد ، أو مائة إن شئت ، لغير الخيام —
يتحدث فيها أصحابها عن أنفسهم بضمير الغائب وهم يعنون
المتكلم ، ويذكرون موتهم بصيغة الماضي وهم يقصدون المستقبل .
ويقول الخيام :

يا خـليـليّ ، تعبنا عبثاً حتى بـلينا
ورماناً منجلُ الدهر شمالاً ويمينا
لهف نفسي ، لهف نفسي ، لم نكد نفتح عيناً
في حياةٍ لم تكن وفق المنى حتى فنينا

فإذا تمسكنا بمنطق الدكتور روزن لم يبقَ لنا إلا أن نفترض
أن الخيام نظم هذه الرباعية بعد وفاته !

وإذا رجعنا إلى الرباعية الأولى -- التي أنكرها الخياميان
الإيراني والألماني -- وجدنا أن ظاهر معناها لا يدلّ على أن غير
الخيام قد تحدث فيها عنه . فإن مفادها لو كان قالها سواه ، هو
التشفي . ولكن هذا التشفي لا يتفق مع الثناء عليه بالقول أنه
خاط خياماً للحكمة ، في الشطر الأول . فالظاهر إذن أن الخيام
يفخر بنفسه وبحكيمته في هذا الشطر الأول ، كما فعل في بعض
رباعياته ، وفي بعض أبياتٍ له عربية ، ثم هو يأسف في بقية
أشطر الرباعية على نفسه وحكمته تذهبان هدرأ . وما أكثر
ما أسف في رباعيات أخريات .

فالرأى عندي أن هذه الرباعية إنما ينبغي أن يكون قائلها
الخيام . فإن كانت من صنيع امرئٍ سواه فإنما أراد أن يقولها

على لسان الخيام ويُندجِه إياها ، لا أن يتحدث فيها عنه .

أما المرحوم فروغى فالحق أنه ينكر هذه الرباعيات الاثنتي عشرة برمتها ، بالرغم من ورود اسم الخيام فيها ، بل لورود اسم الخيام فيها ! ذلك بأنه يشك في « أن حكيم نيسابور قد سَمَّى نفسه بالخيام أصلاً » . ويسترسل فيقول : « وإنما يبدو للنظر أن لقب الخيام يخصُّ أباه ، فإننا لم نَرَ من معاصريه والقريبين من عهده من دعا الحكيم بالخيام ، وإنما هم كلما ذكروا اسمه جاءوا بلقب الخيام أو الخيامي بعد اسم أبيه ، أو دعووه ابن الخيام . فيمكن الاعتقاد أنهم لم يسمُّوا الحكيم خياماً في عصره ، بل صار يعرف بالخيام بعد ذلك نسبة إلى أبيه على سبيل التجوز »^(١) .

وهذه ملاحظة جديرة بالتقدير والتسجيل ، لو كانت صائبة . وهي تدهشني حقاً لما فيها من تسرع في الحكم على غير تمحيص وثبّت ، ما كنت أتوقع مثله من مثل العلامة المرحوم . ذلك أن العروضي السمرقندي^(٢) كان معاصراً للخيام وصديقاً ، وقد سماه « خواجه امام عمر خيامي » دون ذكر لاسم أبيه إبراهيم . فهذا دليل دامغ على خطأ البحاثه الجليل .

(١) رباعيات حكيم خيام نيسابوري — ص ٣١ .

(٢) أحمد بن عمر بن علي النظامي العروضي السمرقندي — في كتابه « نهار مقاله » أي المقالات الأربع .

وقد بعث الإمام القاضي أبو النصر محمد بن عبد الرحيم النسوي
مقطوعة إلى حكيمنا النيسابوري مطلعها :

إن كنتِ ترعِينِ يارِيحِ الصَّبَا ذِمِّي
فأقْرِ السَّلَامَ عَلَى الْعَلَامَةِ الْخَيْمِي

دون ذكر لاسم أبيه أيضا .

فلقب الخيام ، أو الخيامي ، أو الخيمي كان معروفاً إذن للخواجه
الإمام عمر بن معاصريه . والظاهر أن القاضي أبا النصر دعاه
بالخيمي بدلا من الخيام أو الخيامي نزولاً على ضرورة الشعر ،
ولكن ذاك يدل على كل حال أن الإمام الحكيم كان يلقب
بشيء له صلة بالخيمة . وقد سماه البيهقي^(١) الذي لقيه في صباح
« الدستور الفيلسوف حجة الحق عمر بن إبراهيم الخيام » . فربما
كان أبوه إبراهيم يصنع الخيم كما يستنتج الباحثون فلُقّب بالخيام ،
ولعل ابنه الدستور الفيلسوف صار يلقب بالخيام تارة تبعاً لأبيه ،
و بالخيامي تارة أخرى من باب النسبة . والإيرانيون ميالون إلى
إضافة ياء النسبة إلى الألقاب وأواخر الأسماء ، حتى ليسمّيني

(١) أبو الحسن علي بن زيد البيهقي — « تنمة صوان الحكمة »
تم تأليفه ما بين سنتي ٥٥٣ و ٥٦٥ هـ :

بعضهم « آقاي فاضلي » ! ولعل بعض معاصري الخيام فعلوا ذلك بقلبه فسّموه بالخيامي . ويبدو أنه آثر هو الأوضح والأسهل في قرض الشعر فسعى نفسه في رباعياته بالخيام .

والخلاصة أني أرى أن ذكر اسم الخيام في الرباعية إن لم يكن دليلاً على صحة نسبتها إليه ، فما هو بالدليل على صواب نفيها عنه ، ما لم يتم على ذلك اليقظة القاطعة من رواية صحيحة أو سند مقبول^(١) .

ولا يستغربن القاري إطالتي في الرد على المرحوم فروغى هنا ، فإن محو بضع رباعيات أو إثباتهن لأمرٌ جَلَلٌ في مثل بحثنا . وإن رباعية يتيمة واحدة يصحُّ عندنا في هذه الفوضى أنها للخيام لأثمن عند الخياميين من الدرّة اليقظة . وفروغى بجأته له مقامه في الأدب الفارسي ، فإذا هو ارتأى رأياً فأصاب أو أخطأ تبعه الكثيرون على خطئه أو صوابه ؛ ولهذا أجدني أكثر لرأيه .

مقارنة الرباعيات

وللمستشرق الروسي جو كوفسكي طريقة أخرى إيجابية ، غير نظرية « الرباعيات الجوالّة » السلبية . ذلك أنه وجد في

(١) في هذه المجموعة ثمان من الرباعيات الموسومة باسم الخيام ، هي الرباعيات : ٤٤ ، ٤٨ ، ٧٥ و ٢٠١ و ٢٠٢ و ٢٨٨ و ٣٣٠ و ٣٣٣

بعض كتب الأقدمين بضع رباعيات ذكرها للخيام من باب الاستشهاد ، فهي أخلق أن تكون من نتاج قريحته ، لأن روايتها أقرب إليه عهداً ، وروايتهم أوثق مما بأيدينا من نسخ لا نعرف من جمعوها ولا من أين جمعوها . منها مثلاً رباعيتان رواهما الرّازي^(١) في « مرصاد العباد » واستشهد بهما على ضلال الخيام . فالمستشرق الروسي يرى أنهما لورودها في « مرصاد العباد » ولوجودها كذلك في النسخ القديمة من الرباعيات كان لنا أن نطمئن شيئاً إلى صحتها^(٢) .

وقفت الباحثون على أثر جو كوفسكي فجعلوا يضيفون إلى الرباعيات الصحيحة رباعيات جديدة كلما عثروا على شيء منها في كتاب قديم ، حتى وفقّ المرحوم فروغى أخيراً إلى جمع ٧٤ رباعية نقلها عن ثمان روايات قديمة مختلفة ، منها بضع رباعيات ذكرها روايتها من باب الاستشهاد ، ومعظمها من باب الاختيار والاستحسان . وإذا أخرجنا منها ثمانين رباعية تكرر ذكرها في بعض هذه الروايات بقي لدينا ست وستون رباعية رواها قوم

(١) نجم الدين أبو بكر الرّازي — « مرصاد العباد » تأليف سنة ٦٢٠ هـ ، أي بعد وفاة الخيام بنحو قرن واحد .

(٢) هما الرباعيتان ٩٥ و ٧٤ من هذه المجموعة .

كلهم أقدم عهداً من أقدم نسخة بين أيدينا من مجموعات
الرباعيات ، فهي من أجل ذلك أحق بالركون إليها والاطمئنان
إلى صحتها . وقد اتخذها فروغى وسواه مثلاً يقيسون عليها سائر
الرباعيات ، فما كان بها شبيهاً عدّوه للخيام ، وما كان لها مغايراً
عدّوه لسواه . فلنسمّها إذن بالرباعيات المعتمدة .

مناقشة الرباعيات المعتمدة

ولكني أجدني أتساءل : عن أيّ المصادر أخذ القدامى
هاته الرباعيات الستّ والستين ، وأقدم كتبهم دُونَ بعد وفاة
الخيام بما لا يقل عن قرن من الزمان ؟ ولكن ما العمل ؟
فلنفترض أنهم قد أخذوها عن .. مكانٍ ما ، ونسلمّ مؤقتاً بصحتها .
يقول فروغى : « متى وضعنا نصب أعيننا هذه الرباعيات
الستّ والستين التي يحتمل احتمالاً قوياً ، بل يصح الاعتقاد ،
أنها للخيام ، ووزناً خصائص كلام الحكيم ، كان الشيء الذي
بواجهنا أنها جدّ بسيطة ، عارية عن التزييق ، بريئة من التصنع
والتكلف . بل إنها مجردة حتى من الأخيلة الشعرية ، حتى
ليمكن القول إنها ليس فيها من الشبعر غير الوزن والقافية .

ولكنها على غاية الفصاحة والبلاغة ، صحيحة موجزة محكمة ،
كل ألفاظها قالبٌ للمعنى ، لا نقصان فيها ولا زيادة ، ولا عيب
ولا شائبة . وواضح أن قائلها لم يقصد إلى تنميق الألفاظ
والتفاح ، فكلمها مقيدٌ بأداء المعنى . وأما المعاني فمن اللطف
والدقة والإبداع بحيث تسمو على كل تحيّل واصطناع ، فهي
جدٌّ لا هزل فيها . وهو يبدى أحياناً بعض الطيبة ، كثير الدقة
والظرف ، وكلامه ناعم لا وخز فيه ، ومضامين الرباعيات كلها
نتاج طبع حكيم متفكر مستطلع . . الخ » .

وأنا لا أكره للخيام أن يكون كذلك ، ولكن بين هذه
الرباعيات المعتمدة ما ليس كذلك . فإليك هذه الرباعية :

« ما دام تركيب الطبائع وفق مرامك لحظة ، »

« فاذهب وعش سعيداً ، ولو كنت تسام الضيم ! »

« وكن مع أهل العقل ، فإن أصل جسمك ؛ »

« غبار ونسيم وشرار وريح ! »

فأنت تلحظ السخيف ولا شك في الشطرين الأخيرين
خاصة ، حيث ينصحك صاحب الرباعية أن تكون مع أهل
العقل .. لماذا ؟ لأن أصل جسمك كذا وكذا ! إن من عابته

الخيام — كما سترى عند قراءة رباعياته — أن ينصح المرء بالاستمتاع بمباهج الحياة لأنه سيموت ، فأما إذا نصحك أن تكون مع العقلاء فلاسباب أوجه من كون أصل جسمك غباراً ونسياً وشراراً وريحاً ! وقد استرعى انتباهك من غير شك أيضاً أن المقصود بالنسيم والريح شيء واحد هو الهواء ، وأنه كان عليه أن يذكر الماء بدلا من أحدهما ، لتتم العناصر الأربعة التي كانوا يعتقدون أنه لا عناصر غيرها . وهذا أبعد ما يكون عن الدقة التي اتصف بها الخيام ، وذكرها له فروغى .

وإليك هذه الرباعية :

« أنا لا أتحمشى شرب الخمر لضيق ذات اليد ، »
« ولا لهمّ الفضيحة والسكر ، »
« وإنما كنت أشرب الخمر للسرور . »
« أما الآن وقد جلست على قابي فلا أشرب ! »

فهذا كلام غث لا يصدر مثله عن مثل الخيام . وحسبك أنه — أي قائل الرباعية المجهول — يزعم أنه لا يشرب الخمر لأنك .. (أي حبيبه) قد جاست على قلبه ! وما سمعنا أن سكيراً أقلع عن المدام لأنه أحب ، وإنما العكس هو المشهور . وفي هذه

المجموعة رباعية تُوَدِّي تقيض هذا المعنى ، جاء فيها :

صَادَ لِي عَشُقُكَ شَيْبِي فِي أَحَابِيلِ الدَّلَالِ

يَا أَخَا الْحَسَنِ ، وَإِلَّا مَا لَصِهْبَاءَ وَمَالِي ؟

وقد لا تكون هذه الرباعية للخيام ، ولكن معناها هو

للمقول المقبول .

فأبي «حكمة أو تفكر أو استطلاع» في هاتين الرباعيتين ،

وأمثالهما بين الرباعيات الست والستين غير نادر؟ وغريبٌ أن

يقول فروغى إن كلامه ناعم لا وخز فيه ، فأبي وخز أوجع

من قوله :

إِنَّ مَنْ صَارُوا مُحِيطَ الْعَالَمِ بَيْنَ الْعَالَمِينَ

وَعَدَوْا فِي الْفَضْلِ مَصْبَاحَ الْهُدَى لِلْمُهْتَدِينَ

لَمْ يَشُقُّوا مِنْ دُجَى الشُّكِّ طَرِيقًا لِيَقِينِ

إِنَّمَا قَضَوْا أَسَاطِيرَ ، وَنَامُوا بَعْدَ حِينِ !

أو قوله :

أَبْدَعَ الصَّانِعُ تَرْكِيبَ طِبَاعِ الْبَشَرِ

فَلَمَّا إِذَا شَانَهَا بِالنَّقْصِ أَوْ بِالْوَضْرِ ؟

إن تكن جاءت ملاحاً ، فلماذا خرَّبُها ؟
أو تكن جاءت قباحاً ، فعلى من عَيَّبها ؟

وأمثال هاتين الرباعيتين — بين الستِ والستين —

كثير ؟

على أنى لست أريد إلى انتقاد فروغى هنا وتفنيد رأيه في خصائص الخيام ، ففى وسعك بعد قراءة الرباعيات أن ترى رأيك فيها ، وفى رأيه فيها . فلنعدُّ إلى ما فى بعض هذه الرباعيات المعتمدة التى يرويها المتقدمون من غثائفة وسخف ، فإن هذا يدل على أن بينها ما هو ممدسوس محمول على شيخنا الحكيم . فالمتقدمون كالمحدثين عرضة للخطأ ، وقد طالما لفقوا الأحاديث وزيفوا الأخبار ، وقد طالما أخطأوا فى النقل والرواية عن حسن نية أيضا . . كالتأخرين سواء بسواء .

لهذا أرى أن الرباعيات الست والستين لا يصحُّ اتخاذها مقياساً دقيقاً لرباعيات الخيام ، وإن كان يصحُّ اتخاذها مقياساً غير دقيق ، ومحكاً غير منزَّهٍ عن الخطأ . فإنما هي أمثلة استشهد بها بعضهم ، أو مختارات انتقاها آخرون وفق أذواقهم ، فلم يقصدوا إلى الإحاطة والشمول ، فيها الأصيل والدخيل . ولعل ثمة

جوانب من فلسفة الخيام أو شاعريته لم تعجب منهم أحداً
فأهملوها ولم يذكروا منها رباعية واحدة . وليس بعيداً أن
يكون له رباعيات في المجون أو الهجاء أو أيّ ضربٍ من ضروب
القول نظنه بعيداً عن الخيام وأمثاله ، ولكلّ شاعرٍ نزوات
وبدوات . ولعلنا لو ظفّرنا بمجموعة الرباعيات الأصيلة لاختار
منها فروغى ولاخترت منها أنا غير ما اختار القوم .

وما دام الحدس والذوق هما كل سندنا في القياس للتمييز
بين صحيح الرباعيات من فاسدها ، فلا معدى لنا عن أن نلصق
بالخيام كل رباعية تشبه من رباعيات غيره من الشعراء ما دمنا
لا نعرف لها صاحباً سواه ، وأن نجرّده من كل رباعية له ما دامت
لا تشاكل الرباعيات المعتمدة ولو كنا لا نعرف لها صاحباً سواه .
فهذا عين الخطل ، وهذا الخطل لا محيص لنا عن ركوبه إلى أن
نهتدي إلى طريقة أمثل منه .

إن هذه الحيرة لا ينتشلنا منها إلا نسخة قديمة يجدها أحد
الباحثين تجمع رباعيات حكيمنا الشاعر كلها ، ويسعنا الركون
إلى صحتها . وهذا لعمر ك أمل يبدو كأنه بعيد . .

عدد الرباعيات

إن هذا يحدوني إلى ألا أتشدّد في اختيار الرباعيات تشدّد
المرحوم فروغى الذى اكتفى بانتقاء ١٧٨ رباعية فقط — بما
فيها المعتمدة — رغبةً منه في جعلها أقرب إلى الصحة ، وتجنباً
لخطأ الأخذ بما ليس للخيام من رباعيات . لأنى أرى أن خطأ
المراء في نبذ رباعيات للخيام لا يقلّ سوءً عن خطئه في الأخذ
برباعيات غيره .

والواقع أن البحثة الجليل فروغى يشايح سواه من الخياميين
في ميلهم إلى الإقلال من عدد الرباعيات ؛ فبعضهم يرى أن
ما للخيام منها لا يربو على الثلاثئة ، وبعضهم يرى أنه دون
المائتين . وقد قال لى الخيامى التركي المشهور رضا توفيق فى حديث
جرى لى معه فى استانبول إنه يعتقد أن الرباعيات الأصيلة
لا تتجاوز المائة . فقلت له إننا نعلم أن الخيام قد نثّف على السبعين ،
ولعله شارف الثمانين أو جاوزها ، بل إننا لا يسعنا أن نقطع بأنه لم

يبلغ المائة مثلاً ، فليس لدينا على ذلك دليل من رواية أوقرينة^(١) .
فإذا افترضنا أنه لم ينظم سوى رباعية واحدة (أى بيتين وحسب)
كل شهر ، وأنه لم يعيش أكثر من سبعين عاماً ، وأنه لم يمارس
نظم الرباعيات قبل أن يبلغ الثلاثين - يكون على ذلك
قد تعاطى نظمها أربعين سنة ، ويكون مجموع ما نظمها منها
٤٨٠ رباعية !

والخطأ في هذه الفرضية ، إن كان فيها خطأ ، أنه ليس
محالاً أن ينصرم العام والعامان ولا ينظم الخيام رباعية واحدة ،
فما كان بالشاعر المحترف ولا المتفرغ للقريض . ولكن هذا
مجرد احتمال ، وقد يكون احتمالاً ضعيفاً . ومن المحتمل أن يكون
لقاء ذلك قد نظم أحياناً عدة رباعيات في يوم واحد .

أما دليل فروغى على قلة الرباعيات فهو هذا التكرار في
معاني الكثير منها ومبانيه . وهو يستبعد أن يكرر الخيام نفسه
إلى هذا الحد ، وأنا أستبعد ذلك معه . ولا أنكر ، ولا ينكر أحد

(١) لاحظ المرحوم فروغى أن الخيام كان في عداد المشهورين من
الفلكيين سنة ٤٦٧ هـ حين اشترك في وضع التقويم الجلالى ، فلا بد أن
يكون عنده قد بلغ الثلاثين أو الأربعين من عمره . وقد توفى على المشهور
سنة ٥١٧ هـ أى بعد وضع التقويم بخمسين عاماً ، فيكون قد عاش ثمانين
عاماً على أقل التقديرين .

أن الكثير من الرباعيات قد نظمه مقلدو الخيام وأتباع طريقته .
ولكنى أعتقد أن للتكرار بالإضافة إلى هذا سبباً آخر ،
هو أن الخيام نفسه قد أعاد نفسه بنفسه وكرر بعض معانيه .
ذلك بأنه لم ينظم رباعياته في وقت واحد ليعالج موضوعاً خاصاً
فيربط بين أجزاءه ، ويهذب فصوله ، ويشذب زوائده . وإنما
هى خطرات عابرات ، كلما سنحت له واحدة منها أفرغها في
رباعية قد تشبه رباعيةً له سبقتها ، وقد يكون بينها وبينها عشرات
الرباعيات فى معانٍ أخرى ، وعشرات الشهور . وسرى عند
قراءة الرباعيات أن خطرات معينة قد شغلت عقله فأنحصر فيها
تفكيره ، من ذلك كثرة ذكره الموت حتى فى معرض الدعوة إلى
اللهو والحضّ عليه ، ومن ذلك مسألة الجبر والاختيار . فكما
جاش فى نفسه أحد هذه المعانى وألحّ على ذهنه أطلقها رباعية
مجلجلة يفرّج بها عن نفسه . وما دامت هذه الأفكار تعاوده
بعينها دائماً فلا جرّم أن يعالجها من شتى نواحيها ، ويفصح عنها
بشتى النعابير . بل لا جرم أن يكررها بعينها ، إذا تقادم العهد ،
وهو لا يدرى . ومن من الكتاب أو الشعراء أو الفلاسفة لا يعيد
نفسه على هذا النحو ، ويعرض بعض أفكاره مراراً متعددة
فى قوالب مختلفة -- من حيث يريد ومن حيث لا يريد ؟ .

وهذا شوقى مثلاً ، ما أكثر ما سأل الموتى في مراثيه عما
لديهم من أسرار الفناء ، وهو ناسٍ أنه فعل ذلك وكرره مراراً
في مراثٍ سالفات . ولو قرأت لزوميات المعزى ورأيت ما فيها
من التكرار « لهالك الأمرُ وأستهوتك أحزانُ » !

بل لقد كرر الخيام بعض معانيه في نفس هذه الرباعيات
السّت والسّتين التي اقتنع فروغى بصحتها . أفلم يلحظ ذلك ؟
فليس حتماً إذاً أن تكون لغير الخيام واحدةً من كلِّ
رباعيتين مكررتين .

وعندى على كثرة الرباعيات دليلٌ آخر إن لم تجده قاطعاً
فهو على كلِّ حال جديرٌ بالاعتبار . ذلك أن الرباعيات الأربع
والسبعين التي جمعها المرحوم فروغى من ثمانية مصادر ، لم يتكرر
منها سوى ثمانى رباعيات وحسب ؛ فبقي لنا منها ست وستون ،
كما رأينا قبل . فلو كانت رباعيات الخيام الأصيلة من القلة
بمحيط يتوهم المتوهمون لتكرر منها الكثير .

ولأضرب مثلاً : فلنفترض جدلاً أن رباعيات الخيام
لا تربو على المائتين ؛ فخذ لقاءها مائتى بيت من ديوان المتنبي ،
ثم سلّ ثمانية أشخاص أن يختاروا منها أربعة وسبعين بيتاً تُوزعُ

عددها عليهم بنسبة ما ورد من الرباعيات في الكتب الثمانية
الآنفة الذكر . أفبظنُّ مهما اختلفت أذواقهم أنه لن يتكرر
اتفاق أي اثنين منهم في اختيار أية رباعية أكثر من ثمان
مرات ؟ .

إني لأرى أن في تكرر ثمانى رباعيات فقط من تلك
الروايات الثمانى لدليلاً على أن أصحابها قد اغترفوا من بحر واسع
فلم يلتقوا إلا قليلاً . ولكن لا تسلى كم عدد رباعيات الخيام ،
فأنا لا أستطيع أن أحدد لها عدداً ، ولو تخميناً . فحُمن أنت
إن استطعت .

مدرسة الخيام

أما التمييز بين صحيح الرباعيات من فاسدها — على أساس
القياس — فلكل من الباحثين مذهب فيه . وإنك لتجد كل
واحد منهم يقول هذه الرباعية للخيام ، وتلك ليست للخيام —
لعله لا أعرفها . وما وجدت اثنين من المحققين يتفقان على
ما يختاران منها ، بل وجدت أن ما يعدّه أحدهم رباعية صحيحة
لا غبار عليها ، يعدّه سواه رباعية مدخولة عليها غبار كثير .

أما أنا فأعترف بمعجزى عن تمييز رباعيات الخيام مما عداها تمييزاً تطمئن إليه نفسى ، لهذا أنفض يدي من هذه المهمة التى تبدو أقرب إلى المحال . وقد جمعتُ فى هذا الكتاب ما استحسنت من جمهرة الرباعيات ؛ فالآ تـكن كلها للخيام فلا بد أن الكثير منها له . وما أحسب أن ما فيها يخالف رأيه ، ولا إخاله يستاء لو عاد إلى الحياة وقرأ هذه المجموعة فوجد فيها ما ليس له من رباعيات قد عُرِي إليه ، بل لعله يؤسفه إغفالى بعض رباعيات له أهملتها لتكرارها أو لإسفافها ظناً منى أنها محمولة عليه . ومهما يكن من الأمر فإن مجموعتى هذه جامعة أكثر منها مانعة ، ولا بد أن يكون فيها رباعيات ليست للخيام .

وإنما هى فى مذهبي رباعيات « مدرسة الخيام » تمثل أفكار الخيام وطائفة من مثققي عصره وما تلاه من عصور فى فارس ، كما كانت رسائل « إخوان الصفاء » مثلاً تصور أفكار طائفة أخرى فى بلاد العرب .

وأما الرباعيات الست والسبعون فقد ترجمتُ منها سبعم وأربعين ، أشرت إليها بجانب أرقامها بهذه العلامة (*) تمييزاً لها ، لكى يتبينها القارئ ويتخذ منها مثلاً يقىس عليه بقية الرباعيات ، إذا هو شاء القياس . وأما الرباعيات الأخرى

التسع عشرة اللواتى أهملتهن وإنما أهملتهن لغثاثة معناهن
أو تكرره فى رباعيات أقوى منهن أو أدق ، مما تخيرته من
مختلف النسخ .

على أننى لا أريد أن أقول إن لنا ملء الحريرة فى أخذ
كل ما يقع بأيدينا من رباعيات بحجة أنها من رباعيات
« مدرسة الخيام » ولا أن أنكر كل فائدة للقياس على هذه
الرباعيات الست والستين ، ولكنى إنما أردت أن أقول إن
هذه الرباعيات الست والستين ليست كل رباعيات الخيام فهى
ليست جامعة ، وإن فيها ما ليس للخيام فهى ليست مانعة .
وقد أسقط المرحوم فروغى نفسه اثنتين منها فلم يذكرها فى
مجموعته (١) .

شعره العربى

وما دمنا نريد أن نقيس مضطرين ما لا نعرفه على ما نتوهم
أننا نعرفه ، فقد خلص إلينا شعر عربى للخيام لم يطعن أحد فى
صحته فيما أعلم ، والرأى أن نضيفه إلى الرباعيات المعتمدة التى

(١) هما الرباعيتان ١٧ و ١٣٤ من مجموعتنا . حذفهما لسبب لم
يذكره ، بدلا من حذف غيرها من رباعيات سقيمة .

نفترض صحة معظمها ، فذلك أعون لنا على القياس . وهو على
كل حال قليل أثبتته فيما يلي :

١

تَدِينُ لِي الدنْيَا ، بل السبعة العُلَى
بل الأفقُ الأعلى ، إذا جاش خاطري !
أصومُ عن الفحشاء ، جهراً وخفيةً
عفافاً ، وإفطاري بتقديس فاطري
وكم عصبية ضلّت عن الحقّ فاهتدّت
بطُرقِ الهدى من فيضِي المنقِاطِرِ
فإنَّ صراطِي المستقيمَ بصائرٌ
نُصِبْنَ على وادي العمى كالقناطر !

٢

إذا قنعتُ نفسي بميسورِ بُلغَةِ
تحصلها بالسكِّ كفى وساعدي
أمنتُ تصاريفَ الحوادثِ كلّها
فكن يازماني موعدي أو موعدي !

ولى فوق هام الفيرين منازل
وفوق مناط الفرقدين مصاعدي
أليس قضي الأفلاك^(١) في حكمها بأن
تعيّد إلى نحسٍ جميع المساعدي ؟
فيا نفس صبراً في مقيلك ، إنما
تحرّ ذرّاه بانقضاض القواعد
متى ما دنت دنياك كانت بعيدة
فوا عجباً من ذا القريب المباعدي !
إذا كان محصول الحياة منية
فسيان حالاً كلّ ساعٍ وقاعد !

٣

سبقتُ العالمين إلى العالى
بثاقبِ فكرةٍ وعلوِّ همّة
فلاحَ بحمكتي نورُ الهدى في
ليالٍ للضلالة مدلهمة

(١) ربما كان الأصح : أما قضت الأفلاك . وقد وردت في شعره
العربي بعض أخطاء صححناها بمقابلة مختلف الروايات .

يريد الجاحدون ليطفئوه
ويأبى الله إلا أن يتمه !

٤

العقل يعجبُ في تصرفه
ممن على الأيام يتكلم
فسوالها كالريح منقلب
ونعيمها كالظل منتقل !

٥

زجيتُ دهرًا طويلًا في التماسِ أخٍ
يرعى ودادى إذا ذو خلةِ خانا
فكم ألفتُ وكم آخيتُ غيرَ أخٍ
وكم تبدلتُ بالإخوانِ إخوانا
وقلتُ للنفسِ لما عزَّ مطلبُها
باللهِ لا تألنى ما عشتِ إنسانا

وإننا ليسعنا أن نطمئن إلى صحة نسبة هذه الأبيات ،
فأسلوبها كما يرى القارى أشبه بالعلماء منه بالشعراء . وإن ما فيها

من استعارات ونشايه ، وذكر للأفلاك ، والمناحس والمساعد ،
وانقضاء القواعد ، وانقلاب الرّيح ، وانتقال الظل — يشير
إلى أن قائلها من المستغلين بالطبيعة والأفلاك . فهي من هذه
الناحية أدلُّ على الخيام حتى من رباعياته الفارسية . على أن
معانيها ، باستثناء الفخر ، تطابق معاني الرباعيات مطابقة ممتعة .
بل إن الفخر ليؤيد لنا بعض التأييد صحة الرباعية التي نفاها عنه
روزن وفروغى ، فيما تقدّم بنا من البحث . والفخر وإن كان
شائعاً في شعره العربيّ ، قليلٌ في رباعياته الفارسية . ولا أدري
لماذا أفرغ معظم خيلائه ومباهاته في هذه الأبيات العربية على
قلّتها . فلعله كلما انتابته نزوة من العجب بنفسه وحكمته لجأ إلى
لغة الضاد ، لشيوع الفخر في شعر العرب .

وإذا اتخذنا هذه المقطوعات العربية محكاً للرباعيات وجدنا

أن قوله :

تدين لي الدنيا ...

أشبه بقوله في إحدى رباعياته :

فصّلت أسرارُ دنياكم لدينا في الدفاتر

وأن قوله في نفس البيت :

... بل السبعة العلى

بل الأفق الأعلى ، إذا جاش خاطرى

يدكرنا رباعيته :

قد حللنا معضلات الكون طرًا للملئ
من حضيض الأرض تالله إلى أوج زحل
ووثننا من أحابيل خداع وحيل
ففضحنا كل سرّ ...

وأما قوله :

إذا قنعت نفسى بميسور بلغة
تمصّلها بالكد كفى وساعدى
أمنتُ تصاريف الحوادث كلها
فكن يا زمانى موعدى أو مواعدى

وقوله :

أليس قضى الأفلاك فى حكمها بأن
تعيد إلى نحس جميع المساعد ؟
فما أكثر ما ينطبق عليه من رباعيات . وأما قوله :

إذا مادنت دنياك كانت بعيدةً

فواعجبًا من ذا القريب المباعد

فيذكرنا بهذه الرباعية التي يعرض فيها لأمثال هذه المتناقضات:

كلما باعدتُ نفسي زدتُ من نفسي دُنُوءًا !

وأراني أتدلى كلما رمتُ علُوءًا !

يا لها خمرٍ وجودٍ أحسبها ، بيد أني

كلما زدتُ بها سكرًا أراني زدتُ صحواً !

وأما قوله :

فكم ألفتُ وكم آخيتُ غير أخٍ

وكم تبدلتُ بالإخوان إخوانا

وقلتُ للنفس لما عزَّ مطلبها

بالله لا تألني ما عشتُ إنسانا

فأشبه بهذه الرباعية :

صاحٍ أقللُ ما تمكَّنتُ عديد الأصدقاء

واصطحب إن شئتَ أهل الدهر لكن من بعيدٍ

إن من تركنُ في الدنيا إليه بالولاء

ليس في باصرة العقل سوى خصمٍ لدودٍ !

وأما قوله :

إذا كان محصول الحياة منيةً

فسيانِ حالاً كلِّ ساجٍ وقاعد

فشييه برباعيته :

إن من فگر في الدنيا ابتداءً وانتهاءً

وجد الأفراح والأتراح في الدنيا سواء

ومصير الطيب والخبيث إذا كان الفناء

فلتكن إن شئت داء كلها ، أو فدواء !

وليس معنى هذا أن كل رباعية يتفق معناها مع شيء من

شعره العربيّ فهي له ، ولكنها إن لم تكن له كانت تتفق مع

أفكاره ، وكان لنا أن نختارها ، حتى يثبت لنا أنها لسواه .

عقليته

الخيام العالم

ما نكاد نجد في تاريخ الثقافة الإسلامية كله عقلاً ممتازاً
كعقل الخيام أحاط بكل ما كان معروفاً في عصره من العلوم
وألف بين متناقضاتها . فلقد جمع الفلك إلى الفقه ، والطب إلى
قراءات القرآن ، والفلسفة إلى علوم اللغة ، والشعر إلى الكيمياء ،
واللاهوت إلى الرياضيات ..

وكان في هذه المواضيع كلها مبرزاً ، معدوداً في الطبقة الأولى
من أحبارها المتوفرين عليها . يناظرهم في فنونهم ، ويباريهم في
ميادينهم فيظفر منهم بالإعجاب والإكبار . ولكن عقله آثر من
كل هذه العلوم أعسرها وأصعبها تحصيلاً في ذلك العصر ، فنفذ
إلى صميم العلم الخالص والفكر المطلق ، فتخصّص في الفلك
والرياضة حتى كان فيهما واحد دهره ، ورائد جيله .

كان أحد أعضاء اللجنة التي وضعت التقويم الجلالى على عهد السلطان جلال الدولة ملكشاه السلجوقى ، فجعلت يوم النيروز مبدأ السنة ، أى أول نقطة من الحمل على اصطلاح المتقدمين^(١) . ويعدُّ هذا التقويم أصح من التقويم الجولياني ، وقريباً في دقته من التقويم الغريغورى . ويفضّله بعضهم على هذا الأخير أيضاً .

ولم يذكر لنا المؤرخون صفة الخيام في هذه اللجنة ومكانته بين أعضائها ، ولكن الأرجح أنه كان رئيسها . يدلّ على هذا ما حكاه القزوينى حيث قال : « وكان — أى الخيام — في عهد السلطان ملكشاه السلجوقى ، سلم إليه مالا كثيراً ليشتري به آلات الرصد ويتخذ رصد الكواكب ، فمات السلطان وماتت ذلك^(٢) » وكان هذا سنة ٤٦٧ هـ أى نفس السنة التى اجتمعت فيها اللجنة لوضع التقويم . فلو لم يكن أعلم القوم في

(١) لا زال النيروز رأس السنة في إيران ، وهو أول أيام الربيع (٢١ آذار) الذى يتساوى فيه الليل والنهار ، وأكبر الأعياد لدى الإيرانيين شعباً وحكومة ، من قديم الزمان . فهو عيد الطبيعة ورأس السنة حقا .
(٢) زكريا بن محمد بن محمود القزوينى — « آثار البلاد وأخبار العباد » تأليف سنة ٦٧٤ هـ .

الفلك لما آثره السلطان بمهمة إنشاء الرصد . والواقع أن بعض الرواة يقول ان السلطان عهد بإنشاء الرصد إلى جماعة من الفلكيين منهم شاعرنا الخيام . ولكن الظاهر أنه كان أرجحهم ، فإن تفوقه أمرٌ ذكره غير واحد من الرواة القدامى .

أما في الرياضة فقد بقي لنا كتابه القيم « الجبر والمقابلة » الذي حلّ فيه بعض ما كان مستعصياً على متقدميه من مسائل الجبر والهندسة ، فأضاف بذلك ثروة جديدة إلى ثروة العلم^(١) .

وكان فوق هذا طبيياً نطاسياً ، بلغ من حدقه وبعد صيته أن دُعِيَ لمعالجة السلطان سنجر حين أصابه الجدري في صباه . وكان مبرزاً في علوم الطبيعة فعُدَّوه « تلو أبي عليّ — أي ابن سينا — في اجزاء علوم الحكمة^(٢) » .

وأما التاريخ والجغرافيا وعلوم اللغة وعلوم الدين فقد بلغ فيها ما بلغ أصحابها المنقطعون لها ، وقد تأدّى إلينا في هذا خبر طريف رواه البيهقي^(٣) حيث قال : « ... وقيل دخل الإمام عمر يوماً

(١) حلّ في هذا الكتاب المعادلة ذات الدرجة الثالثة بطريقة هندسية . وقد ألفه بالعربية كأكثر كتبه . طبع بالعربية والفرنسية في باريس سنة ١٨٥١ م .
*(٢ و ٣) « تمة صوان الحكمة » ، وقد مرّت الإشارة إليه في الحاشية .

على شهاب الاسلام الوزير . . . وكان عنده إمام القراء أبو الحسن
الغزالي ، وكانا يتكلمان في اختلاف القراء في آية ؛ فقال شهاب
الإسلام : على الخبير سقطنا ! فسأل الإمام عمر عن ذلك فذكر
وجوه اختلاف القراء ، وعلل كل واحد ، وذكر الشواذ وعللها ،
وفضل وجهاً واحداً على سائر الوجوه . فقال إمام القراء أبو الحسن
الغزالي : كثر الله في العلماء أمثالك ! اجعلني من أمة أهلك
وارض عني ، فإنني ما ظننت أحداً من القراء في الدنيا يحفظ
ذلك ويعرفه ، فضلاً عن واحد من الحكماء ! .. » .

فإذا كان هذا مبلغ علمه في مثل هذا الفن الخاص الذي
قل من يطلبه ، فما بالك بالعلوم الشائعة الأخرى من فقه وتفسير
وحديث وكلام ؟

وقد كان الأقدمون يعرفون له هذا التفوق ويشيدون به ،
فما وقعت عيني على اسمه في إحدى الروايات إلا مقروناً بالتبجيل .
ولئن طعن بعضهم في دينه فما طعن أحد منهم في علمه أبداً . حتى
الشيخ الرازي^(١) الذي استشهد على ضلال الخيام برباعيتين
ذَكَرْهُمَا ، أغدق عليه ما شاء من صفات المديح قبل أن ينعتة

(١) مر ذكره في الحاشية .

بالضلال ، فقال : « .. حتى أن أحد الفضلاء المشهور لديهم
بالفضل والحكمة والكياسة والمعرفة ، وهو عمر الخيام ، قال من
فرط الحيرة والضلالة ... » ، ثم يذكر الرباعيتين^(١) .

إلا أنه كان قليل التأليف ، فلم يترك لنا من الكتب إلا
« الجبر والمقابلة » الذي سلفت الإشارة إليه ، وإلا عدداً قليلاً
من الرسائل في شتى أصناف علوم الطبيعة . والحق أن المتقدمين
ذكروا له هذا الافلال أيضاً وعابوه عليه ، فعده بعضهم من
باب البخل بالمعرفة .

الخيام الفنان

كان عبقرينا الفلكي بالإضافة إلى كل علمه هذا أديبا
شاعراً ، يذوق الأدب ويحفظ الشعر ، ويقرضه بالعربية على
قلة طوراً ، وبالفارسية أطواراً . وقد خلف لنا هذه الرباعيات
الباهرة المتألقة في سماء الأدب الفارسي خاصة ، والأدب الشرقي
عامة ، تألق النجم الوهاج . وهي من أنفس ما أنتجته الثقافة
الإسلامية في كل عصورها ، وأشهر كتاب شرقي على الإطلاق

(١) هما الرباعيتان ٩٥ و ٧٤ من هذه المجموعة .

في الشرق والغرب ، والغرب على الأخص . وما من لغة حيّة
إلا وقد ترجمت إليها الرباعيات أكثر من مرة ، فما يفازعها من
تراث الشرق في ذبوعها في العالم اليوم إلا « ألف ليلة وليلة »
وهو كتاب لا يعزى الفضل في تأليفه إلى أحد ، فقد اشتركت
فيه أجيال ومؤلفون .

عقيدته

من المؤمنين طائفة لا يحبّون أن ينسبوا أحداً إلى الكفر .
فهم من باب التقوى ، يصفون بالإيمان حتى من كان كفره
صراحاً لا مريبة فيه ، ولا ميباً بعد وفاته ، على سنّة : « اذكروا
موتاكم بالخير » . وهؤلاء على طيب قلوبهم وكرم نفوسهم
لا يصلحون لتمحيص التاريخ على أساس علمي . ومن هذه الفئة
من عنّا إلى النبيّ العربيّ أحاديث أرادوا بها إلى الإصلاح
فأفسدوا ، فحكى بعضهم عن الرسول مثلاً أن من قرأ سورة
الضحى صباحاً كان له أجر سبعين ألف ملك ، لكل ملك
سبعون ألف رأس ، في كل رأس سبعون ألف لسان ، كل
لسان يستبح الله بسبعين ألف لغة .. وأمثال ذلك من الأحاديث
الموضوعة كثير . أرادوا أن يصلحوا بترغيب الناس في تلاوة
القرآن مثلاً فأفسدوا الدين وشحنوه بالخرافات ، كأنما توهموا أن

النبي كان عاجزاً عن قول ما قالوا ، أو أنهم أوحى إليهم من أمور الدين ما لم يُوحَ إليه ! ونسوا أن الحقيقة ضالة المؤمن ، وأن في وصف أحد الزنادقة بالإيمان لضرراً بالغاً بالدين ، إذ يتوهم سواد الناس أن ما قال ذلك الزنديق ليس زندقة ولا كفرة ، فيخذوا حذوه ويقولوا قوله . وليت شعري ما يربح الدين من الزعم بأن بشار بن برد مثلاً مؤمن تقي ، وهو لا مؤمن ولا تقي ؟ حتى المعري والحليمان ما الفائدة من ستر زندقتهما ، وقد كانا زنديقين ، وشعرهما الحافل بالزندقة ملء الأفواه ؟

إن الباحث الحق يجب أن يكون كالطبيب ، يشرح ويتحرى الحقائق الباردة بلا تستر ولا تحرج . الأعضاء عنده كلها سواء لا حرمة لبعضها دون بعض ، ولا فضل لبعضها على بعض إلا بالعافية . وإذا كان « لا حياء في الدين » فلا مداجاة في العلم والتاريخ .

ولا أعلم هل كان المرحوم فروغى من هؤلاء الأبرار المفسدين حين نفي الإلحاد عن الحليمان بالرغم مما في رباعياته من صريح الإلحاد . فهو يدافع عنه ويتأول بعض رباعياته ، كأنما يدافع عن قريب له أمام المحكمة لينقذه من المشنقة ، ثم هو يتغافل

عن رباعيات له إلحادية لا تقبل التأويل ، كأنه لا يراها . وكان الخيام يكتم إلحاده في حياته خيفةً على حياته ، أما اليوم وقد تصرّمت عليه طوال القرون فقد أجهز الموت من خيفة الموت .

وما كان الخيام وحيداً في إلحاده ، في عصره ولا فيما سبقه أو تلاه من عصور . وقد كان عصره على الأخص يبور كالبحر الهائج ، تضطرب فيه العقائد وتتمرد ، وتتلاطم — بعد أن حرّك ساكنها انتشارُ الفلسفة اليونانية وذيوعُ زندقة الفرق الباطنية . فكان في ذلك وفي فساد سيرة الكثيرين من رجال الدين ، ما عاون على فشوِّ الإلحاد بين عامة الناس كخاصتهم ، وجهلتهم كمتقيهم .

وحجة المرحوم فروغى في الدفاع عن الخيام هي أنه إنما كان يتساءل عن حكمة الله في أمور لم يدركها عقله ولا عقل سواه ، وأن التساؤل ليس كفراً . « فالذي يلوم الخيام إذن بسبب إظهار حيرته في شؤون الدنيا لم يفتن إلى أنه هو أيضاً لم يفقه شيئاً وأنه جاهل مرّكب ، وأن معنى كلامه هو أن الحقيقة لي ، فسلم بالطاعة ودع عنك الفضول ، واطرح عقلك الذي أعطاكه الله لعنشد الحقيقة . وهذا هو الكفر في شرع الحكمة والمعرفة»^(١) .

(١) رباعيات حكيم خيام نيشابورى — ص ١٣ .

الحق أنه لا مجال للانكار أن بعض الرباعيات يمكن عدّه
من باب التساؤل وإظهار الخيرة في شؤون الدنيا ، على حد تعبير
المرحوم فروغى . ولكن ثمة بعضاً آخر لا يأتيه الشك ولا يمكن
عدّه إلا من باب الجحود وإظهار الكفران .

تأمل هذه الرباعيات :

إن قرآنا دعوهُ في الورى خير البيانِ
ليس يُتلى دائماً ، بل بين آن وأوانِ
وعلى الأقداح خُطَّتْ آيَةٌ بينةٌ
أبدًا تُقرأ ، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ !

قيل لى : ما أطيبَ الجناتِ بالخور الحسانِ
بيد أنى قلتُ : ما أطيبها بنت الدنانِ !
فدع القرض ، عليك الآن بالنقد الوكيدِ
يا صديقى ، إن صوتَ الطبلِ محلّو من بعيدِ !

أبداع الصانعُ تركيبَ طباعِ البشرِ
فلماذا شأنهم بالنقص أو بالوضر ؟
إن تكن جاءت ملاحًا ، فلماذا خرّبهما ؟
أو تكن جاءت قباحًا ، فعلى من عيبها ؟

حارَ قومٌ بين شكِّ و يقينِ ، يا صديقُ
وأطالَ الفكرَ في المذهبِ والدينِ فريقُ
أنا أخشى أن يُنادَى ذات يومٍ : أن أفيقوا
أيها الجهالُ ، لا هذا ولا ذاك الطريقُ !

أفهذا مقال من يتحرَّى حكمة الله ؟ وإن لم يكن هذا
كُفراً ، فالكفر كيف يكون ؟ إن هذه الرباعيات موجودةٌ
كلُّها في مجموعة فروغى ، والأخيرتان منها من الرباعيات المعتمدة .
وفي مجموعة فروغى من أمثالها ما يربو على العشرين !

الإلحادُ الرياضى

كان عقل الخيام رياضياً قبل كل شيء ، فهو أخو أعدادٍ
مضبوطة ، وأشكال هندسية منتظمة . يحسبها بالمنطق الرياضى
الدقيق الذى لا يقبل زيادةً ولا نقصاً ، وقيسها بالأدلة الهندسية
للوزونة التى لا تقبل تأوُّلاً ولا نقضاً . فالرياضة لا مذاهب فيها
ولا جدلَ ولا أحزاب — كما فى الدين والاجتماع والسياسة .

بهذه العقلية الرياضية نظر الخيام إلى الدين ، وناقش مسائله
مناقشة مسائل الجبر والهندسة ، فما انتهى إلى نتيجة رياضية
لا تقبل الجدل . وكيف يمكن أن يكون الدين كذلك ، وليس
في التاريخ ما أثار الجدل واختلاف الآراء كالدين ؟

إننا نعلم أن المسلمين انقسموا إلى نحو سبعين فرقة ، لكل
منها كتبها وأخبارها وعقائدها ، وقعت بينها إلى جانب المناظرات
والمهارات حروبٌ سفكت فيها الدماء ، ولم يمنع ذلك أن يكونوا
كلهم مسلمين . فأما مسائل الرياضة فلا فرق فيها ولا حروب ،
يتفق فيها الناس على اختلاف مللهم وأجناسهم . فإذا عرضت
مسألة رياضية على مسلم في الحجاز وكنفوشيوسي في الصين
كان جوابهما واحداً . فإذا اختلفا فلا بد أن يكون أحدهما ، على
الأقل ، مخطئاً ؛ ولا مفرّ له من التسليم بخطئه إذا أرشدته إليه .
وأما إذا اختلف اثنان في مسألة مذهبية ، ولو كانا من دين
واحد ، فالأمل جدٌ ضعيف في وصولهما إلى نتيجة يتفقان
عليها . ذلك بأن الدين أمرٌ روحاني إلهامي ، لا مادي
ولا حسابي .

ومعلوم أنه لا بدّ لدى الدّين من الإيمان بأمر فوق إدراك

عقله ، وعلى هذا الإيمان يبنى إيمانه بما يدخل في متناول عقله .
فلذا عرّضت له قضية لا يفقهها سلمٌ بأن عقله أصغر من أن
يدركها . أما محاكمة كل مسألة على هذا النحو الرياضي فخليقٌ
بأن ينتهي بالمرء إلى مثل ما انتهى إليه بالخيام من حيرة
وإنكار .

انظر إلى هذه المسألة الحسابية :

قيل في الجنة حُورٌ قاصراتُ الطرفِ عِينُ
ونخورٌ جارياتٌ في نهورٍ وعُيونُ
أبي ضَيْرٍ إن طلبنا الحُورَ والنَّحْرَ هنا ؟
إن هذا هو عقبي الأمر فيما يذكرون ا

فهو يأتيك أولاً (بالفرضية) ، ثم يأتيك (بالبرهان
الرياضي) .

وانظر إلى المعادلتين التاليتين :

أنت ياربِّي كريمٌ ، أنت ذو لطفٍ ومَنُّ
فلماذا تطرد العاصيَ عن جنةِ عدنٍ ؟
ليس جوداً منك أن تعطيني عن حسناتي
إنما جودك أن تُؤْتِنِي عن سيئاتي !

وتأمل هذه المناقشة الغريبة :

يَعْلَمُ اللهُ بِشَرِّى هَذِهِ الصَّبَاءُ ، قَدِيمًا
فَإِذَا لَمْ أَحْسِبْهَا لَمْ يَكْ عِلْمُ اللهِ عَلِيمًا

واقراً هذا الاستنتاج الطريف :

قال من صارت لهم في العلم والتقوى الإمامة :
« يُحْشَرُ المرء على ما كان إذ لاقى حِجَامَهُ »
فلنلازم ويحك الحسنة دَوْمًا والمُدَامَةَ
فصاننا هكذا نُحْشَرُ في يوم القيامة !

لقد كان يدرك من غير شك ما في هذا الاستنباط الأخير
من مغالطة ، ولكنه فيما يبدو أعجبته النكته في منطقتها
الظاهريّة وسرى الكثير في ربايعياته من أمثال هذه المناقشات
والمغالطات .

وشغلت فكره قضية الثواب والعقاب باعتبارها ثمرة
الائتمار بأوامر الدين والانتهاز عن نواهيه ، ولكن عقله لم يهده
إلا إلى الإنكار .

يا فؤادى ، لم يرَ الجنة والنار بشره
أم أتى من ذلك العالم آتٍ بخبر ؟
إنَّ ما نخشى وما نرجو منوطان بشيء
ليس يبدو منه إلا أممٌ ووصفٌ للنظرا

ثم يُفِضِي به طول التفكير في الموضوع إلى هذه النتيجة :

كرَّبى الفكرُ إلى أول يومٍ في الخليقة
ناشداً في اللوح والجنَّةِ والنارِ الحقيقه
وإذا العقل ينادى قائلاً : ما أضيعك
ويك إنَّ اللوحَ والجنَّةَ والنارَ معك !

ومن أهم ما يستغرق تفكيره كذلك مسألة القضاء والجبر
تلك المسألة العويصة التي شغلت أذهان المفكرين في كل زمان
ومكان ، من ملاحدة ومؤمنين . وقد انتهى منها الخيام
كما انتهى الكثيرون من ملاحدة ومؤمنين ، إلى أن الإنسان
مسيرٌ لا خيرة له في شيء ، من يوم خُلق إلى يوم يموت . فكان
ذلك من جملة الأسباب التي أدت به إلى إنكار الثواب
والعقاب ، والكفران بذات الله .

قلمُ المقدار أجروهُ بأمرى دون أمرى !
فماذا ساءلوني منه عن خيرٍ وشرٍ ؟
ذهبَ الأمسُ بدوني ، وأتى اليومُ بدوني
فغداً بالله ما حجَّتْهم إن حاسبوني ؟

وقد عمد إلى علم الكلام فجعل يناقش صفات الخالق في
رباعيات له وافرة العدد ، على طريقته الجدلية الرياضية . منها :

قيل لى : ثمَّ حسابٌ وعقابٌ يومَ حشرٍ
يومَ يشتدُّ الحبيبُ المرتجى فى كلِّ أمرٍ
ليس عند الخير المحض سوى الخير لعمرى
فاغتبط ويك فعقبى الأمر ليست غير خير

إنتى ياربُّ عبدٌ مذنبٌ ، أين رضاؤك ؟
وفؤادى كالدجاجى مظلمٌ ، أين ضياؤك ؟
وإذا أعطيتنا الجنة بالطاعة منا
كان هذا منك بيماءً ، أين يارب عطاؤك ؟

يا إلهي ، أنا من قد برأتني قدرتك
وترعرعتُ عزيزاً ، دلتني نعمتك
سوف أمضي في المعاصي جاهداً سبعين عاماً
لأرى معصيتي أوسع أم مغفرتك

مقارنة بين زنديقين

أبو العلاء المعري أيضاً أنكر الدين وكفر ، ولكنه وقف
عند حدّ ، أما الخيام فقد مضى في كفرانه إلى النهاية .

ثار المعري على المجتمع وانتقد أخلاق بنيه وكذلك فعل من
بعده الخيام ، وثار على المشعبذين من رجال الدين وحمل عليهم ،
وكذلك فعل الخيام ، وثار على الدين كذلك وكذلك فعل
الخيام ، ثم قرأ عند هذه المرحلة وأقام .

قال المعري في إنكار دين الإسلام وكلّ دين :

هَفَّتِ الحَنيفَةُ والنَّصارى ما أَهْتَدَتْ

ويهودُ هامتُ والمجوسُ مضلَّةُ

إثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا

دين ، وآخر دِينٌ لا عقلَ له !

ولكنه تحير في أمر البعث بعد الموت ، فأنكره مرة ،

وآمن به مرة ، وتردد فيه طويلاً . فمن إنكاره قوله :

تَحَطَّمْنَا الْأَيَّامُ حَتَّى كَانْنَا

زَجَاجٍ ، وَلَكِنْ لَا يُعَادُّهُ سَبْكُ

ومن إيمانه قوله :

قال المنجم والطبيب كلاهما :

لا تُحْشَرُ الْأَجْسَامُ . قلتُ : إليك

إن صحَّ قولكما فلستُ بخاسرٍ

أو صحَّ قولي فأنحسارُ عليكما !

وكأنه نظر في هذا إلى الخيام نفسه ، فقد كان منجمًا وطبيبًا ،

فكان بذلك على صلة وثقى بأسرار الكون ومعجائبه ؛ يُرِيه

الفلكُ عظمة الأجرام الضخمة ومسافات الشاسعة لا يدركها

الفكر ، ويظهره الطبُّ على أسرار جسم الإنسان وهو أعجب

جهاز وأداة على سطح هذه الكرة الشريفة التامة . ناهيك

بما يقتزن بهذا الجرم الصغير ، الذى انطوى فيه العالم الأكبر ،
من نفس زاخرة بالأحاسيس وعقلٍ حافلٍ بالأخيلة والأفكار —
مما يكاد يجعله على ضآلته أضخم من الأفلاك وأفسح أبعاداً .

ومن عادة المؤمنين إذا أرادوا إثبات وجود الخالق أن
يتفكروا فى خلق السموات والأرض كالفلكيين ، أو فى خلق
أنفسهم كالأطباء — فيستدلّوا بالصنيع على الصانع . ولكن
يظهر أن المنجم والطبيب كانا مضرب المثل فى الكفر فى ذلك
الزمان قرنهما المعرى .

ولست أعلم هل كان شيخ المعرة جاداً أم هازلاً حين ردّ
على الطبيب والمنجم إنكارهما المعاد ، وأثبت إيمانه هو على هذا
النحو الصيرفى ، فى حسابان الريح والخسارة . ولكنى أذكر أنى
مذ وقعت عينى على هذين البيتين ، فى صغرى ، وقع فى نفسى
أنه يتهم .

على أن له أقوالاً غير هذا لا تهكم فيها ، أدلّ على إيمانه
بالحشر ، منها :

إذا ما أعظمى كانت هباءً فإنّ الله لا يُعيبه جمى

ولكنه وقد آمن بمحشر الجسد هنا ، نجده يقول في
مكان آخر :

أما الجسوم فالتراب مآلها وعييتُ بالأرواح أني تسلكُ !
ثم يعود فيقول في مكان آخر :

وإن صدت أرواحنا في جسومنا

فيوشك يوماً أن يعاودها الصقلُ !

ثم هو يقول متردداً متحيراً :

إن يصحب الروحَ عقلي بعد مظعنها

للصوت غني ، فأجدرُ أن ترى عجبا !

وإن مضت في الهواء الرّحب هالكةً

هالكٌ جسمي في تربي ، فواشجبا !

فمن العبث إذن أن نحاول تحديد عقيدة المعري في الحشر

تحديداً دقيقاً وهو نفسه حائر في أمره ، عاجز عن تحديد عقيدة

نفسه في الجسم والروح ، وفي رأيه في خلودها أو فنائهما .

وأما الخيام فقد أنكر الحشر بجملته ، فلم يذكر جسماً

ولا روحاً :

أتهذا الغافل الجاهلُ ما أنت نضارٌ
فيواروه الثرى كي ينشروه بعد طيِّ

هذا إلى أنه ليس في رباعيات الخيام ما يجحد به الروح ،
بل إن له ما يدل على إيمانه بوجوده مع الجسم ، فالفهوم من
نكرانه البعث إذن أنه يعتقد بفنائه مع الجسم .
ولكنّ المعرى آمن بالله بعد أن كفر بالدين وشكَّ في المعاد ،
أما الخيام فقد كفر بالله أيضاً .

قال المعرى :

أثبتُّ لى خالقاً حكماً ولستُ من معشرِ نفاةٍ

وقال الخيام :

قال لى القلبُ : هو العلمُ اللدنيُّ خيالُ

فاذا اسطعتَ فعلمني منه ما يُقالُ !

قلتُ فأسمعُ ، أليفٌ . قال : تمهلُ ويكّ يكفي

إن يكن في الدار من يُسمى فحسى فردُ حرفٍ !

تناسخ الأرواح

وتوهم بعض المتوهمين أن الخيام كان يعتقد بتناسخ الأرواح ،
ستناداً إلى رواية تزعم أنه لما كان أستاذاً في مدرسة نيسابور
شاهد مع تلاميذه حماراً كان ينقل الآجر لترميم المدرسة ،
حرّناً ووقف بالباب فلم يدخل . فتبسم الخيام ودنا من الحمار
وأشد في أذنه هذه الرباعية على البديهة :

أيها الذاهب ، ها قد عدتَ حيواناً أضلاً
ويك ضاع اسمك من بين الأسمى واضمحلاً
إن أظفارك صارت حافراً مجتمعاً
وغدت لحيتك الشمطاء في عجزك ذيلاً !

فدخل الحمار . فلما سئل الخيام عن ذلك قال لهم إن هذا
الحمار كان أستاذاً في هذه المدرسة ، فلما مات تقمّصت روحه
جسم حمار ، فاستحيى أن يدخل . غير أنه لما وجد أصحابه قد
عرفوه لم يجد مناصاً من الدخول^(١) !

(١) أحمد بن نصر الله التّموي السّندي المعروف بأكبر شاه الهندي
— التاريخ الأتني — تأليف سنة ١٠٠٠ هـ . ولا ظم المصدر الذي أخذ
عنه هذه الرواية ، فهي لم يذكرها من تقدمه من الرواة فيما يظهر .

فإن كان لهذه الحكاية من الحقيقة نصيب ، فلقد حدثت
لأحد ما ، فلما ذاعت عُزَيْتُ إلى الخيام لشهرته ، فمضى الزمان
على اسم صاحبها . وإن تكن وقعت للخيام فلا بدّ أنه قال هذه
الرباعية سخريّةً بالبشر ، وتهكماً بالأستاذية . وله في الأستاذية
مثلاً هذه الرباعية :

قد لزمنا في صبانا مجلسَ الأستاذ حيناً
ودُعِينَا بعدُ أستاذاً ففرزنا ورضينا
فاستمع آخرة الأمر إلى أين انتهينا :
من ترى الأرض خرجنا ، ومع الريح مضينا

وأياً كان قائل هذه الرباعية الحارّة فإن أسلوبها لا يدلّ
على أن صاحبها يؤمن بتناسخ الأرواح ، فإنّ ما فيها من مزاحٍ
قاسٍ وسخريّةٍ تثير الضحك يوجب علينا أن نستنتج أن قائلها
— سواء أكان الخيام أم سواه — يكفر بتناسخ الأرواح ،
ويهزأ به وبمن يعتقد به . وقد سخر فيلسوف المعرة كذلك من
هذه العقيدة العجيبة حيث روى في رسالة الغفران على لسان
بعض النصيرية هذين البيتين^(١) :

(١) الدكتور طه حسين — « تجديد ذكرى أبي العلاء » .

إعجبي أمنا لصفِ الليالي جعلت أختنا سكينه فاره !
فازجري هذه السنابير عنها وأتركها وما تضمُّ الغراره !
وإنما تنبئ رباعيات الخيام أنه كان يؤمن « بتناسخ
الأجساد » إن صحَّ التعبير . تستحيل ترابا بعد موت أصحابها ،
ثم تكون أجساداً لسواهم ، ثم تعود تراباً ، ثم تصير أجساداً ..

كان من قبلك في الدنيا رجالٌ ونساء
زينوا الآفاق ، كالأنجم لاحوا وأضاءوا
سوف يغدو جسمك المختال طيناً ، فهو طينٌ
كان جسماً لألوف الناس من قبلك جاءوا

الحاذق وتقيّة

ومن عجائب المرحوم فروغى وقد أثبت إيمان الخيام وسلامة
عقيدته — أن نبئ عنه كل رباعية فيها تدنُّ وإيمان ، بحجة
أن هذه الرباعيات الدينية على العموم ضعيفة المعنى ، لا إبداع
فيها ولا عمق تفكير . والحق أن فروغى ليس وحيداً في نبذ هذه
الرباعيات ، فإن المتأخرين من الباحثين ، ولا سيما الغربيين ،

كلهم على هذا الرأي . وما كان من فروغى إلا أن شايعهم .
أما أنا الذى قلت بإلحاد الخيام على العكس من فروغى ،
فأعتقد على العكس منه أيضاً ، أن للخيام رباعياتٍ دينية
كأمثال رباعيات المؤمنين الأبرار . وتحليل ذلك يسير ، فقد قلنا
تمويهاً وتقية . يدرأ بها عن نفسه قالة السوء وتهمة الكفر ، تلك
التهمة الخطيرة التى كثيراً ما أدت بأصحابها إلى القتل حرقاً بالنار
أو رجماً بالحجارة أو ضرباً بالسيف . وأمثال ابن المقفع والحلاج
ليسوا بالقائلين .

فليس بعيد إذن أن يتتى الخيام القتل ببضع رباعيات
ينظمها إيهاماً للناس . وإخاله قد هتياً عدداً منها فى جيب ذاكرته ،
فإذا سأله أحد الشائئين عن رباعياته يريد بذلك إحراجه فى
مجلس من رجال الدين مثلاً — تلا عليه الخيام بعض الرثقى من
هذه الرباعيات الدينية يتخلص بها من مأزقه . فهى سلاحٌ أشبه
بسلاح سامٍ أبرص ، إذا وهمه عدوٌّ ترك له ذيله يتلوّى بين يديه
ويشغله ، ونجا هو بنفسه .

وعندى على ذلك أكثر من دليل . وإليك أولاً مقطوعته
العربية هذه ، وما أحسبك نسيها :

تدينُ ليَ الدنيا بل السَّبْعَةُ العُلَى
بل الأفقُ الأعلى ، إذا جاشَ خاطري
أصوم عن الفحشاء ، جهراً وخفيةً
عفاً ، وإفطاري بتقدیس فاطري
وكم عصبيةً ضلّت عن الحقِّ فاهتدت
بطرق الهدى من فيضِي المتقاطر
فإن صراطي المسـتقيم بصائرٌ
نصبت على وادي العمى كالفنـاطر

فكفره في البيت الأول صراح لا لبسَ فيه . فما اكتفى
بأن تدين له الدنيا ثم السبعة العلى ، وإنما تطاول إلى الأفق
الأعلى أيضاً . وكلا الاصطلاحين « السبعة العلى » و « الأفق
الأعلى » تعبير قرآني . وكأنَّ هذا المعنى ظل يجيش في نفسه فلم
يطلق إلا أن ينفثه في هذا البيت ويستريح ، على الرغم من خشيته
مفبّة هذا التجديف . ولكن الخشية دفعته إلى أن يدسَّ
البيت الثاني :

أصوم عن الفحشاء جهراً وخفيةً
عفاً ، وإفطاري بتقدیس فاطري !

تمويهاً وتضليلاً . وإنَّ وضع هذا البيت بعد سابقه مباشرة ليعث الابتسام من هذه المحاولة الماكرة . ومن الطبيعي أن يكون هذا البيت — الذي قاله مكرها ليعبّر فيه عن نقيض عقيدته — متكلفاً ، ضعيف المعنى ، مزوّق الألفاظ . ثلاث صفات ينفىها فروغى عن شعر الخيام ، في أكثر من مكان من مقدمته .

وأحسب أن الخيام نظم في أول الأمر ثلاثة أبيات ، ثم صنع هذا البيت فحشره مخالسةً بعد البيت الأول عسى أن يخفف من وقعه . وقد غيّر هذا البيت معنى البيتين اللذين يليانه كل التغيير ، فإن شئت أن تعرف قصد الخيام فاحذفه وقرأ الأبيات الثلاثة من جديد . وكأنك به تقول عندئذ إنه في الإلحاد إمام مجتهد ، له أتباع مقلدون ، يقودهم إلى سواء السبيل ، في وادى العمى ، الذي يقصد به « الإيمان » فيما يبدو .

والتقيّة معروفٌ أمرها في تلك العصور . ولقد أباح الشرع للمسلم اجتراح المحرمات عند الضرورة وخشية الهلاك ، من شرب الخمر وأكل اللحم الخنزير وكذب . فلئن اقترب المؤمنون المحرمات اضطراراً ، فقد أباح الملحدون لأنفسهم التظاهر

بالتقوى ، اضطراراً أيضاً . وناهيك بفيلسوف العرب المعري
واستقامته في حياته وصبره على مكاره الدنيا ، وهو الذي أخذ
نفسه بعمل كل ما كان يعتقد أنه خير ، وترك كل ما كان
يعتقد أنه شرّ ، حتى لقد انزوى في بيته وقنع ببلغة العيش بعد
أن عزف عن متع الحياة وطيبّياتها من مالٍ وجاهٍ ومراةٍ وخمرٍ
ولحم . ولكنه مع هذا لم يجد مناصاً من التقيّة دفعاً للهلكة .

قال :

أُصِدِّقُ إِلَى أَنْ تَظُنَّ الصِّدْقَ مَهْلَكَةً
وبعد ذلك فاقعد كاذباً وقم !

وقال :

لا تخبرنَّ بكنهٍ دينك معشراً
شُطْرًا ، فإن تفعل فأنت مغررُ
وأصمتُ فإنَّ الصمتَ يكفي أهلهُ
والنطقُ يُظهرُ كامنًا ويقررُ

وقال :

مالي رأيت دُعاةَ الشرِّ ناطقةً
والرشدُ يصمت خوف القتل داعوه ؟

وقال :

إذا قلت المحالُ رفعتُ صوتي
وإن قلتُ اليقينُ أطلتُ همسي !

ويقرب من هذا قول الخيام :

فُصِّلَتْ أسرارُ دنياكم لدينا في الدفاتر
قد طويناها ، ففي النثرِ وَبَالَ وَمَخَاطِرِ
لم نَجِدْ في الناس من يعقل من أهل البصائر
فَقَدْ أُمِعِجِرُنَا إظهارُ ما تُخْفِي الضمائر

ويحكى لنا القفطي أن الخيام حجَّ البيت الحرام خوفاً على
دمه « وأمسك من عنان لسانه وقلبه » وجعل بعد عودته إلى
بلده يغدو إلى المساجد — تظاهراً بالإيمان . أَمَنْ يَتَجَسَّمُ السفر
من نيسابور إلى مكة في ذلك العهد الذي كان فيه « السفر قطعةً
من سقر » لا يُجَسَّمُ نفسه تزجية بضع ربايعيات سقيمة متكلفة
المعنى والمبنى ينجو بها بحياته ، في ذلك العهد الذي ساد فيه
التعصب ، في نيسابور خاصة ، لسوء حظ الخيام ؟

ويذكر فردريك روزن رسالة للخيام في مجموعة « روضة القلوب »^(١) يريد ليستنبط منها عقيدة الخيام فيقول : « ولا يمكن فهم أفكاره الفلسفية فهماً كاملاً من هذه النسخة أيضاً ، ولا يمكن حمل تضاد أفكار عمر الخيام — كالاعتقاد بالله ورحمته من جهة ، وجور الخالق في التقدير وغيره من جهة أخرى — إلا على سعة أفكاره وتنوع نظرياته »^(٢) .

وأنا أستبعد أن تبلغ سعة أفكار الخيام وتنوع نظرياته من الخاط والتناقض هذا المبلغ الرائع ، وهو الرياضي الفذ ، الدقيق الفكر . فالواضح أن حكيمنا الشيخ يضلّ ويراوغ ، فيقول أولاً ما يمتدح ثم يعود فيموّده ويضيق أثره بنقيضه ليستر الحاده . ولو قد فطن الدكتور فردريك روزن إلى نبوء البيت في مكانه من المقطوعة العربية ، وإلى حجج الخيام « متاقاة لا تقيمة » على حد تعبير القفطي ، وإلى رباعياته التي يشكو فيها الناس لأنهم يحولون بينه وبين إعلان آرائه والإفصاح عن أسرار عقله — لغير رأيه في « سعة الأفكار وتنوع النظريات » .

(١) رسالة خطية موجزة كتبها الخيام لابن نظام الملك الوزير .

(٢) رباعيات حكيم عمر خيام . ص ٤٧

الصهباء والحسناء

الصهباء

ما ترددت كلمةً على لسان الخيام في رباعياته تردّد الخمرة، حتى لتخاله في إدمانها والعكوف عليها قريع أبي نؤاس، على حين أننا نجمل أنه قد ذاقها في حياته قط. ولقد حدا هذا ببعضهم أن يتوهم أنه قصد بها الخمرة الإلهية، وواضح من تأمل رباعياته أنه لم يذق الخمرة الإلهية أبداً. فما كان الخيام صوفياً، ولا كان له من الصوفية نصيب غير القناعة الأبية، والعزوف عن زخارف الحياة، واجتناب فتن السياسة، إيثاراً للعافية، وتفرغاً للعلم والتأمل. ولكنه كثيراً ما حمل على المتصوفة في رباعياته وسمّاهم بالزاهدين المناقنين، كما فعل أبو العلاء. فإذا وجدت في هذه المجموعة أو في أي مكان، رباعيةً فيها تشييبٌ بالخمرة

ووجد بالحبيب ، واقنعتَ أنها صوفية المغزى فاقبتع من فورك
أنها ليست للخيام .

وإن كان أراد بالخرقة شيئاً غير بنت العنب فإنما كنى
بها عن عموم المعصية في بعض الأحيان ، فاتخذها رمزاً لما
نهى عنه الدين من محرمات . كمثل قوله :

عِلْمَ اللَّهِ بِشْرِي هَذِهِ الصَّبَاءُ ، قَدَمَا
فَإِذَا لَمْ أَحْسُهَا لَمْ يَكْ عِلْمَ اللَّهِ عَلَمَا

فهذا ينطبق على شرب الخمر وعلى كل معصية يرتكبها
عمر الخيام .

ولكن أترأه شربها قط ؟

عند استعراض رباعياته نجد أنه إذا أخذت بخناق الهوموم
دعا بالصبايا :

إِسْقِنِي الْجُرْيَالَ شِقْرَاءَ بِلُونِ الْأَرْجَوَانِ
أَيُّهَا السَّاقِي ، فَإِنِّي ضَنَّاقٌ بِالْمَمِّ جَنَانِي
إِسْقِنِيهَا تَذْهِبُ الْعَقْلَ وَلَوْ بَعْضَ أَوَانِ
عَلَّنِي أَذْهَلَ عَنِ نَفْسِي وَأَحْدَاثِ الزَّمَانِ !

وإذا ذكر الموت وأراد أن يفتنم فرصة الحياة دعا بالصبياء:

آتني كاساً ودعنا اليوم نغتم كل أنس
فقدأ نصبح آجرًا تقصر أو لرمس

وإذا انتهى أن يعتزل الدنيا مع الحبيب فالخبز والصبياء

ثم الصبياء :

أنا إن فزت من القمح المنقى برغيف
ومن الخمر بزقٍ معه فخذ خروف
ثم أحيى وحبيب القلب في عرض تنوف
فهي العيشة ، ماتاحت لذي الملك المنيف

وإذا رأيتَه اشتهى فخذ الخروف هنا ، فإنما هو مُنقلٌ من
ملحقات الصبياء !

إن رباعيات الخيام مكتظة بذكر الخمر ، يلهج باسمها أبد
هنا وهناك . فهل من المعقول أنه لم يشربها ؟

أما الذين يُؤثرون أن ينزَّهوا الخيام عن معاقرتها فيستدلون
على ذلك بأننا لا نجد بين الروايات التي بأيدينا ما ينبي بأنه كان
يشربها . فهذا أضعف دليل . وقد رأينا أن معاصريه لم يكتب
لنا عنه منهم إلا الأقلون ، وأن هؤلاء الأقلين لم يذكروا لنا شيئاً

فيه غناء . والواقع أن كل من كتب عنه من القدامى ، حتى الذين
تلوه بقرون ثلاثة أو أربعة وكتبوا ما كتبوا على السماع والإشاعة —
لم يخبرونا عنه إلا باليسير الذي لا يكاد يشفي غليلاً .

انهم مثلاً لم يخبرونا بشيء عن صباه ، فهل لنا أن نستنتج
أنه لم يكن صبيّاً في حياته ، وأنه إنما وُلد كهلاً عالماً قد أخذ
من كل العلوم بطرف ؟ وهم لم يخبرونا كذلك بشيء عن أمه ،
فهل يدلُّ ذلك على أن أباه إبراهيم قد ولده لغير أم ؟

وما دامت المسألة مسألة استنتاج فإنما يحق لنا أن نستنتج
أنه شرب الطلا ، ولو على قلة — لأنه هو أقرُّ بشرها في
الكثير من رباعياته .

وحجةٌ أخرى يذكرها فروغى ، هي أن غيره من شعراء
الفرس مثل سعدى وحافظ وجلال الدين قد ذكروا الخمر مع
أن عقّتهم وزهدهم لا ترقى إليهما الرّيب . وهذا قول لا يخلو
من وجاهة ، وقد ينطبق على مثل هذه الرباعية :

عسَسَ اللَّيْلُ قَمَّ بِاللَّهِ ، يَا كَنْزَ الدَّلَالِ
إِحْتَسِ الرَّاحَ وَنَاغِ الْعُودَ ، حَالاً بَعْدَ حَالِ
فَالْمَقِيمُونَ مَقِيمُونَ إِلَى غَيْرِ مَطَالِ
وَالَّذِينَ أُرْتَحَلُوا لَنْ يَرْجِعُوا بَعْدَ أُرْتِحَالِ

ولكنه لا ينطبق على هذه الرباعية :

إنها الخمر ، حياة الخلد أو خلدُ الحياة
إنها حظك من عهد الصِّبا ، وهي مناة
ذا أوان الورد والخمرة ، والصَّحْبُ نَشَاوِي
فاغتم الصَّفْو ، فإن العيش هذا لا سواهُ

ولا هذه الرباعية :

إن آجرٌ سِدَادِ الدَّنِّ خَيْرٌ من عُلَى جَمِّ
وشذا الأقداح أشهى نكهةً من رزق مرِّمِ
رُبَّ آهٍ يرسلُ الخَمَّارُ في جوف الدُّجَى
هي أحلى من تسايح أبي سعيدٍ وأدهمِ^(١)

ولا هذه :

قيل لي : تَمَّةُ جناتٍ بها حُورٌ وكوثرُ
وبها أنهار خمرٍ ، وبها شُهْدٌ وسكرٌ !
فعلى ذكر الحميا هاتِ كأساً وتعجِّلْ
إنَّ نقداً في يدي أفضلُ من ألفِ مؤجِّلِ !

(١) في الأصل الفارسي « بو سعيد وأدهم » وهما صوفيان معروفان
أما (جم) فاختصار لاسم جمشيد ، وهو ملك فارسي قديم .

ولا هذه :

إن أُتِيحَتْ لِي مِنَ الْخُورِ كَعَابٌ فِي الرَّبِيعِ
أَحْسَى مِنْ يَدِيهَا الرَّاحَ فِي الْمَرْجِ الْمَرِيعِ
صَاحَ مَهْمَا اشْتَدَّ قَوْلِي فِي الْوَرَى قَبْحًا وَهَجْنَةً
فَأَنَا أَدْنَى مِنَ الْكَلْبِ إِذَا اسْتَذْكَرْتُ جِنَّةً !

وهذه الرباعيات كلها موجودٌ في مجموعة فروغى ، وأمثالها
كثير .

فإذا كان في مقدور فروغى أو غيره من أساطين الأدب
والتحقيق أن يثبت لنا أن الخيام قصد في هذه الرباعيات بالخمرة
شيئاً غير الخمرة ، التي تُصَبُّ في الأقداح ، وتؤخذ باليد ،
وتُشْرَبُ بالتم ، وتكعب بالرووس — كان في مقدوره أيضاً أن
يبرهن لنا على أن كرة الأرض مكعبٌ قائم على قرن ذبابة
لاقرون لها ! والحق أن ثمة من فحول التأويل والتفسير من
استطاع أن يثبت ما هو أروع من هذا من حقائق باطلة !

وإذا رجعنا إلى ما بأيدينا من روايات قليلة ألفينا أن الخمر
كانت شائعة في عصر الخيام ، وأنه كان يجالس الملوك وينادم
العُلَية ، وقد كان لهؤلاء مجالس شرابهم ولهوم ، فليس بعيد
على من ينادمهم أن يشاركهم .

وقد لحظتَ من غير شك أنى لم أجزم بأن الخيام كان
يشرب الخمر ، ولكنى لا أتفق مع من يجزم بأنه لم يشربها .
إنى لأتصوره أحياناً عائداً إلى بيته ، متأبطاً بعض كتبه
وأوراقه ، وقد دسّ محبرته ومقلته في نطاقه ، وهو كئيب النفس
ضيق الصدر لما لاقى من عنّتِ البيئته ومزعجات الزمان ، أو لما
انقابه من فكر في الموت أو تبرّم بالحياة . فإذا هو أراد أن
يكتب ويؤلف عكرت عليه الأشجان صقوّ قريحته ، فيتناول
كتاباً ليقرأ فيركبه النغم ويستعصى عليه الفهم ، فيلجأ إلى
إبريق الصهباء يشرب من دمه القانى حتى يشمل وينام .

إشربِ الراح ، فإنّ العمر يتلوه الحِمَامُ
خليقٌ أن تقضيه بسكرٍ أو منام !

الحسناء

هذا شأنه مع الصهباء ، فما شأنه مع الحسناء ؟
إن دُورَ المرأة في حياة الخيام لأخفى وأعقد . فإنّ ذكره
لها في رباعياته لكثير ، وإن يكن أقل من ذكر الخمر . والحق
أن مجال التأويل هنا أوسع ، فما أكثر مَنْ تغزّل من الشعراء

وتدلّه بلحاظ الحبيب ونهوده وأرادفه وسائر مفاتنه . وهو ليس
لديه من حبيب ولا نهود ولا أرداف ولا مفاتن . وإن كان عمر
الخيام قد تزوج فالظاهر أنه لم يكن موفقاً في زيجته :

إنما الراحة في الدنيا ، ولذات الصفاء
خِلقتُ للمطلق الضَّارب في كل فضاء !
فإذا أصبح فردٌ مستريحُ البال زوجاً
فلقد بدّل من راحته أيّ عناء !

ولكن أترأه لم يعشق أبداً ؟

هذا أيضاً سؤال تصعب الإجابة عليه . وإن كانت الخمرة
فضولاً لا ضرورة لها ، فإن المرأة ضرورة موجودة في دم الرجل
كامنة في شعوره . فلا بد أن يكون لها شأنها في حياة الخيام ، حتى
لو لم يكن قد ذكرها في رباعياته .

وإخاله قد أحبّ ، مرّة أو مرّات . فما من شاعر في الدنيا
لم يعشق ، مهما كانت بيئته وظروف حياته . وأما نصيبه من
وصال من أحبّ فأمر آخر .

كانت ظروف البيئته وتقاليد المجتمع تحوّل بينه وبين المرأة
عن غير طريق الزواج . وأما حُبُّ الشوق فكان عسير المنال
على من كان مثله مكانة ووجاهة . فهل أتيح له أن تتصل أسبابه

ياحدي الحرائر على الرغم من تعنت الرقباء وشدة نكير العذال ؟
ليس هذا مستحيلاً .

ولو كان عاش في أوروبا لقلنا إنه كان في حياته فسحة
للمخادنة واتخاذ العشيقات . ولكن الشرق وسَّع على العزَّاب
والمحرومين بنظام الرِّقِّ والتسرِّي الذي كان جارياً في زمانه .
فهل كانت له جارية أو جوارٍ مما ملكت يمينه ؟ هذا أيضاً أمرٌ
نجهله كل الجهل . ولكفى أرجح نفيه ، لفقره وعجزه عن شراء
الإماء وإعالتهن .

إن الموضوع بكرٌّ لم يتصدَّ له أحد من الباحثين الخياميين
فما أعلم ، ولعل البحث سيكشف فيه عن جديد . ومهما يكن
من الأمر فإني أخال حياته الجنسية لم تكن طبيعية راوية ، وإنما
كان يغلب عليها الحرمان . وقد أثر ذلك من غير مراد في نفسه
وأطواره على نحو ما . فلا غرابة أن يكون ضيق العطن
سوداويّ المزاج ، كما يروى الرواة .

وهو يذكر الحبيب في رباعياته تارة بأسلوب يُفهم منه أنه
يعنى حبيباً بذاته قد تامَّ فؤاده ، ويذكر الحسناء تاراتٍ بلهجة
توحى أنه يقصد أيَّ حسناء يجود بها القدر عليه ويلقيها بين

يديه . ولعل هذا آية من آيات الحرمان ومظهر من مظاهره .

* * *

ولكن هناك نقطة جديرة بالملاحظة ، وهي أن معظم ذكر الخيام للصبياء والحسناء إنما كان في سياق الإفصاح عن فلسفة أو الإعراب عن فكرة . وقد لحظ هذه النقطة كل الذين أرادوا تبرئة الخيام من تهمة الغرام ومعاقرة المدام . ولكني وقد افترضت انه ربما شرب الرّاح ، وجزمت انه لم يسلم من عشق الملاح ، أسائل نفسي : بأي حق نحرم على الخيام أن يقول بضع رباعيات يفصح بها عن محض شعوره في الحب أو الشرب ؟ لقد كان شديد الحسّ ، شاعريّ النفس ، مفتوناً بألوان الحسن — يهيم بالجدول المتفرق ، ويشغف بالزهر المتألق . أفيعقل ألا يذهب بصوابه سحر الثغور ، وفتنة الجنون ، وتمایل القدود ، خصوصاً وهو محروم ؟ وهل يعقل أن يعبر عن ذلك كله في سياق الفلسفة ، دون أن يقول رباعية واحدة خالصة لوجه الجمال ؟ حتى الرباعيات التي سمينها معتمدة وردت فيها رباعيات لا فلسفه فيها ، خالصة للغرام والمدام . ودعك من تلك الرباعية السقيمة التي عددناها مدسوسة على الخيام ، والتي زعم قائلها أنه أقلع عن الصبياء لأن حبيبته قطعت على قلبه .

في هذه المجموعة غزليات خالصة لوجه الجمال تحت عنوان
«نخب الحبيب» ، وخمريات صرف لذات السلاف تحت عنوان
«نخب الأنخاب» — تخبّرتها من بين رباعيات كثيرة من
أمثالها . فإن لم تكن للخيام حقاً فاقراها على أنها ترفية للخاطر
من عناء ما سبقها من فلسفته ، وإراحة للأعصاب من وطأة
تشاؤمه القاسي .

كهانة وتنجيم

من سوء حظنا وحظ الخيام أن أقرب الرواة إليه من معاصريه الذين وصلتنا روايتهم عنه هو أحمد بن عمر بن عليّ النظامي العروضي السمرقندي . وقد كان له تلميذاً وبه معجباً ، فأصبحت روايته من أجل هذا تُعدُّ عند الخياميين أوثق الروايات طراً . إلا أنه بدلاً من أن يزودنا بشيء فيه غناء عن رباعيات أستاذه وعلمه ، ومؤلفاته ، وأطواره ، والخطير من أحداث حياته مما نفتقر إليه أشدَّ الافتقار — نقل لنا في كتابه « المقالات الأربع » خبرين زعم في أحدهما أن الخيام تنبأ بالغيب ، وفي الثاني أنه تكهن بالتنجيم !

حكایتان عجیبتان تدعوان إلى الحيرة ، فلا تعلم أتكدّ بهما أم تصدقهما . وما كان الخيام . .

ولكن إليك الحكایتین أولاً :

الحكاية الأولى — « في سنة ست وخمسة كان

الخواجه (أى السيد) الإمام عمر الخيامى والسيد الإمام مظفر
الاسفزارى قد نزلا مدينة بلخ فى حى النخاسين ، فى قصر الأمير
(بوسعدجره) وكنت متصلاً بتلك الخدمة . وفى أثناء مجلس
الصحبة سمعت من حجة الحق الإمام عمر أنه قال : ليكن قبرى
فى موضع تنثر الشئال على فيه الزهر كل ربيع . فبدالى كلامه
هذا محالاً ، وعلمت أن مثله لا يقول جزافاً . فلما بلغت نيسابور
سنة ثلاثين كان ذلك الكبير قد حجب وجهه بنقاب التراب
منذ بضع سنين ، وأصبح منه العالم السفلى يتيماً . وكان له على
حق الاستاذية فذهبت لزيارته ذات جمعة واحتملت معى من
يدلى على ثراه . فخرج بى إلى مقبرة الحيرة وعرجت يساراً ،
فشاهدت ثراه تحت حائط بستان ، وقد مدت أشجار الكثرى
والشمس أغصانها من ذلك البستان ، ونثرت من أوراق النور
على ثراه ما غطى ثراه بالزهر . وذكرت تلك الحكاية التى
كنت سمعتها منه فى مدينة بلخ ، فغلبنى البكاء ، فما كنت
رأيت فى مكان من بساط العالم وأقطار الربع للسكون نظيراً له
قط . أنزله الله تبارك وتعالى الجنان بمنه وكرمه .

الحكاية الثانية — «إنى وإن كنت رأيت حكم حجة

الحق عمر إلا أنى ما رأيت قط يعتقد بأحكام النجوم ، وما رأيت
ولا سمعت من العطاء أحداً قط يعتقد بالأحكام . في شتاء سنة
ثمان وخمسة أُرسل السلطانُ في مدينة مرو شخصاً إلى السيد
الإمام عمر أن يعمل اختياراً لنذهب إلى الصيد بحيث لا ينزل في
بضعة الأيام تلك ثلج ومطر .

وكان السيد الإمام عمر في صحبة السيد وقد نزل في قصره .
فأرسل السيد من استدعاه وأخبره بالأمر . فانصرف واشتغل
بذلك يومين وصنع اختياراً حسناً ، وذهب بنفسه وأركب
السلطان بالاختيار . فلما ركب السلطان وذهب مدى صيحة
في الأرض انعقد السحاب وهبّت الريح وقام الثلج والضباب
فضحكوا ، وأراد السلطان أن يعود . فقال له السيد الإمام :
لتطمئن نفس الملك ، فإن السحاب سينقشع الساعة ، وفي
هذه الأيام الخمسة لن يكون بلل قط .

فانطلق السلطان ، وانقشع السحاب ، ولم يكن في تلك
الأيام الخمسة بلل قط ، ولم ير أحد سحاباً . إن أحكام النجوم
وإن تكن صناعة معروفة إلا أنه لا ينبغي الاعتماد عليها اعتماداً
بعيداً ، ويجب على المنجم أن يحيل على القضاء كل حكم
يصدره .

ولا بد أنك لحظت السذاجة والغرابة في تعابير راويتنا
السمرقندی وتفكك بعض جملة وضعف الصلة بينها — في قلبها
العربي ، ولعلها في نصّها الفارسيّ أسوأ ، فقد عُيِنَتْ بالوضوح
والدقة في ترجمتها لكيلا يفوت القارئ شيء من معناها . وإني
أأخذ من هذا أول دليل على سذاجة عقل الراوية وغرابته ،
وضعف الصلة بين أفكاره ، ومن ثم على ضعف روايته . فأنا
كما ترى لا أكذّبه ، ولكني أكذب روايته فحسب .

زعم لنا في الحكاية الأولى أن أستاذه الخيام قد تنبأ بأنه
سيُدفن في موضع كذا صفته . وما أعرف أن أحداً من الباحثين
حاول أن يفند الخبر . أما أنا فلا يستطيع عقلي أن يتقبل شيئاً
من التنبؤ ، وأنا يكفيني هذا دليلاً . ولكن لا بدّ من إقناع
القارئ أيضاً ..

ما كان الخيام من العرافين ، ولا الأولياء ولا الأنبياء .
وما عرف الغيب بشر ، حتى ولا هؤلاء . وقد جاء في الآية
« وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأيّ
أرض تموت » . وجاء في آية أخرى « لو كنت أعلم الغيب
لاستكثرت من الخير » ، وما أبدعها كلمة . فمن كان مسلماً
فحسبه هذا !

ولو استطاع عقل الخيام أن يؤمن بشيء من التنبؤ والغيب
لكان أحرى به أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله
وباليوم الآخر .

ويخيل لي أن الخيام إنما أراد بكلمته أن يفصح عن مجرد
رغبته في أن يكون قبره في موضع كذا وكذا ، فتقوم صاحبنا
السرقتدي أنه تنبأ بذلك . وتقوم خرافته فيما أرى على كلمة
واحدة فارسية هي « باشد » . فهي تعني « فليكن » قياساً ، وقد
تعني أحياناً « سيكون » على خلاف القياس ، وهو الوجه الذي
أخذ به الراوية . وإيضاحاً للأمر أحب أن أنقل لك الفقرة
الأولى من مقالة الخيام ، بنصّها الفارسي ، وتحت كل كلمة منها
ترجمتها العربية :

گور من در موضعی باشد که هر
قبر .. ی فی موضع فلیکن بحيث کل
بهاری .. الخ
ربیع ..

فإذا أخذنا بالقياس ، وهو الأصح في الفارسية لغة ، وفي كل
اللغات عقلاً — كان المعنى « ليكن قبري . . » فالرجل
إنما اشتهى أو طلب أن يكون قبره في موضع كذا وكذا .

فالجملة إذن إنشائية لا خبرية ، وما في الإنشاء تثبؤ . ولكن
الراوية ظنّ المعنى : « سيكون قبري . . »

وما أدعى أنى أعلم بالفارسية من الخواجه العروضيّ
السمرقنديّ ، ولكن ادعائي أنى أعرف منه بالخيام ، ليس إلا .
فهو يعتقد أن أستاذه رجل دين وتقوى ، فيما يظهر . بهر منه
ولا شك من التفقه في الدين وعلوم القرآن ما بهر شيخ القراء
أبا الحسن الغزّال من تفقه في القراءات حتى لقال له : « كثر الله
في العلماء أمثالك ! إجعلني من أمة أهلك وأرض عني . . »
مما تقدّم بنا حديثه . فمن أجل ذلك وما ماثله توهم الخواجه
السمرقندي أنه من الأولياء أرباب الكرامات ، فطفق يستبه
الإمام طوراً وحبّة الحق طورا . بينا أعرف أنا ، ويعرف معي
القاريّ أن الخيام كان ملحداً ، يكتّم إلحاده عن السمرقندي وعن
الكثيرين من أمثاله من تلاميذه وغيرهم من المؤمنين . فهو إنما
يعرف من شخصية أستاذه المزدوجة ظاهرها ، كأكثر عارفيه .
ولولا أن العروضيّ قد أغفل كلّ شيء عن الخيام عدا هاتين
الحكايّتين ، لقلت إن في إغفاله ذكر الرباعيات لدليلا على جهله
بها وبحقيقة أستاذه .

فبعد هذا لا يدهشني أن حَمَلَ قَالَةَ حِجَّةَ الْحَقِّ الْإِمَامِ عَمْرٍ
عَمَلِ الْخَيْرِ وَهِيَ إِنْشَاءٌ . فَلَمَّا زَارَ ثَرَاهَ وَوَجَدَهُ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ لَمْ
يَعْدِ يَخَافُهُ الرِّيبُ فِي حَدُوثِ الْمَعْجِزَةِ . فَبَكَى ، وَرَوَى لَنَا الْخَبْرَ !
أَمَّا دَفْنُ الْخِيَامِ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِحْدَى الصَّدَفِ ،
فَأَكْبَرُ الظَّنُّ أَنَّهُ كَانَ بِنَاءَ عَلِيٍّ وَصِيَّتِهِ . أَوْ لَعَلَّ بَعْضَ أَصْدِقَائِهِ
أَحَبُّ لَهُ بَعْدَ وِفَاتِهِ تَلْبِيَةَ هَذِهِ الْأَمْنِيَةِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي لَعَلَّهُ كَرَّرَ
ذِكْرَهَا فِي مَجَالِسٍ أُخْرَى ، فَكَثُرَ بِذَلِكَ عَارِفُهَا مِنْ مُحِبِّيهِ ،
وَحَقَّقُوا لَهُ .

وَلَوْلَا تَعْقِيبُ السَّمْرَقَنْدِيِّ عَلَى كَلِمَةِ الْخِيَامِ بِقَوْلِهِ : « فَبَدَأَ لِي
كَلَامُهُ هَذَا مَحَالًّا ، وَعَلِمْتُ أَنَّ مِثْلَهُ لَا يَقُولُ جَزَافًا » لَكَانَتْ
الْحِكَايَةُ مَعْقُولَةً طَرِيفَةً ، نَمَرَتْ بِهَا سِرَّةُ الْكِرَامِ ، وَنَشَكَرَهُ عَلَى
تَقْلِيلِهَا لَنَا . وَلَكِنْ مَعْنَاهَا عِنْدَ رَاوِيهَا كَمَعْنَاهَا عِنْدَنَا : « أَمْنِيَّةٌ
شَاعِرٌ يَحِبُّ الزُّهْرَ وَالرَّبِيعَ . . . تَحَقَّقْتُ بِالصَّدْفَةِ أَوْ بِنَحْوِ مَا » ،
وَلَمَّا دَنَا لِلرَّاهِطِ بِكَأَمِهِ عَلَى مَثْوَى أَسْتَاذِهِ الْعَظِيمِ . وَالْحَقُّ أَنَّ وِفَاةَ
هَذَا أَجَلَ مَا فِي حِكَايَتِهِ — عَلَى شَرِيطَةِ الْآلِ يَكُونُ بِكَأَمِهِ مِنْ
بَابِ الْخُشُوعِ لِتَوْهَمِهِ حَدُوثِ الْمَعْجِزَةِ !

ولا أكرم القارئ أن نقرأ من الإيرانيين لم يوافقوني على رأيي في تأويل هذا الحديث ، وإن كان بعض أدبائهم قد فعل . وقد تراءى لي أن سلطان الرواية ومكانة الراوية هما علة تردد الكثيرين في مشاركتي الرأي ، فعمدت إلى الحيلة وجعلت أهبي عبارةً فارسية تشبه عبارة الخيام ثم أسأل من أسأل أن يخبرني عن مذهبه في فهمها لو وجدها في كتاب قديم — كهذه العبارة :

منزل من در میان درختان باشد که
دار . . ی فی بین الأشجار فلتکن بیث

در تابستان زیر سایه بماند .
فی الصيف تحت الظل تبقی .

فكلهم أجاب : « فلتكن داري بين الأشجار . . الخ » .
فإذا أنا أطلعتهم على رواية العروضي السمرقندي ، وعرضت لم رأيي فيها وافقني بعضهم ، وخالفني بعضهم منساقين مع الراوية الفارسي .

فإذا كنتُ واهماً في تأويلي هذا لم يبق لي إلا أن أقول إن صديقنا السمرقندي كاذب . وهذا أمر أستبعده كثيراً ، ولهذا أجدني أستبعد كثيراً أن أكون واهماً . .

وسواء أصحّ مذهبي في تأويل الخبر أم أخطأ ، فأنا لا أصدّق
حكاية تنبؤ الخيام ، وهذا كل ما في الأمر . ولا على القارى
أن يصدقها إذا هو شاء .

وأما الحكاية الثانية فهي تنقض نفسها بنفسها ، لأن أولها
يكذب آخرها . فقد اعترف راويها أنه لم يرَ ولم يسمع أن الخيام
ولا أحداً من العطاء آمن بأحكام النجوم . وتعجبني نصيحة
السمرقندي التي يحتم بها حكايته إذ يقول إن على المنجمين
الآ يعتمدوا على أحكام النجوم كل الاعتماد ، وأن يحيلوا
أحكامهم على القضاء . فهو يسمح لهم فيما يبدو بشيء من الاعتماد
عليها فقط .

وأنا إلى تصديق الخيام وعطاء زمانه أميلُ مني إلى تصديق
هذا العروضي السمرقندي الذي بكى على ضريح شيخه ظنا منه
أن في دفنه تحت حائط البستان معجزةً كبرى .

هذا إلى أنه لم يخبرنا بالمصدر الذي أخذ عنه روايته ، فلعله
مصدر كأحكام النجوم لا ينبغي الاعتماد عليه كثيراً . وأجيب
أنه كان أجدر به أن يحيله على القضاء ، بدلا من توريث نفسه
بنقله لنا ، وتخييرنا في أمره .

على أن الحكاية إن صحت لا تدخل في باب التنجيم ، وإنما هو ما يسمونه اليوم بعلم « الأنواء الجوية » يتعرف به الخبراء ما ستكون عليه حالة الجو في المستقبل القريب . ولكن عقل صديقنا العروضي السمرقندي ، وهو عقل خراقي كما يتضح من بعض حكاياته في مقالاته الأربع ، لم يستطع أن يدرك أن علم أستاذه في الفلك والرياضة والطبيعة ، قد يجدى نفعا في التنبؤ بحال الجو ، فعزا الأمر إلى « التنجيم » و « الاختيار » — بالرغم من أنه لم ير ولم يسمع أن الخيام أو سواه من عطاء الزمان كان يؤمن بالتنجيم قط !

ولعل بعضهم قد زعم أن الخيام تنبأ بصحو الجو لمخمين يوما مقبلة بدلاً من خمسة ، ولكن السمرقندي لم تصله روايتهم فلم يأخذ بها مع الأسف . ولو قد فعل لقلنا من فورنا إنه حديث خرافة ، واسترحنا .

إنى ترويت في الأمر طويلاً وترددت كثيراً . ذلك أنى لم أجد بين الوسائل التي يستخدمها الخبراء اليوم في التنبؤ ، من خرائط اتجاهات الرياح ، وإحصائيات الأنواء للسنوات الماضية ، وأجهزة الرصد الحديثة ، ما يمكنهم — كما أرادوا ، أو أمرم

السلطان—من معرفة صحو الجو لخمسة أيام تأتي ، على ذلك النحو الجازم الذي حدثنا به السمرقندي .

ولكن الذي لا شك فيه أن الملاحظة الدائبة قد علمت الإنسان من قديم الزمان أن بعض حالات الجو لا بد أن تتلوها حالات أخرى معينة ، على وتيرة لا تتبدل ، كما يتلو الليل النهار ؛ فإذا لاح أولها كان علامة على دنوّ تاليها . وإن في قصص العرب الأقدمين ما يدل على أنهم ، على بداوتهم وجهالتهم قبل الإسلام ، قد عرفوا من ذلك ما مكنهم من التنبؤ أحياناً وأفادهم في شؤون حياتهم . وما زال في الشرق اليوم فلاحون وملاحون ، من الأميين الذين لا يخطون الألف ولا يعرفون التنجيم ، يستطيعون متى رأوا بعض العلام أن يتكهنوا بحال الجو ليوم أو يومين ، بنظرة قصيرة يسرّ حونها في أقطار الفضاء .

ظننت أول الأمر أن حكاية العروضي السمرقندي مبالغ فيها ، وأن الخيام إنما تنبأ بيوم أو يومين على أساس من الملاحظة أو العلم ، ثم تزيّد الرواة حتى أصبحت الأيام خمسة حين بلغ الخبر السمرقندي .

ولكنني غيرت رأبي أخيراً ، فقد اكتشفت على غير انتظار أن الخيام كان خبيراً بعلم الأنواء . ذلك أني كنت أراجع قائمة

مؤلفات الخيام فوجدت بينها عنوان رسالة لم تكن شيراهتمى قبل ، على خطورتها في هذا الباب وصلتها الوثيقة بحكاية السمرقندي . وهي رسالة « لوازم الأمكنة » ألفها الخيام ليشرح فيها تغير الفصول وشرائط تقلبات الجو في مختلف الأمصار . وما ألف الخيام شيئاً ليعيد فيه ما عرفه سواه من العلماء وألف فيه ، وإنما كان يؤلف حين يأتي بجديد في العلم أو الرأي . ولا بد أنه قد جاء أبناء جيله في هذه الرسالة بالطريف القيم . فهذا أيضاً يدل على أن شاعرنا الحكيم لم يكن ملئاً بعلم الأجواء وحسب ، وإنما كان متفوقاً فيه . فليس ببعيد إذن أن يكون قد استطاع التنبؤ للسلطان بصحو الجو خمسة أيام .

ولكن كيف ؟ ..

طفقت أتحري وأسائل كل من صادفت من المشتغلين بالأنواء من شرقيين وغربيين فعجزوا عن تعليل الخبر . حتى اهتديت أخيراً إلى السرّ ، وإذا بهذه المسألة العويصة ككل المسائل قبل معرفتها ، شديدة البساطة ككل المسائل بعد العلم بها .

إن فترات الدفء في المناطق المعتدلة إذا أعقبها موجة برد وإعصار دلّ ذلك على قدوم صحوٍ متصل رائق لا تشوبه شائبة ،

يلوم أياماً قد تبلغ الخمسة^(١) . فهذا هو سرّ « تنجيم » الخيام .
وقد اتفق أن وصل رسول السلطان قبل الصحو بيومين
كما يظهر من رواية السمرقندي ، فما كان من الخيام إلا أن جعل
يتربص انقضاء فترة البرد . فلما انقضت ذهب إلى السلطان
وأشار عليه بالركوب ، فتوهم العروضي السمرقندي أن الخيام كان
منهمكاً آناء هذين اليومين في التنجيم ورسم الرموز الغريبة
الأشكال ، وحلّ أسرار الأفلاك ، فقال إنه « اشتغل بذلك يومين ،
وصنع اختياراً حسناً ! » وإنه ليروى الحديث بسذاجة الأطفال ،
حتى ليكاد يوهمك أن الخيام طفق يشتغل طوال هذين اليومين
بما يشبه السحر إلى أن أرغم الطبيعة بتنجيمه واختياره على أن
تصحو خمسة أيام كاملة ، نزولاً على مشيئة السلطان واحتفالاً
برغبته في الصيد . وما كاد يُتمّ الحكاية حتى ملأه الذعر من
هذا السحر ، فاستعاذ بالله ، ونصح المنجمين أن يحيلوا أحكامهم
على القضاء ، تخلصاً من شرها .

ولما ركب السلطان « فانعد السحاب ، وهبت الريح ،
وقام الثلج والضباب » ظن القوم أن الخيام قد أخطأ حسابه

(١) توصلت إلى هذه الحقيقة بمعونة المصري السيد اميل فريد ،
اللقبى الجوى فى مطار فاروق بالقاهرة .

فضحكوا ، وهمّ السلطان أن يعود . ولكن هذا الأمر الذي
خيّب رأيهم في صدق الخيام هو الذي زاده ثقة بصحة حكمه ،
فأخبر السلطان بلهجة قاطعة أن السحاب سينتشف الساعة ، وأنه
لن يكون في الخمسة الأيام التالية بلل قط . وهكذا كان ..

وهكذا تنبأ الخيام بصحو الجو على أساس من العلم لا تنجيم
فيه ولا كهانة .

* * *

أما فردريك روزن فلم يشأ أن يكذب إحدى الحكايتين ،
ولكنه بالإضافة إلى تصديقهما علّق عليهما بما يفهم منه أنه اتخذها
دليلاً على أن للخيام في هذا الميدان آيات أخريات .

« كان الخيام يتنبأ بالغيب أيضاً . ولما كان هذا العلم (١)
سابقاً في القرون الوسطى توأماً للهيئة فليس من كبير عجب في
إقدام شخص عمر على هذا الأمر . فقد كانت هذه الحال موجودة
بعينها في بلاد الفرنجة كذلك ، وقد اضطر كبلر الفلكي المشهور
مثلاً إلى أن يقرأ طالع القائد المشهور فالنشتاين سنة ١٦٠٩ م
المصادفة ١٠١٨ هـ ، وينبئه بمستقبله . وبيدنا نبذتان صريحتان
من تنبؤات الخيام إحداهما أن السلطان .. الخ » ويسرد النبذتين

الصريحين ، وهما الحكايتان اللتان رويناها للسمرقندي آتفا (١) .
ولست أدري كيف هضم عقل الدكتور روزن هذه الرواية
السيرة ، ولا كيف قرأ كبلر طالع فالنشتاين ، ولا في أي صفحة
من صفحات السماء قرأه . ولو كان في (علم) التنجيم فائدة لما
اندثر ، بل لكان ارتقى اليوم وازدهر . ولكن بما أن كلاً من
الدكتور المستشرق والفلكي المتنبئ من بلاد الفرنجة ، وهي بلاد
العلم ، فإني أتَهَيَّب مناقشتهما والردَّ عليهما . وأكتفي بأن
أذكر القارىء بأمر واحد ، هو أن راويتنا قد نبأنا بصراحة
أيضاً لحسن الحظ أن الخيام لم يكن يؤمن بالتنجيم . فأنا أظن أن
« إقدام شخص عمر حلى هذا الأمر » بالرغم من عدم إيمانه به
يدعو إلى « كبير العجب » . ولو كان قد مارسه ونجح فيه
هذا النجاح الباهر المزعوم لكان عدم إيمانه به يدعو إلى
عجب أكبر!

(١) رباعيات حكيم عمر خيام - ص ٦٠ .

شخصيته

قال الخيام في مقدمة كتابه « الجبر والمقابلة » الذي وضعه بالعربية ، ما نصّه :

« .. فإننا قد مُنينا بانقراض أهل العلم إلا عصابة قليلة العدد ، كثيرى الحن ، همهم افتراض غفلات الزمان ليتفرغوا فى أثنائها إلى تحقيق ، وإتقان علم . وأكثر المتشبهين بالعلماء فى زماننا هذا يُلبسون الحق بالباطل ولا يتجاوزون حدّ التبدليس والترأى بالمعرفة ، ولا ينفقون القدر الذى يعرفونه من العلوم إلا فى أغراض بدنية خسيسة . وإن شاهدوا إنساناً معنياً بطلب الحق وإيثار الصدق ، مجتهداً فى رفض الباطل والزور ، وترك المراية والخداع استحقوه وسخروا منه .. »

وما زالت هذه الكلمة الموجزة تفصح حتى اليوم ، فى الشرق خاصة ، عما يكابده العقل الممتاز الذى يطلب العلم لذات العلم ، من محنٍ بين من يتشبهون بالعلماء ، بما ينالون من شهادات مدرسية يدلّسون بها على الجمهور ويدجلّون ، ويتخذونها ذريعة لجرّ المضم ،

وتسّم للنصب ، وإشباع الشهوة ، ومكافحة الإصلاح والعلم .
كان الخيام ذائع الصيت ، محترم الجانب ، مرموق المكانة ،
يدنيه الأمراء والملوك إليهم ويقربون مجلسه ، عرفاناً لعلمه وفضله .
حتى لقد « كان السلطان ملكشاه ينزله منزلة الندماء ، والخاقان
شمس الملوك ببخارى يعظّمه غاية التعظيم ، ويجلس الإمام معه
على سريره » ، كما يقول البيهقي . فكان في هذا المحل الأرفع
قادراً على أن يتسّم ما شاء من المناصب ، ويحشد ما اشتهى من
الأموال . ولكنه كان مؤثراً للعزلة والدرس ، زاهداً في حطام
الدنيا ، مترفعاً عن خدمة الرؤساء والازدلاف إليهم .

كم تُذِكُّ النفسَ في خدمة أُوغادٍ لثامٍ ؟
تنتجى كلَّ طعامٍ ، كالذباب المتراعى ؟
كلُّ رغيفاً كلَّ يومين ، بلا من الأنامِ -
فلأن تطوي خيراً لك من خبز الكرام !

إن أصاب المرء في اليوم رغيفاً واحداً
واحتمى من كوزه المكسور ماء بارداً
فلماذا يا ترى يخدمه من دونه ؟
ولماذا يا ترى يخدم نذاً سائداً ؟

ولقد مرّ بنا أنه بالرغم من غزارة معرفته في علوم ذلك
الدهر آثر التخصص فيما هو أبعد ما يكون عن منفعة مادية ،
وأملٍ بالخطوة لدى عطاء الزمان ، فانصرف إلى خالص العلم من
رياضة وفلك . وما عرفنا أنه تكسب بشعره أو بعلومه . وحسبنا
من رأيه في المتكسبين الذين سُمّاهم « المتشبهين بالعلماء » ما تقدّم
بنا من نصّ كلامه .

ويتهمه بعض القدامى بالضعف بالتأليف والبخل بنشر المعرفة .
وقد دفع المرحوم فروغى هذا عنه دفعا جميلا حارّا ، فقال :
« ألحق أن التصنيف ليس بالأمر الواجب ، وليس التأليف
والتصنيف من طبع كل عالم . وأهل العلم يأخذون بهذا الأمر
أحيانا إذا دعت الضرورة ، وكذلك الخيام لما ظفر بمعلومات
جديدة في فنّ الجبر والمقابلة صنّف كتاباً في هذا الباب ، وهو
معروف ، وهو تراثه العالمي . وله رسائل أخرى في موضوعات
أخرى ، كلها جدّ صغير ومختصر . ويمكن التصديق على العموم
أن الخيام ما كان يجب الهذر ، وهذه الصفة إن لم تكن حسنة
فهي ليست عيبا . وهي على كل حال لا تدلّ على بخلٍ وضعف ،

إلا إذا افترضنا أن الذين وصموا الخيام بهذا كانوا مطلعين شخصياً
على هذه الصفة فيه»^(١) .

وليس لديّ ما أضيفه إلى هذه الكلمة الحصيفة سوى أمر
واحد ، وهو سببٌ آخر دعا الخيامَ إلى الإقلال من التأليف ،
لا أدري لم أغفله الخياميون وهو أحقُّ شيء بالآبائهم ، لأنه
سبب ذكره الخيام بنفسه بلسان مبين ، في مقدمة كتابه « الجبر
والمقابلة » هذا الذي طالما لهجوا بذكره .

قال الخيام عند كلامه على المسائل الرياضية التي تصدّى
لحلها في كتابه : « .. وإني كنت ولم أزل^(٢) شديد الحرص على
تحقيق جميع أصنافها ، وتمييز الممكن من الممتنع من أنواع كل
صنفٍ ببراهين ، لمعرفتي بأن الحاجة إليها في مشكلات المسائل
مائة جدا . ولم أتمكن من التجرد لتحصيل هذا الخبر والمواظبة
على الفكر فيه ، لاعتراض ما كان يعوقني عنه من صروف
الزمان . فإننا قد مُنينا بانقراض أهل العلم إلا عصابة قليلة العدد ،
كثيرى المحن ، همهم افتراض غفلات الزمان ليتفرغوا في أثنائها

(١) رباعيات حكيم خيام نيشابورى . ص ٥

(٢) النص : « وإني لم أزل كنت » وهو فيما يبدو من أخطاء

النساخين ، ولعل ما ذكرناه أقرب إلى الأصل .

إلى تحقيق ، وإتقان علم . إلى آخر ما تقدم بنا .

وإني في الحق لفتون بلهجته العصرية هذه حين يتحدث عن العلم ويحلّه هذا المحلّ الكريم الجليل من نفسه وحياته .
ولسنا نعلم على التحقيق ما هي هذه المحن التي صرفته دهرأ عن تأليف هذا الكتاب ، ولكن في مقدورنا أن نستنتج من ربايعياته وبعض أخباره أنه ابتلي بالكثير من المتاعب حالت ولا شك بينه وبين تأليف الكثير من الكتب .

لعلّ من هذه المحن خيبته في إنشاء المرصد الذي عهد إليه السلطان ملكشاه بإنشائه ، لموت السلطان قبل إتمامه على رواية ، وبعد إتمامه على رواية أخرى — فوق العمل فيه على كلا الحالين ، وبقيت حسرته بلا مرأى في نفس الفلكيّ العظيم .
ومن كان من طبقة الخيام نبوغاً وغراماً بالعلم كان الرصد عنده أعزّ من المال والولد — يرقب به النجوم ويكتشف مجاهل السماء .
وإني لأشعر معه بالأسف والكآبة لخيبة هذه الأمنية الرائعة .

ومن محن الزمان كذلك انقراض أهل العلم في زمانه إلا عصابة قليلة العدد ، مع كثرة المشعذين المتشبهين بالحكماء ، ممن يستخفون به وبأمثاله من طالبي الحق ومؤثري الصدق ، ويؤذونهم .

ومن محن الزمان أن اتهمه القوم بالكفر ، حتى بلغ الأمر حدَّ الخطر فخاف على دمه . ويروى لنا القفطي هذا الخبر بأسلوبه المسجوع ، حيث يقول : « ولما قدح أهل زمانه في دينه ، وأظهروا ما أسرته من مكفونه ، خشي على دمه ، وأمسك من عنان لسانه وقلبه . وحجّ متافاةً لا تقيه ، وأبدى أسراراً من السرائر غير نقيه ا ولما حصل ببغداد سعى إليه أهل طريقته في العلم القديم ، فسدّ دونهم الباب سدّ النادم لا سدّ النديم ا ورجع من حجّه إلى بلده يروح إلى محل العبادة ويندو ، ويكتم أسرارهِ ولا بدّ أن تبدو ا وكان عديم القرين في علم النجوم والحكمة ، به يضرب المثل في هذه الأنواع . . لورزق العصمة . »^(١)

وقد تعمّدتُ هنا إثبات الفقرة الأخيرة مع أنها لا صلة لها بسياق حديثنا ، لأدلّ على ما سبق أن نوّهت به من أن القوم كانوا يقرّون له جميعاً بالعلم والتفوق ، حتى من خالفه منهم في الرأي والعقيدة . وهذا إنصاف وفضل نذكرهما لأسلافنا بالإعجاب والثناء ، فهم بالرغم من فرط تعصبهم أكرم نفوساً من أبناء جيلنا ممن يجرّدون خصومهم ، السياسيين مثلاً ، من كل فضيلة ومكرمة .

(١) القاضي أكرم جمال الدين القفطي — « تاريخ الحكماء »
الذي تم تأليفه بين سنتي ٦٢٤ و ٦٤٦ هـ .

لقد اضطر الخيام إذن إلى تجشم عناء السفر لكي يبحج ،
وإلى الانقطاع عن صحابته الذين تألفهم نفسه ويحنُّ إلى مجالستهم
ومحادثتهم عقلة . فكان الرجل في هذه الحقبة قلقاً مضطرباً ،
يعانى وحدة النفس وسجن العقل . وتهمة الزندقة في ذلك العصر
أشبه بتهمة الشيوعية اليوم ، في اسبانيا الفاشية مثلاً . فيا لها
من محنة ...

إن الخوف على حياته إن كان أزمة عابرة ابتلي بها حيناً من
عمره ، فإن الحجر على تفكيره والعجز عن إعلان رأيه ،
والاضطرار إلى تزييف شخصيته بالظهور بين الملأ على خلاف
حقيقته — أمرٌ لازم طيلة حياته العقلية . وهذا شديد على من
كان مثل الخيام حريّة فكر ورهافة حس ، فكان الأمر
ولا شك يكرب صدره ويزعجه . وقد أفصح المعري عن نفسه وعن
الخيام ، وعن أمثالهما من الكاتمين آراءهم عن أبناء جيلهم ،
يقوله :

أهوى الحياة ، وحسبي من معايبها
أنى أعيش بتمويهٍ وتدليسٍ
أكتم حديثك لا يشعُر به أحدٌ
من رهط جبريلَ أو من رهط إبليس !

ولعل الخيام أراد أن يشكو هذه الحال حين قال :

رب سرّ لستُ أسطيع له في الخلق فضحا

فاستمع موجزَ قولي ، لا تسلى عنه شرحا

آه من حالٍ أراني عاجزاً عن وصفها

آه من سرّ طواه القلب ، لا يقبل بوحا

والحق أن له رباعيات كثيرة طافحة بالشكوى المرة، والتشاؤم

القانط ، والتبرم بالحياة .

هو عيشٌ يتولّى بهضه في إثرِ بعضِ

فتأمل كيف يمضى العمرُ بالحزن الممضُ

إنني لم أعرف الغبطة والراحة عمري

فسلامٌ لحياةٍ هكذا تأتي وتمضى !

قد نزلنا هذه الدنيا بطاء مذ نزلنا

وانحططنا عن عُلى الإنسان فيها ، وذلنا

وحياةٍ زودتنا غيرَ ما كنا أملنا

ليتها كانت تولّت ، فلعمري قد مللنا !

أجِدُ العالَمَ غَمًّا دائِمًا ، والدهر غولا
وأرى الأفلاكَ آفاتٍ وظلمًا وكُبوَلا
كلما فكَّرتُ في الدنيا أرى المرتاح فيها
ليس موجوداً ، فإن كان فقد كان قليلاً !

لَكُنْ كل واحدة من هذه الر باعيات جرة نار !

ويبدو أن الخيام خُلِقَ بطبعه ممتدِّ العصب حادَّ المزاج
فإلَّا يكن كذلك فقد كفلت له المصائب ذلك . ويبدو أيضاً أنا
خلق بطبعه متشامماً كالكثير من العباقرة ، فإلَّا يكن كذلك
فيكفي ما عاناه في حياته من آلام نفسية أن يجعله واحداً من
أشدَّ الناس تشاؤماً .

وقد ذكره بعضهم بضيق العطن وسوء الخلق . فأما ضيق
العطن فظاهرٌ أمره ، وأما سوء الخلق فلم يذكرُوا لنا حادثة معينة
نفقه منها قصدهم به . ولا شك عندي أنهم لم يقصدوا لؤم الطويان
وخسة النفس ، وإنما هي حدة مزاج على الأغلب لا بد أن تبدر
منه مع البلاد المأحكين والسخفاء ، وكثير ما هم . والمعرَّى على
سماحة خلقه ودمائة طبيعه ، وانتخاره بالترفع عن الهجاء — لم يتالك
نفسه من أن يهجو ، يوم دخل عليه رجل يدعى أبو القاسم فتلا

الآية « وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أُنْتُمْ فَمَوْ فِي الْآخِرَةِ أُنْتُمْ وَأَصْلُهُ
سَبِيلًا » ، فاستقاء منه وهجاه . والظاهر أن الخليام كان مبتلى بأمثال
أبي القاسم هذا من ذوى القحة والبلادة . قال فى إحدى رباعياته :

أفتبغى أنت أن تعرف ما نار الجحيم ؟

هي فى الدنيا لعمرى صحبة القدم اللثيم

وما فى هذا المعنى جدة ولا طرافة ، ولكنها نفثة مصدر .

والحق أن العباقرة على العموم يضيّقون بالناس على العموم ،
ويؤثرون الإقلال من المعارف والأصدقاء ما استطاعوا . فإن كثرة
الخلطة وتشابك العلائق يضيّع عليهم أوقاتهم التى يؤثرون إنفاقها
فى التأمل والدرس من جهة ، ويخلق لهم من المشاكل ما هم فى
غنى عنه ، ويعرضهم لسماع ما لا يحبون أن يسمعوا وقول
ما لا يعجبهم أن يقولوا ، وعمل ما قد يسوؤهم أن يعملوا ، من جهة
أخرى . ولا سيما من كان كخليام ذا مزاج خاص وآراء خاصة
وتفوّق فى التفكير خاص ، فنأى ذلك به عن ملاءمة القاس
ومجاراتهم .

وقد كان مستطار الشهرة معروفاً فى الآفاق حتى لقد اجتمع

عليه أهل طريقته لما حلَّ ببغداد ، كما ذكر القفطي ، ولكنه كان
عزوفاً عن الشهرة محباً للعزلة . وليس غريباً أن يعتزل سائر الناس
ما دامت ظروف البيئة اضطرته إلى اعتزال من يأنس إليهم من
أصدقاء عقله .

السَّعِيدُ الحَقُّ من لم يكُ معروفَ المكانِ
لم يَصِرْ في فوطَةٍ ، أو جُبَّةٍ ، أو طيلسانِ
فهو كالعنقاء ، قد طار عن الدارينِ طرّاً
لم يكن مثليَ يوماً بين أطلالِ الزمانِ !

وإن كان الخيام قد ذاق الرفاهة شيئاً في بعض فترات من
حياته فقد كان فقيراً قانعاً على الجملة .

إذا قنعت نفسي بميسور بلغة
تحصلها بالكدِّ كفى وساعدي
أمنتُ تصاريفِ الحوادثِ كلها
فكن يا زماني موعدي أو موعدي !

ولعل الفاقة ألحَّت عليه أحيانا ، فكان يعجز أن يحصل
بالكدِّ حتى ميسور البلغة . ومن كان مثله أنفةً كان خليقاً أن

يعانى طول العوز والإدقاع . فكان من أجل هذا يتحسر حيناً
على المال ، ويشور أحياناً على الدهر الجائر يصدق النعم على الجملة
الأوغاد ويضطهد العلماء الأحرار .

ليست الفضة في الدنيا بذخر الحكماء
بيد أن العادمى الفضة فيها سجناء !

يا زماناً بأفاعيل يديه يعترف
وهو فى زاوية الجور مقيم معتكف
تسبع الفضل على الوغد وتؤذى من أنف
أنت لا تخلو من اثنين : حارٍ أو خرف !

آه لو كنت على الأفلاك رباً فى سماءى
لمحوت الآن هذا الفلك الضخم البناء
ولأنشأت بنفسى من جديد فلماً
يدرك الأحرار فيه ما اشتها ، دون عناء !

وكانه أراد فى هذه الرباعية الأخيرة أن يبنى المدينة الفاضلة
وينشئ فيها المجتمع الأمثل . وليتبه كتب لنا بشيء من التفصيل

عن هذا الفلك الفاضل الذي كان يودّ إنشاءه لنرى طريقتيه في
بفائه بحيث يدرك الأحرار فيه ما يشتهون ، بغير عناء — كما كتب
بعض فلاسفة الشرق والغرب من عهد أفلاطون . وإخال أنه
لولا خوفه نعمة رجال الدين والسياسة عليه لفعل .

كان الخيام عالماً لكلِّ عالم ، فنّاناً أيّ فنّان ، شاعراً ،
مرهف الحسّ . ومن كان على شاكلة من الرجال كان سريع
الانفعال ، كأنّ في عصبه مكبراً للحسّ مثل مكبر الصوت ، يضحك
له المموم . ومن هنا كان الفنانون أقدر على التعبير من سواهم ،
لأن إحساسهم بمؤثرات الأشياء أعظم من سواهم .

فلا غرو أن تصرفه الأشجان المكبّرة عن الدرس والتحقيق ،
وتقعد به عن التأليف ، حتى أصبح همه كما يقول افتراض غفلات
الزمان . ولا غرو أن يقول :

إسـقـنـي الجـريـال شـقـراء بلون الارجوان
أيها الساقى ، فإني ضاق بالهمّ جناني
إسـقـنـيها تسلبُ النفسَ ولو بعضَ أوانِ
علّني أذهلُ عن نفسي وأحداثِ الزمانِ !

وكان لحسن حفظه ذواقةً للجمال ، مفرماً بالطبيعة من زهور
وربيع ومياه . فكان له في متاعها عوضٌ عما زهد فيه من متاع
الدنيا . وقد تمنى كما رأينا أن يدفنوه في مكانٍ تنثر الشَّالُ فيه
الزهرَ على ثراه ، كأنه لم يشبع من الزهر في حياته فأراد أن
يستمتع به ولو من تحت التراب . وهذا كثير من الخيام ، وهو من
نعلم إنكاراً للحشر وإيماناً بفناء الروح .

والواقع أنه ما يفتأ يذكر من مفاتن الطبيعة هذه الأقسام
الثلاثة : « الماء والخضراء والوجه الحسن » بأساوبه الخاص ،
وقد يضيف السَّماع أحياناً وديوان الشعر حيناً . فهو مؤمن باللذة
الإيجابية في دعوته إلى الاستمتاع بمسرات الحياة ، وإن كان
يُفهم منه أحياناً أنه يعدُّ اللذة متعة سلبية هي مجرد إسكات
الألم ، على المذهب الذي انتحاه المنشأ ألماني الكبير شوپنهاور
— بعد الخيام بقرون .

وقد جعله تشاؤمه المفرط ساخرًا كبيراً ، كما جعل شوپنهاور
كذلك ، فقد كان كلاهما يستخرج الفكاهة المضحكة القاسية
من آلام نفسه ، ويسخر .

فلسفته

فلسفة الخيام هي بيت القصيد في هذا البحث ، والزبدة من هذا الكتاب ، لأنها موضوع هذه الرباعيات التي أُرِجِي ترجمتها إليك . وهي مزاجٌ من الفلسفة اليونانية ، ومن العقائد الباطنية القائمة على الجدلية الإلحادية ، ومن نزعات القرن الخامس ، ومن شخصية الخيام . وما بي حاجة إلى التوسع في وصف عقلية ذلك العصر ، فمن شاء فليرجع إلى التاريخ لفهم ما راج فيه من تزلزل العقائد وتضارب المآرب والأفكار - في الإمبراطورية الإسلامية .

ولا شك في أنه تأثر في الكثير من أفكاره بأبي العلاء المعري . فقد وُلِدَ حكيم نيسابور في شيخوخة حكيم المعرة ، الذي كان صيته يومذاك قد طبق الآفاق وأشعاره تسير بها الركبان ، ومات بعده بنحو سبعين عاما . وكان الخيام يقرأ الأدب العربي ،

ويحفظه ويرويه ، فلا يعقل أن يهمل منه أدب المعري وهو أقرب إلى روحه وطرأز تفكيره . وإنا لنجدُ بعض رباعياتٍ للخيام وكأنها ترجمة لبعض أشعار أبي العلاء^(١) .

ولى على تأثر الخيام بالمعري دليل غير دامغ ، ولكنه لا يخلو من وجهة ، ولعلك لاحظته معي . وهو انتهاج الخيام طريقة المعري حين التزم ما لا يلزم في قافية المقطوعتين الأوليين من شعره العربي الذي مرَّ بنا آنفاً . ومن يدري ، لعله اقتوى أن يؤلف كالمعري ديواناً من اللزوميات ، ثم أقلع .

وقد وجدتُ في اللزوميات مقطوعة للمعري مطلعها :

خطوبٌ نالت لا يزال معذباً

أخوها ، وحلت كل كفتٍ وساعدٍ

وهي تنفق في الوزن والقافية مع مقطوعة الخيام العربية التي مطلعها :

(١) سنذكر في آخر الكتاب من شعر المعري بعض ما يشابه رباعيات الخيام (المشار إليها بهذه العلامة) ، لكي تتاح للقارى فرصة المقارنة بين تفكير الفيلسوفين .

إذا قنعت نفسى بميسور بُلغة

تحصلها بالكد كفى وساعدى ..

فأنت ترى أن الخيام لم يكتفِ في محاكاة المعرى بالتزام
حرفى العين والదال في مطلع مقطوعته كما فعل في سائر أبياتها ،
ولنما التزم فيه كلمتين . وقد يكون هذا من توارد الخواطر ، وقد
لا يكون . وليست هذه المقطوعة من خيرة شعر المعرى لنقول إن
الخيام أُعجب بها فاحتذاها ، ولكنى لا أستبعد أن يكون جرسُ
القافية قد علق بذهنه ، فعارضها من حيث لا يدرى .

على أنى لا أقصد أن الخيام سرق أفكاره من المعرى
أو اقتبسها منه ، غير أنه من المعقول جداً أن يكون قد تأثر به كما
يتأثر كلُّ مفكرٍ بمن يشا كله ممن سبقوه .

وكان كلٌّ من الشيخين يمتاز على صاحبه في ناحية ويتخلف
عنه في ناحية ، فالخيام أشعر والمعرى أفكر . شعر المعرى منطوقٌ
وتفكيرٌ يكاد يخلو من شعر وطلاوة ، ومنطق الخيام وتفكيره في
رباعياته يكاد يسيل طلاوة وشعراً بالقياس إلى صاحبه . وأحسب
السبب يرجع إلى الآفة التى ابتلي بها شيخ المعرة منذ صباه ، فقد
كان ضريراً لا يرى إلا بعين عقله وخياله ، فلم يلطّف سحرُ

الطبيعة من أسلوبه ما لطف من أسلوب الخيام الذي كان جشع
الذوق فما يشبع من مشاهد الجمال . يضاف إلى هذا أن حكيم
العرب كان عازفاً عن المرأة والخمرة ، وهما مع الطبيعة مدار الشعر
والسحر في رباعيات حكيم الفرس .

انظر إلى قول المعري :

مِرْ لِمِ اسْطَعْتِ فِي الْمَوَاءِ رَوِيْدًا
لَا اخْتِيَالًا عَلَى رِفَاتِ الْعَبَادِ

وانظر إلى قول الخيام في نفس المعنى :

يَا زَهْرٍ مُوْنِقٍ رَفَّ عَلَى شِطْءِ الْغَدِيرِ
أَتَرَاهُ قَدْ نَمَا فَوْقَ خُدُودِ وَثَنُورٍ ؟
فَتَيْقِظْ ، لَا تَطَّأْهُ بِاحْتِقَارٍ وَغُرُورِ
فَلَقَدْ أَيْنَعُ مِنْ تَرَبَّةٍ وَجِهٍ كَالزَّهْوَرِ !

ولكن المعري كان أوسع آفاقاً في فلسفته وأكثر تفاصيل .
والعلة فيما أرى نفس العلة الأولى ، فقد كان الخيام مشاركاً في كل
العلوم ، ومنها ما لا يقدر عليه إلا المبصرون ، من فلك ورياضة

وطبٍ وكيمياء وغير ذلك من علوم الطبيعة . فكان نشاط عقله
موزعاً لا يستطيع أن يمجسه على الفلسفة وحدها . ومع هذا
فلا شك أنه كان يعرف ويتناول في أحاديثه مع صحبه وفي محاضراته
على تلاميذه من مواضيع الفلسفة ما لم يفصح عن شيء منه في
رباعياته . فالرباعيات ليست سجل فلسفته ، وإنما هي كما قلنا قبل
خطرات عابرات ، قال فيها ما ضاقت به نفسه فلم يجد بداً من
قوله مما يتصل بنفسه اتصالاً مباشراً من الأفكار . فأما ما ترك
ذكره منها فأكثر بلا مساء . وهو يقول إن خوفه نقمة الجهالة
كان سبب الكتمان .

جَزِعَ الدهرُ علينا مذ رحلنا وقنطُ
أن ثقبنا دُرَّةً من مائةٍ فيه فقط !
لهف نفسي ، كم ألوفٍ من معانٍ في السَّفَطِ
حالَ عن إعلانها بالناس جهلٌ وشططُ !

ولكن يلوح لى أن خوفه جهالة الناس لم يكن السبب
الوحيد الذى حال دون إعلانه ألوف المعانى ، لأنه أعلن في
رباعياته فى الواقع أشدها وقماً على أبناء جيله وتحديداً لعقائدهم من
كفره وتجديفه — لا لشيء سوى أن هذه العقائد كانت تواجهه

أني ذهب ، وتحدّاه . ولكنه إنما أغفل من مواضيع الفلسفة ما لا يمسه ويضايقه . والظاهر أنه قصد بهذه الرباعية أنه لم يستطع تفصيل هذه المعاني في كتبه ، وإنما نوّه بها إجمالاً في رباعيات سائرة تتناقضها الأفواه ، ويسعه التنصل منها وإنكارها متى دعت الضرورة . ولا كذلك الكتب .

ولما العري فقد كان حبيس الثلاثة من سجونته ، يملك من الوقت فراغاً كبيراً لا يدرى كيف يملؤه . فكان من أجل هذا يتسلّى بالفاظ اللغة يلعب بها ، وبالتزام ما لا يلزم في قوافيه بروض به ذهنه^(١) . وعلى هذا النحو الغريب القاسي جعل يسكب عصارة أفكاره وتأملاته وشتى ملاحظاته في قوالب العروض . ومهما يكن فإننا إن أردنا استنباط فلسفة الخيام والإحاطة بها لم نجد مصدراً نستمدّ منه غير هذه الرباعيات . فإن الذي كتبه نثرًا لعامة القراء لا يعوّل عليه ، لأنه كان يراوغ فيه ويموّه . وأما هذه الرباعيات فقد افترضنا أنه كان ينظمها لنفسه ويقرؤها على من يطمئن إليه وحسب ، فهي لذلك تمثل فلسفته وآراءه أصدق تمثيل . . وإن كانت ناقصة .

(١) كشف عن هذه الناحية الدكتور طه حسين باشا — في كتابه «مع أبي العلاء في سجنه» .

فكيف نستخلص هذه الفلسفة من هذه الرباعيات ؟
وجدتُ بين يديّ ركماً منها مختلف الألوان متعدّد
الأغراض . بعضها يدعو إلى الزهد في الدنيا والعزوف عن
زخارفها ، وبعضها يدعو إلى الانغماس في لهوها واختطاف لذاتها .
وبعضها كفر ، وبعضها غزل . وبعضها ذكر الموت وتذكير
به ، وبعضها تناسٍ له ودعوةٌ إلى تناسيه . وبعضها أدعاءٌ بالمعرفة
الشاملة ، وبعضها إقرار بالجهل الشامل ، وتقريع للمدعين بالمعرفة ،
وسخرية منهم .

فما قوام فلسفته وجماع آرائه من هذا الخليط العجيب ؟

كنت أقلب وجوه الرأي وإذا بفكرة تومض في خاطري ،
فترأت لي هذه الرباعيات المتنافرة وكأنها أوصال تمثالٍ رائع قد
تحطم وانتثرت شظاياها . فهذه كفتٌ تختلف عن الركبة ، وذلك
فمٌ يباين الأذن ، وذلك أنفٌ لا يشاكل العنق . فلو جمعتُ
شبات هذا التمثال على نظام ، ووصلتُ بين أجزائه على نسق ،
فوضعتُ كل شيء منها في مكانه ، لصنعت منها هيكلًا تامًا
الخلقة ، منسجم الأعضاء — ففعلت .

وإذا بالرباعيات كتاب متسق التفكير ، له مقدمة وله نتيجة .

يتألف من فصول يتصل كلُّها بما قبله ويؤدّي إلى ما بعده .
وإذا بهذا التناقض الظاهري أشبه بما تجده في كتاب تُفَرِّقُ
صفحاته ثم تجمعها على غير ترتيب وتقرأ ، فيختلط عليك الأمر .

وبديهيٍّ أن الخيام لم يكتب رباعياته على هذا الترتيب الذي
اصطنعته ولا على أيّ ترتيب سواه ، ولكنني وجدت تنسيقها
على هذا النحو لا مناص منه لإبراز فلسفته .

وقد لخصتُ هذه الفلسفة مستنبطةً من الرباعيات فيما سميته
« فهرس الثورة » أوضحتُ فيه الصلة بين أجزاء الكتاب وفصوله .

فإلى الفهرس إذن ...

فهرس الثورة

١ - ثورة على المجتمع

كان الخيام كسواه من المفكرين المتشائمين ، ولا سيما ذوى
الأمزجة الفنية الحادة ، ساخطاً على المجتمع . ينعى على أبنائه
انحطاط مداركهم ، وإنكارهم على العالم أن يعلن عن آرائه مما
لا تفقهه عقولهم . وكان يحتقر أخلاقهم ويضيق بصداقاتهم وبعشرة
الأغبياء اللؤماء منهم خاصة . وكان ينقم على المجتمع سيئته القديمة
الكبرى من الترفيه على كل جاهل أرعن من أبنائه وحمايته ،
والتقدير على كل عالم حرّ ، وإيذائه . فأنف من السعي إلى حشد
المال صوتاً لعزته ، مؤثراً للقناعة بكفاف العيش . وترفع عن خدمة
المظالم ، وسخر من حرصهم ومتاعبهم التي يضيقون بها ، ولكنهم
مع ذلك يحتقرون من لم يكن حريصاً مثلهم . وتعجب للحاكين
لم يستخدمون مَنْ دونهم ، وللمحكومين لم يخدمون أندادهم ؟
فزوى وجهه عن الناس ، وتكشف .. وثار على المجتمع .

٢ - ثورة على الدجالين (من رجال الدين)

أقد ضلّ الناس سواء السبيل ولا شك لأنهم لم يتبعوا هدايتهم ومرشديهم . وكان الهداة المرشدون في تلك العصور هم رجال الدين . فألقى عليهم نظرة فاحصة ، فأنى أكثرهم جهلةً ودجالين ، يتهمون بالكفر والفلسفة كل من تفكر في كنه نفسه أو تدبّر في خلق السموات والأرض . وسخر من ضيق أذهانهم ، يشاحنون من تأمل في قدرة الصانع وصنفته من أهل النظر ، وهم منهمكون في أحكام الحيض والنجاسات . ثم يتبجّحون بالزهد وهم أشدّ تهالكاً على الحطام الفانى ، وينهون عن شرب الكاس ثم هم يشربون دم الناس . ويلزمون الحراب رياءً وغروراً ثم يبيعون دينهم من وراء ستار الزهد والتقوى .. فتار على الدجالين من رجال الدين .

٣ - ثورة على الدين

إنهم ضلّوا وأضلّوا . ولو قد اتبعوا الدين الذي باسمه يعملون ما يعملون لاهتدوا وهدوا . فما هو الدين إذن ؟ نظر الخيام إلى الدين نظرة رياضية صرفاً ، وكأنه كتاب في الجبر والمقابلة . فجعل لا يأخذ إلا بالدليل ، ولا يخرج إلا بالقياس . فرأى الدين يحرم العاصي من الجنة ، وهو يعتقد أن الناس كلهم عصاة^(١) ، فاستنتج أن الجنة ستظلّ خاويةً على عروشها . ووجد أن ثواب الطاعة هو المحور والمحور ، فتساءل لم نحرّمها على أنفسنا هنا وهي العاقبة المرجّاة ، ولعلنا لا نظفر بها ، هناك ؟ فأنكر الثواب وأنكر العقاب . وانتهى إلى أن الجنة والنار واللوح الذي سُطِرَتْ فيه مصائر الإنسان كامنة في نفس الإنسان ، لا وجود لهما في خارجه ، فهي من أوهامه وصنع خياله . وارتأى أن على المرء أن يصنع الخير ولا عليه بعد ذلك أن يخرج على الدين ، ويُحِلَّ لنفسه ما اشتهى من محرّماته . وجحد الحشر بعد الموت .

وظفق يناقش هذا وأمثاله من مسائل الدين فأنكرها . .
وثار على الدين .

(١) الرابعة - ٣٢ .

٤ - ثورة على السماء

ذلك أن عقله لم يطمئن إلى أنه الدين الحق .

والدين الحق هو الدين المنزل من السماء طبعاً ، فلا بد لمعرفة
والاهتداء إليه من معرفة السماء أولاً .

رفع الخيام بصره إلى السماء فصدمت عقله قبل كل شيء .
مسألة القضاء والقدر . فقد خلق الإنسان ولا خيرة له في خلقه .
وخلقت معه أهواء وآمال ، فإذا هو جرى مع أهوائه وتعلق
بأهداب آماله حوسب على ذلك وعوقب . وقد قدر الله عليه أن
يفعل كذا ثم نهاه عن فعله ، وخلقه شريراً ثم أراد منه أن يكون
خيراً . وإن لم يكن الله قد قدر عليه فعل الشر فقد كان يعلم منذ
الأزل أنه سيفعله ، فلو امتنع الإنسان عن فعله لما كان علم الله علماً .

ثم راح يناقش صفات الله . فهو كريم ، فلم يبيع الجنة
بالطاعة ؟ وهو ربٌّ ، إذا جازى عبده على السوء بالسوء فما الفرق
ما بينه وبينه ؟ وهو رحيم ، فلم يعذب ؟ ويتمسك الخيام بالرحمة
فيقول إنها إنما يستحقها المذنبون ، لأن المتقين لا يحتاجون إليها ،

فليذنب إذن لينعم بها . والله خير محض ، وليس عند الخير سوى الخير ، فلا تخش العاقبة إذن ! وهو واسع المغفرة ، فليتماد الخيام في المعصية طول حياته ، ليرى أيهما أوسع - معصيته أم مغفرة الله ؟

وهكذا يمضى في مناقشاته حتى يدور رأسه ، ويقرّ بعجزه وعجز أعلام الورى عن معرفة ذات الله . ويسترسل في إنكاره حتى يقول إن هذه السماء العالية ، بأجرامها الزاهية ، قد حيرت أفهام الباحثين . لهذا فهو ينصح بالتمسك بالعقل ، لأنه لا تدبير في السماء . . . وهكذا ثار على السماء .

٥ - ثورة على الدهر والأفلاك

فمن للدبر إذن ؟ أهو الدهر ؟ كلا . فالدهر جائر يفتق نعمته على كل نذل لثيم ، وينزل نعمته بكل حرّ كريم ، فهو إما حمار وإما خرف ! أهو الفلك إذن ؟ كلا أيضاً . فالفلك كالدهر في جوره وحقه . ولو كان الخيام ربّاً لمحق هذا الفلك ، ولأنشأ فلما آخر ينال الأحرار فيه ما يشتهون . فلا تحيلوا على الأفلاك خيراً ولا شراً ، فهي أعجز منكم ألف مرة . ولقد أخبره الفلك بذلك حين همس في أذن عقله يقول : أنا لو كان دوراني بأسرى

لأرحتُ نفسي من التجوَاب والدوار .. وهكذا ثار على الدهر ،
وثار على الأفلاك .

٦ - هل من مُنَازِل ؟ (أَلغاز الوجود)

فيا وِج الخيام إذ ينتهي إلى هذه النتيجة ، ويعود من بحثه
صفر اليدين ، قانطاً ، ساخطاً على الأرض والسماء . مَن المسؤول
إذن عن هذا الوجود الهائل ليتَّجه إليه الخيام ويناقشه الحساب ،
ويثور عليه إذا دعا الأمر ؟ مَنذا يخبره فيم جاء إلى الحياة ، ومن
أجل ماذا سيفارقها ؟ بل من أين جاء وإلى أين سيذهب ؟ وماهي
حال الذهابين يا ترى ؟ وأنتَ يا هذا الروح من أجل ماذا
حلَّتَ هذا البدن ، ما دمت سترحل بعد حين ؟ وما كان قصدُ
نقاش الأزل لما خلقتني وأحسنَ صورتي ثم ألقاني على المسرح -
في ملهى التراب ؟ ثم ما باله يهلكني بعد ذلك ويفنيني ، كأنه
الخراف يتأنَّق في صنع الجام ثم يضرب به الأرض ؟

وهذا الكون الشاسع ما بدؤه ومانهائته ؟ كيف شرع الفلك
يدور كأنه الطاس الذهبي ؟ وكيف سيندثر وينهار كأنه البناء الشامخ ؟

أَلغاز نجوِّ فيها الخيام .

٧ - ثورة على العقل

منذا يحمل له هذه الطلاسم؟ العقل؟ .. الحق أنه بعد أن
ثار على كل شيء، وجحد كل شيء، لم يعد له ما يلوذ به ليأخذ
بيده في هذا الليل الداجي سوى العقل. فلو كان آمن بالدين
لتلمس الجواب على هذه الأحاجي لدى الدين، ولو كان آمن بالله
واليوم الآخر لفوض أمره إلى الله واصطبر إلى اليوم الآخر.

ولكن سرعان ما خاب أمله في هذا العقل الضئيل المسكين،
فقد طفق يتلفت ويتطلع فلم يفقه مما حوله شيئاً. إنه لم يدرك
من العالم إلا تشبيهاً: الكون فانوس خيال، مصباحه الشمس،
ونحن نتسكع فيه كالصّور! أما ما قال القائلون، وادّعى المدّعون،
فكله هراء وظنون. وأما الحقيقة فلم يدركها أحد .. الأستاذ في
ذلك كالمبتدى. وأما الذين توهم الناس أنهم محيط العلم ومصايح
الهدى، وأنهم ثقبوا دُرّ المعاني، فإنما قصّوا أساطير ولفقوا
خرافات .. ثم ناموا. فيا للأسرى العقل والتمييز، ما كان نصيبهم
إلا أن هلكوا في حسرة الوجود والمعدوم. وما كان جهدهم
إلا كجهد من يحتلب الثور! ويا ضلّة العقل، ما أبغضه. إنه اليوم

لا يُباع به ضفتٌ من كراث !

لقد توسَّعتُ في كل معرفة ، ووغلتُ بعقلي على كل سرّ ،
حتى لملتُ كلَّ معلوم . بيد أنى اليوم وقد نيَّفتُ على السبعين ،
راجعتُ عقلي فعرفتُ أنى لم أعرف شيئاً قط .

فاطلب الجهل إذن أيها العاقل ، بدلاً من طلب العلم .
أما الجاهل الحقّ فهو من لا يدرك الجهل !

٨ - الموت في الميدان (فناء البقاء)

هنا ، في هذه الحيرة القانطة ، والقلق القاتل .. يتراءى من
وسط الظلمة الطاخية الموحشة شبحٌ هائل مروّع ، ينعقد لرؤيته
لسان الخيام ، وتنسُدُّ عليه مسالك الحيلة ، ويتعطلُّ التفكير .
شيءٌ لا كالأشياء . جبار ، مخوف ، يلتهم كل شيء .. هو الموت !
إنه يلتهم الناس أفراداً وجماعات ، والقصور والقبور .
ويأتى على الأفكار والآمال والأعمال . ويطمس الخير والشر ،
والبؤس والنعيم ، فلا يُبقي على شيء .

فما الحيلة ؟ لا حيلة . وأين المفرّ ؟ لا مفر .

صار شبح الموت يتمثل لعيني الخيام حيثما التفت : فهذا

جسدك كان طيناً لأجساد الغابرين ، وسيصير طيناً لأجساد
الآتين . وهذه حياتك ليست إلا موتاً ، ففي كل ليلة يموت منها
يوم . ولتأكلنك الأرض ، فإن كان غرّك أنها لم تأكلك بعدُ
فاصطبر ، فما فات الأوان .

الموت ، الموت . في كل مكان وفي كل زمان ، وفي كل
شيء . أصبح الخيام يرى الأجساد في كل جماد . يمشى على الأرض
فيشفق أن يطا العيون الناعسة والثغور اللعساء ، ويضع شفته على
جام المدام فيتوهم أنه يقبل شفة كاعب حسناء ، تكلمه وتذكره
أنها كانت مثله . ويرفع بصره إلى شرفات القصور فيرى في
لبنائها كفّ ملك أو رأس وزير .

إذا وقعت عينه على كوز قال إنه إنسان باعتبار ما كان ،
وإذا أبصر إنساناً قال إنه كوز باعتبار ما سيكون . وإذا شاهد
الوجه الجميل تذكر أنه سيُدفن في التراب فتتمو منه الزهور ، وإذا
نظر إلى الزهور قال إنها نمت من الوجه الجميل .

وربّ طين يركله الإنسان بقدمه فيسمعه الخيام يقول مستعظفاً :
« لقد كنتُ مثلك ، فارعني ! » أو مهدداً : « مهلاً ، فلتذوقنَّ
الركل مثلي ! » . فيا ويح الخزافين يصنعون الطين ويلكونه
غافلين ، وما يدرون أنه تراب الآدميين .

انظر إلى هذه الوردة الرائعة ، تستيقظ مع الفجر وتقصُّ
حكاية لنسيم الصَّبَا ، فإتقاد تمَّ حكايتها حتى تنتفض انتفاضة
الموت ، وتهوى . أفهكذا ؟ في عشرة أيام وحسب ، تنبتق برعماً
صغيراً حبيباً كالطفل الوليد ، ثم تنمو كما تنمو الصبِيَّة الكاعب ،
ثم تكتمل كما تكتمل الغادة الناهد ، ثم تموت ؟ .. يا لغدر الدهر .
لو كانت هذه السُّحُب تحمل التراب كما تحمل الماء ،
لأمطرت حتى القيامة من دماء الأحياب .

أواه . ما أكثر ما ستهق الدنيا بعدنا . لم تكن في الكون
فإن كان به نقص ، وستفادره وسيتقى كالذي كان ! فما أحقر شأننا .
ما كره الخيامُ شيئاً كما كره الموت . ولا هابَ شيئاً كما
هاب الموت ، ولا شغل فكره شيء كما شغله الموت . ولكن
الشيء الوحيد الذي لم يثرُ عليه ولم يناقشه الحساب هو الموت .
إنى حلتُ مشكلات الكون كلها ، ووثبتُ من كل
أحبولة نصبها الخداع لاقتناصى . قفضتُ كلَّ الأسرار . . .
الإسرَّ الموت .

٩ - فشل الثورة (مآسى الحياة)

ما جدوى هذه الحياة إذن ؟ ها قد أدير الشباب ، وأخفقت
الآمال ، وتراكت الحن والأحزان . فوا أسفاً على مثل هذا
العمر ، مضى عبثاً كما تمضى ليلة السكر ، ومرقت فيه الآمال
مروق السمك من الشبك !

ما نحن إلا لعبة بيد الفلك ، لعبَ بنا برهةً على مسرح
الدهر ، في حياة كلها خيبة آمال وقنوط ، ثم جمعتنا يده الجبارة
واحداً واحداً وألقبنا في صندوق العدم . ألا ليت الإنسان يعود
بعد دهور إلى الحياة ، ولكن هيهات .

أخذ الخيام يتلقت إلى الماضى الضائع والمستقبل المكفهر ،
ويجتزأ الآلام . فجعل يتلمس العزلة ، وينتظر الأجل . ثم صار
يتمنى لو لم يكن ، أما وقد كان فليته يعاجله الفناء فقد ملّ المقام .
ثم جعل ينعى نفسه سلفاً فى شيء من الاستسلام ، ويخبرنا عن
ذلك الخيام الذى خاط خيام الحكمة ، كيف قطع أطنا به
مقراض الأجل ، وباعه رخيصةً دلال الأمل . ثم هو يتطامن
ويسألنا ألا نخرن عليه إذا مات ، فقد أفلت من قبضة الردى ..
وهكذا فشلت الثورة .

١٠ - فرار الثائر (عدم الوجود)

لا تأسنَ إذن على ما فاتك من أوطار الحياة ومباهجها ،
ولا تبتئس بما أصابك من أشجانها وكوارثها . فما دامت العاقبة
هي الفناء ، فكللا الأمرين سواء .

لعمري ما الكون إلا أوهام ، وما الأقاويل إلا ترهات ،
ولا الدنيا كلها إلا هذه اللحظة القصيرة ، العابرة . لقد درسنا
على الأساتذة زمناً ، وفرحنا يوم صرنا في عداد الأساتذة ، فإليك
آخر حكايتنا : خرجنا من التراب ، ومضينا في الريح . فهل
الحياة إلا منام ، وخيال ، وضلال ، وغرور ؟

يا فؤادي . . هَبِّكَ حَقَّقْتَ أوطارك كلها ، واستمتعت
بمباهج الدنيا كما تتشهى ، فكأنى بك قطرة طل ، باتت
ليلةً على الزهر ، ثم تبخَّرت في الصباح .

وهبك قرأت أسرار الوجود ، وسخَّرت الدهر ، وملكك
البرَّ والبحر ، وعشتَ قرناً كاملاً ، أو قرنين . فهل لذلك كله
من نهاية غير القبر ؟

وما دام المعلوم موهوما ، والموجود منقوصا ، فهب المعلوم
موجوداً والموجود معدوما ، واسترح .

ولو فكّرتَ في البداية والنهاية ، لوجدت الأفرح والأتراح ،
والطيبّ والخبث ، والحسن والقبح ، والهناء والشقاء — كلها
سواء بسواء ، وهباء في هواء .

عبثٌ إذن رؤيتك الدنيا ، وعبثٌ كل ما قلت أوقيل لك .
وباطلٌ أن ركضت في الآفاق ، أوقبعت في بيتك !

باطلٌ جسمك هذا أيهذا الغافل ، وباطلٌ هذا الفلك المنمق
الحافل . ولئن أسرنا برهةً في دار الكون والفساد ، فلا تكتب .
فهذا أيضا باطل !.. وهكذا فرّ الثائر .

١١ — في المنفى

(١) نخب السهموم

فشلت الثورة ، وفر الثائر ، وإذا هو مقهورٌ يأس في
جزيرة الحياة ، كأنه نابليون في منت هيلانة . فكيف الصبر
هل هذه المحنة ؟ أما من دواء لتخفيف الألم ؟ أما من حيلة لإقامة
الأفكار ، والقلق ، والهواجس ؟

بلى . . أيها الساقى ، إنّ العلاج لديك . لقد ضاق صدرى
وركبتنى المموم — هموم الحياة والموت ، والدين والناس ،
والأرض والسماء ، فاسقنيها شقراء بلون الارجوان . إسقنيها
تسلب العقل ولو هنيهة يسيرة ، عساني أذهل عن نفسى وأحداث
الزمان . فلتنسل أشجان الدنيا بماء العنب . وارفق بنفسك
المعارة الحبيسة ، وأرحها بالصهباء من عقال العقل .

آه يا صهباء ! مالى فى الدنيا صديق صافى الدخيلة ، خارج
الجام . أيها الساقى فلا تقبض يدك عن الكاس ، فلم يبق باليد
سواه ! أنت تدرى أنّ هذه الحياة ليست غير ريح ، فاسقنيها
عسى أن تمضى بسرعة الريح . وإنك لتعلم أن الدنيا صائرة إلى
الخراب ، فكن بالسلافة أنت أيضا خرابا ! أما ترى أننا فى
الصّحْوِ لا يمكن لنا غير الحزن فى كل شيء ؟ فمتى ثملنا فليكن
ما يكون . فالحميا إذن راحة روحك ، وطبُّ جروحك . فتعلّق
بها كلما اجتاحتك طوفان الأسمى ، فهي فلك نوحك !

لا تحسب أنى خليع سكير ، فأنا لا أشرب الخمر طلبًا
للنشاط أو الطرب ، ولا ابتغاء المروق على الدين أو الخروج على
الأدب ، وإنما أشبعى الغفلة عن نفسى قليلا . وهذا كل
ما فى الأمر .

(ب) نخب الموت

وهل من ملاذٍ غير الخمر والعمى يبرق من الأيدي مروق
الزئبق؟ فما لي أحمل الهمَّ لفقرى أو ثرائى ، وشقائى أو هنائى؟
أفلا يستوى الحلو والمرُّ إذا تصرّمت حبال الحياة؟ فهات
الكأس أنعم به ، فإنى أخشى أن يدهنى الأجل قبل أن
أشربه .

يا صديقى . كفكف من أنايتك ، وخفف من غلوائك ،
وعليك بالصهباء ، فإنّ حياة يعقبها الممات خلليقة بأن تقضيها
بالسكر أو بالسبات ! لقد زرع الدهر من أمثالنا كثيرين ، ثمّ
احتصدهم . فلم النعم؟ هاتِ قدحًا آخر ، فإن الكائن كائن !
إن المقيمين سيرحلون ، والراجلين ليسوا بالعائدين . إنهل كأس
خمر ، فمتى حان الحين لن يمهلنا هذا الفلك العابسُ الحةود أن
ننهل كأس ماء . فلا تدعْ رغبةً تُفتك ولا لذةً تفلت منك .

انظر إلى هذا البدر شقَّ نُورُه جلاببَ الدياجي . فهل تطمع
بأجل من هذه الآونة؟ لا تفكر يا حبيبي واشرب الراح ، فكم
سيطلع هذا البدر ويغشى الأرض بنوره ، يفتش عنّا فلا يجدنا . .
إذ نحن تحت التراب .

هاقد أشرق الصبح بهيجًا طيبًا ، فصبَّ ما بقي لنا من
خمرة الأمس ، وهاتها يا حلو في الكأس قبل أن تصنع الأفلاك
من طيني ومن طينك الدن . لقد ألصقتُ شفتي بشفة الكوزة
ذات مرّة لعلها تنفخني طول الحياة ، فقالت لي همسًا : إنني
عشتُ كما عشتَ ، فعاشرني قليلا !

تأمل هذه الخائل الناضرة ، والزهور العاطرة ؛ فلقد أينعت
من ثرى الأسلاف ، وستذوى وشيكا . فلنستمع بها قبل أن
تنمو من ثرانا .

(ح) سُبُوخُ الْحَانِ

عرجتُ أمس على الحانوت ، فرأيت شيخًا يحمل على
منكبه الدن ، فقلت له : ألا تنجبل من الله تعالى ؟ قال : الله
كريم ، فاشرب واسكت ! ورأيت شيخًا ثانيًا يحمل القدح
بيدٍ والسجادة بيد . فقلت : ما هذا يا شيخ ؟ فقال : خذ قدحًا ،
فإن الكون ريح ! ورأيت شيخًا ثالثًا قد اجتمع حوله السامرون
يحدثهم . فقلت له : خبرنا عن الغابرين ؟ قال : اشرب يا صاحبي ،
فقد ولى الغابرون ولم يأت عنهم خبر ! ورأيت شيخًا رابعًا قد
انطرح منهوكًا من فرط ما شرب . وإذا هو يتمتم : الله لطيف بعباده !

(د) نخب الزاهد الدجال

فيا أيها الزاهد الدجال ، المعنى بقصير الحياة ، لا تقل لى :
أين ذهابى بعد الموت ؟ أعطنى الكأس واذهب حيث شئت !
حسبك تشهيراً بالسكرارى ، ومخاشنةً لمن هم أفضل منك
وأكرم . وانهل الراح ، فليست بشربها أو تركها تدخل الجنة
إن كنت من أهل الجحيم . إن جرعة من الصهباء خير من
عروش المالكين ، وأنيباً يرسله الحمار فى جوف الدجى نخباً
من تأوّه الزاهدين الكاذبين .

(هـ) نخب الربيب

لقد سئمت نفسى طول النفاق ، فقم أيها الساقى وبيع
سجاداتى بكأس من الشمول ، وادفع طيلسانى أيضاً - لكى
يصيح افتخارى بما يبقى لى بعد ذلك ! ورتبةً قائل يقول لى :
إن شرب الخمر يؤدّيك إلى النار فى الآخرة . دعونى من
أطباع الآخرة والدنيا ؛ فإن جرعة من بنت العنب خيرٌ من
كليهما !

يا فؤادى فاتخذ الجنة هنا من طلعة الحبيب وابريق الحميا ،
قد لا تدرك الجنة هناك . وإن نقداً في اليد خيراً من ألف نسيئة .
فدع كل صلاة وصيام ، إلا إذا توضأت في الحان بالمدام ،
أو تيممت بثراه ، لعلك في الحجارة تسترجع عمراً غابراً ضيعته في
المدارس . ولعمري إن الذي يحسو أفويق الطلأ مستريح من
الحاريب خلي من الديور ، فارغ البال من الأديان والمذاهب ،
وأمل الرحمة وخوف العذاب . فمن أراد أن يعرف ديني فهو
الفراغ من الدين والكفر !

(و) الله كريم

ورب قوم يقولون لي : « تَبَّ لَكَ ا » فإذا لم يرِد الله لي
كيف أتوب ؟ كلا . إن الله لا يقبل توبى ، وإني لن أتوب
ولو قبلها !

اغتم اللذات يا صديقى ، واظفر بمتاحات الأمانى ؛ فإن الله
غني عن تقواك ومعصيتك جميعاً . ألا تدرك أن من يخلق هذه
الأكوان لا يبالي بشاربيّ مثلك أو لحية مثلى ؟ اللهم فاحفظنى
صريعاً بالحيتا طول عمري ، فمن الغفلة لا أعرف ما يقلقى
فكرى !

(ز) نخب العقل وأفلاك الروم

إننا لا ندرى ماذا وراء الستار .. ولا نعلم كيف حلول
الروح في الجسم .. ولا مثوى لنا غير التراب . فحَتَّامَ هذه
الحكايات ؟ وإلامَ نبقى أسارى بيد العقل العاجز ؟ إن هذى
إلا أساطير كلها لا نفع فيها . وما القديم والحديث بعد أن نموت ؟
حسبنا تفكّر من أين جئنا وإلى أين سنذهب ، ونتخيّر في الأربعة
(العناصر) والخمس (الحواس) والست (الجهات) والسبعة
(الأفلاك) ، وتتجادل في الواحد والكثير ، ونعبأ بما يكون في
الدهر كأنما أنيط بنا تدبير الكون . إننا نَعْنَى أنفسنا بتحصيل
العلم ثم لا نظفر بغير الشك ، وأما اليقين فلا يقين . أفنقضي
حياتنا القصيرة في هذا العبث ؟ عليك بالراح ، ففي ظلام الجهل
يستوى السكران والصاحي ! أما أنا فلاصَبِّنَّ جرعة من الخمر على
هذا العقل الفضولي حتى ينام ! بل لا طَلَقَنَّ العقل والدين ثلاثاً ،
وأترَوِّجَنَّ بنت الكرم !

(ح) نخب اللحظة الحاضرة

الأمس مضى وفاتك ، فلا تعاود ذكره . والغد غيبٌ لنا
يجي ، فلا تندبّر أمره . إنك إنما تملك من حياتك كلها هذه
اللحظة الحاضرة ، فاغتنمها .

ألقى عن قلبك أثقال الأسي والأحزان ، وأنس ما لم يكن
وما كان ، وأطرح هموم الجاه والمال ، وتحرّر من الآلام والآمال .
إن هذه الأنفاس في جسمك عارية ، فاغتنم عارية العمر
وعشها عارية !

إيه يا خيام . إن شربت السلاف فاسكر واطرب ، وإذا
جالست الغادة الحسانة فتمتّع والعب . آخر الدنيا فناء فافترض
أنك فانٍ ، وبما أنك موجود فتتم بما يتاح لك من لذائذ الحاضر
وغبطته .

هلاً حاسبت نفسك ماذا جلبت معك يوم أتيت ، وماذا
ستحمل معك إن توليت ؟ فأين أنت من صافية الراح وحسنات
الملاح ؟ إن كل نفس ينقضي وإنما ينقضي من عمرك هذا الذي
لا تملك في الكون سواه ، فهو رأس مالك . فلا تقضه بغير اللهو
والسرور ، واعلم أنه ينقضي كما تقضيه أنت . وإياك أن تتوب ،
عن الخمر أو غيرها من نعم هذه الدنيا . ها هي الأزهار تفوح
والأطيّار تنوح .. أفي وقت كهذا يجوز المتاب ؟

لا تفكر بعد اليوم في ماضٍ ولا آتٍ ، بل اغنم الحال .
اغنم الحال ، فإن المقصود من الحياة هو هذا .

(وهنا ينتهي الفيلسوفُ إلى حيث يبدأ رجلُ الشارع وينتهي ، فيلتقيان على متاع اللحظة الحاضرة ، ونسيان كل ما مضى وآتٍ ، وانصرافٍ عن شؤون الفكر والدهر . فهذا هو مقصود الحياة على حدِّ تعبير الخيام — يدركه العامة بغيري زتهم الجاهلة ، من غير ثورة ولا فلسفة . ولكن مع فرق واحد ، هو أنهم لا يخافون للأجيال كنزاً من الرباعيات . ولو قال الخيام إن مقصود الحياة هو عمل الخير للمجتمع ، الذي لا يمكن بدونه أن تهباً المتعة للجميع ، لكان أقرب إلى الصواب والواقع . ولكن فشل ثورته وتشاؤمه القانط جعلاه سلبياً لا يروم غير التهرب من الهموم) .

(ط) نخب الحبيب

ولئن كنت آسفٌ على شيءٍ فإنما آسفٌ على ما انقضى من عمرى بغير حبيبٍ وشمولٍ . فلا أضيعَ في حياتك من يوم يمضى في غير غرامٍ . ولست أقصد الحبَّ المجازي ، فهو لا رواء فيه ولا نضارة ، كأنه الجمره الهامدة ما فيها حرارة . وإنما أقصد ذلك المشق المحرق الذي لا يستمرئ المدنف معه طعاماً ولا مناماً ، ولا يقرّ له قرار . فلأباً كرّ فرصة البهجة إذن في الروض الظليل ، بيدِ فرع الحبيبٍ ويدِ كأس الشمول .

ويح العاذلين يقولون لى : « ما عذرك فى لهوك وسكرك ؟ »
إن عذرى لثغر الحبيب وأبريق الصبوح ! فأئى عذرى يا ترى
أوضح من هذا يكون ؟

تعال هنا يا وثنى كرامةً لقلبى ، وفرّج بحسبك كربى .
وهات كوز الصهباء قبل أن يصنعوا الكوز من طيننا . فلنتبع
نهج دراويش الحان ، لا نبتغى غير الراح والحبيب والسّماع .
ولندع أقاويل الهراء ، إلا ديواناً من الشعر . وما دمت معى ما أبالى
أن أعيش فى قفرٍ بياب ، فإن ذلك أحلى عندى من ملك
السلطين . ولسوف ترانى ذات يوم قد صرعتنى الشمول ،
فهوى رأسى على قدمك وجداً وذللاً ، ووقعت الكأس من يدى
والعمامة من رأسى . . هائماً بجمال وجهك ، كأننى من عبدة
الأوثان !

(ى) نخب الأُنخاب

ويا صهباء ، إنك لأنتِ شرابى الفاضحى بين العباد ،
فلأشرب منك ما يذهب بصوابى ! ومهما هتكت سترى فلن
أفلوك وفى نفسى رموق ، أنت التى لم تقع عينٌ على أحسن منك .
فيا عجبي للبائعك ، ما عساه يشتري أفضل مما يبيع ؟

إني لا أحتمل العيش بدونك ، ولا طاقة لي بحمل هذا
الجسد الثقيل . فما أحلى ساعة يقول لي الساقى : « إنيك قدحاً
آخر » ، وأنا لفرط السكر لا أستطيع !

لقد عرفتُ ظاهرَ كلِّ موجودٍ ومعدومٍ ، واطَّلتُ على
باطنِ كلِّ رفيعٍ ووضيعٍ ؛ فلا أخجلُ إذن من كلِّ علمي إن كنتُ
أعرفُ مكانةَ فوقِ السكرِ !

يا أحبائي ، فاجعلوا الحميا قوتي ما حييت ، واغسلوني بها
متى وافاني الأجل . ثم أعدُّوا تابوتي من السكرمة ، ثم فاصنعوا
من ترابي جاماً لعلِّي أحيي فيه إذا امتلأ من بنت العنب . وما أبالي
بعد الموت فخراً ولا ذكراً ، فاطمسوا قبوري ، واجعلوا سيرة حالي
عبرة للعالمين . ولكن لا تنسوا أن تصبُّوا الراح على ترابي ،
وأن تصنعوا من جسمي سيداً للخوابي . ومتى اجتمعتم لمعاقرتها
بعدي ، وجاء دوري ، فاذكروني ، واقلبوا كأسِي .

١٢ - ستار الخيام

الآن وقد انتهينا ، فلنتأمل قليلا . أيهما أصوب يا ترى :
سكارى الخان أم أحلاس الحاريب ؟ يقول الخيام إن كلا
الفريقين على ضلال ! وعلى أية حال لم يكن هو من أهل الدير
ولا المسجد . أما إذا أردت أن تعرف حقيقته ، أجابك أنها
لا يعرفها إلا من جبل ترابه . إنه في الدنيا أشبه بالكافر المعدم
والموس المحرومة من نعمة الجمال - قد خسر الدنيا والآخرة ،
وقطع الرجاء من الجنة .

ترى ، هل عرفنا الخيام على حقيقته ، وهل صدق حدسنا
في فهمه ؟

قال قوم إنى زيرُ نساء زقُ خمر ، وقال آخرون إنى وثني
كافر . فليقل مَنْ شاء في ما شاء . غير أنى ملك نفسى ، كيفما
أكن أكن ! ..

فهو بعدُ تمحُّرنا أمره تطفلاً وفضولاً كما ترى .

عبد المحي فاضل

طهران : ٥ أيار ١٩٤٩

obeikandi.com

الباب الثاني
صوت الخيام
(الرباعيات)

obeikandi.com

ثورة على المجتمع

obeikandi.com

فُصِّلَتْ أَسْرَارُ دُنْيَاكُمْ لَدِينَا فِي الدَّفَائِرِ
قَدْ طَوَيْنَاهَا فِي النُّشْرِ وَبَالٍ وَمَخَاطِرِ
لَمْ نَجِدْ فِي النَّاسِ مَنْ يَعْقِلُ مِنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ
فَقَدَا يُعْجِزُنَا إِظْهَارُ مَا تُخْفِي الضَّائِرِ !

جَزَعَ الدَّهْرُ عَلَيْنَا مَذْ رَحْلِنَا وَقَنْطُ
أَنْ ثَقِينَا دُرَّةً مِنْ مَائَةٍ فِيهِ قَنْطُ !
لَهْفَ نَفْسِي ، كَمْ أُلُوفٍ مِنْ مَعَانٍ فِي السَّفَطُ
حَالَ عَنْ إِعْلَانِهَا بِالنَّاسِ جَهْلٌ وَشَطَطُ !

— ٣ —

رَبِّ سِرِّ لَسْتُ أُسْطِيعُ لَهُ فِي الْخَلْقِ فَضْحًا
فَاسْتَمِعْ مُوجِّزَ قَوْلِي ، لَا تَسَلَّنِي عَنْهُ شَرْحًا !
آه مِنْ حَالِ أَرَانِي عَاجِزًا عَنْ وَصْفِهَا
آه مِنْ سِرِّ طَوَاهِ الْقَلْبِ لَا يَقْبَلُ بَوَاحًا

— ٤ —

أَكْتُمُ الْأَسْرَارَ عَمَّنْ سَفَلُوا وَأُبْتَدِلُوا
وَصُنِّ الْحِكْمَةَ عَنْ كُلِّ عَمٍ لَا يَعْقِلُ
وَتَأْمَلُ .. فِي مَكَانِ النَّاسِ مَاذَا تَعْمَلُ ؟
وَتَتَوَقَّعُ مِثْلَ هَذَا مِنْهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا

— ٥ —

أَنَا بِالنَّفْسِ أُفْدِي كُلَّ حَرِّ النَّفْسِ أَهْلِ
إِنْ أَضَعُ رَأْسِي عَلَى رِجْلَيْهِ لَمْ أَشْعُرْ بِذَلٍّ
أَفْتَبْنِي أَنْتَ أَنْ تَعْرِفَ مَا نَارُ الْجَحِيمِ ؟
هِيَ فِي الدُّنْيَا لِعَمْرِي مِخْبَةٌ الْقَدَمِ اللَّثِيمِ

عائير الأظهار من كل كريم عاقل
ومن الأشرار فاهرب ألف ميل مائل !
إشرب السم إذا أعطاك أهمل الحجي
وأهرق الشهد إذا أعطته كف الجاهل !

صاح أقلل ما تمكنت عديد الأصدقاء
وأصطحب إن شئت أهل الدهر، لكن من بعيد
إن من تركن في الدنيا إليه بالولاء
ليس في باصرة العقل سوى خصم لدود !

إن رعى عهدى غريب كان لي من أقربائي
وإذا خان قريب كان بعض الغرباء
أنا إن أسقمني الترياق فالترياق دأى
أو شفانى السم كان السم طبي ودوائى !

يا لها محبوبه ، طال كاشجاني بقاها !
بدأتني اليوم إحساناً جديداً من نداها
نظرت في ناظري وانصرفت ، أي يا أخي
إصنع الخير وفي الماء أرميه ، لا تتباهى !

لا تجرّع أحداً غصةً حزنٍ بطراً
لا ولا تُصلِ بنار الغيظ مرةً في الوري
وإذا أحببت أن ترتاح حقاً عمراً
فاجلِ الحزن ولا تُحزنْ لشيء بشراً

إنما الراحة في الدنيا ولذات الصفاء
خُلقتْ للمطلق للضارب في كلِّ فضاء !
فلذا أصبح فردٌ مستريحُ البال زوجاً
فلقد هدل من راحته أيّ عناء !

— ١٢ —

ليس في ميزان هذا الدهر نفعٌ للعقول
إنما يربحُ فيه كلُّ مافونٍ جهولٍ
فاسقنيها تذهبُ العقلَ ذهوباً منكرًا
فسي أن يُحسِنَ الدهرُ إلينا النظرًا !

— ١٣ —

ليست الفضةُ في الدنيا بذخرِ الحكاء
يد أن العادي الفضةُ فيها سُجَناءُ
أطرقَ النَّسرينُ بالرأسِ لُؤْمٍ وَسَقَبِ
بينما يضحكُ ثغرُ الوردِ في كيسِ الذَّهَبِ !

— ١٤ —

ليس في الإمكانِ تغييرُ الذي خَطَّ القلمُ
فالأسي لا خيرَ فيه غيرَ تَارِيثِ الألمِ
لو قضيتَ العمرَ في حزنٍ على الدنيا وحسرةٍ
لم تَزِدْ ما هو موجودٌ ولا مثقالَ ذرَّةٍ !

— ١٦١ —

لِمَ هذا الحزن للآتي الذي لم يحضر ؟
إن طول الممّ من حظّ البعدي النظر !
لا تضيق سعة الدنيا على قلبك ، فافرح
لن تزيد الرزق أو تنقصه بالكدر !

إن ما تطعم أو تلبس مما تتغيبه
أنت معذور بما تكدر كما تقنيه
أيها العاقل ، والباقي فضول ، ورخيص
فبحذر أن تبيع العمر الغالي فيه !

كم تُذك النفس في خدمة أوغادٍ لثام ؟
تنتجى كلّ طعام ، كالذباب المتراعى ؟
كلّ رغيماً كلّ يومين بلا من الأنام
فلان تطوي خيراً لك من خبز الكرام !

إن أصابَ المرءَ في اليومِ رغيئاً واحداً
واحتمى من كوزهِ المكسورِ ماءً بارداً
فماذا يأتى يخدمه مَنْ دونه ؟
ولماذا يأتى يخدم نداءً سائداً ؟

أنا إن فزتُ من القمحِ المنقى برغيئِ
ومن الخمرِ بزقٍ ، معاً فخذُ خروفِ
ثم أجي وحيب القلبِ في عرضِ تنوفِ
فهي العيشةُ ، ماتاحت لذي الملكِ المنيفِ

إنَّ من صاروا عظامَ الناسِ من أهلِ المناصبِ
سثموا أنفسهم من فرطِ حرصٍ ومتاعبِ
وإذا هم أبصروا غيرَ حريصٍ مثلهم
لم يرَوْهُ آدمياً مثلهم . . يا للعجائبِ !

ربِّ سهمٍ ترشقُ الآجالُ لا درعَ تصدُّه
وثرأه يحشدُ الإنسانُ لا يجديه حشده
كلما فكرتُ في الدنيا عددتُ الخيرَ خيراً
وبدا لي ما عداه باطلاً لستُ أعدُّه

أنا آثرتُ من الدنيا رغبين وخلوة
وصرفتُ النفسَ عن كلِّ غنى فيها وسطوة
إنني أبتغتُ بروحي كلَّها دروشة
فلكم أليتُ في متربة الدرويش ثروة!

ليس في إيوان هذى النيِّراتِ الدائراتِ
من سعيدٍ قطُّ غيرِ اثنين من أهلِ الحياةِ
مُدركٍ يفقه كنهَ الدهرِ من خيرٍ وشرِّ
وجاهولٍ غافلٍ عن نفسه والكائناتِ!

لاح نورٌ في السما يدعى الثريا ، ظاهرٌ
واختفى تحت طباق الأرض نورٌ آخرٌ
فإذا ما نظرتُ واعيةُ العقل البصيرِ
شاهدتُ بين كلا الثورين سرباً من حبرِ

obeikandi.com

٢

سورة على الدجالين

(من رجال الدين)

obeikandi.com

يَتَغَنَّى الشَّائِبُ الْوَاهِمُ أَنِي فِيلْسُوفٌ !
عَلَّمَ اللَّهُ بَأَنِي لَا كَمَا قَالَ السَّخِيفُ
غَيْرَ أَنِي وَأَنَا فِي وَكْرٍ أَتْرَاحِ وَبُؤْسِ
لَا أَقَلَّ الْآنَ أَنْ أَعْرِفَ فِيهِ كَنَّهُ نَفْسِي !

كُلُّ شَيْءٍ قَلَّتْ عَنِّي كَانَ عَنْ حَقْدِ جَلِيٍّ
أَبْدًا تَزْعُمُ أَنِي مَلْحَدٌ لَا دِينَ لِي
إِنِّي نَفْسِي بِنَفْسِي عَارِفٌ مَعْتَرِفٌ
أَفَاهِلُ أَنْتَ أَنْ تَسْأَلَنِي عَنْ عَمَلِي ؟

سيدي أنت فقيه ، لست تدري ما الخبر
ما الذي تنكر بالله على أهل النظر ؟
هم أطالوا الفكر في الصانع أو صنعته
وتفقت ببيض ، ونجاساتٍ أُخرى !

سيدي ، هلا تكرمت علينا بـرام ؟
أعفنا ناشدتك الديان من هذا الخصام
مستقيم سيرنا .. لكن في عينك زيفاً
فالتمس طباً لعينيك ، ودعنا في سلام !



أيها الزاهد ، ما مثلي من يجهل مثلك
فالتمس غيري غريباً جاهلاً يذكر فضلك
قلت لي : إن تجن ذنباً تك في النار ! فهلك
أيها الزاهد قل هذا لمن يجهل فعلك !

أيها القالى الحميىا ، لا تندد بالسكارى
لا تشيد بالأساطير وبالتدجيل دارا
إن تخرجت من الخمر فلم تزهى اغترارا ؟
كم فعال لك تخزى الخمر منه وتوارى !

أنا أحسو الخمر ، لكن ما أدار السكر رأسى
ويمينى لم أطلها صوب شيء . . غير كأسى !
أفتدرى ويك ما سر افتتاني بالحميىا ؟
ذاك أنى لم أكن مثلك مفتونا بنفسى !

كان سكرى وطلابى الراح مقدورا جرى
فلماذا أولع الخلق بمذلى يا ترى ؟
أتمنى لو غدا كل حرام مسكرا
عندها ما كنت ألقى صاحبيا بين الورى !

— ٣٣ —

إننا أكثرُ شغلاً منك ، يا مفتي القضاء
وبهذا الشكرِ أصحى منك ، عند العقلاء
كم شربتم دَمَ قومٍ ، وشربنا دمَ كرمٍ .
فأجبنى . أينا أنكرُ شرباً للدماء ؟!

— ٣٤ —

قال شيخُ لبغِيّ : أنتِ ذى سكرى ، فسحقاً
كلَّ أنٍ لك غاوي في أحابيلكِ ملقى
فأجابت : أنا يا شيخُ كما تحكى وأشقى !
فأجبنى عنك ، هل أنتِ كما تظهِرِ حقاً ؟!

— ٣٥ —

إنَّ شُرْبَ الخمرِ والصَّبوةَ بالغيَدِ الحسانِ
كان خيراً من تعاطى الزهدِ زوراً باللسانِ
إن تَكُنْ عاقبةُ السكيرِ فى نارِ الأبدِ
فلمصرى لن يرى الجنةَ مِ الناسِ أحدِ !

— ١٧٢ —

إننى أفر بالخانِ ، فأهلُ الخانِ أهلُ !
ولدى الإنصافِ حتى سُوِّها حلوةً وسهلُ !
إنَّ دورَ العلمِ لم تُنجِبْ حكماً ذا أصله !
فأهدموا هذى الزوايا ، إنها دور الجهالة !

إنَّ قومًا لزموا المحرابِ عمراً لحبِّ
فلقد ناؤا بأوساقِ رياءٍ وغرورِ
وعجيبٌ أنهم تحت ستارِ الزهدِ باعوا
دينهم بيعةً ، فهم أنكر من كل كفور !

كن حاراً بين جهالٍ رأوا بالخذلقه
أنهم فى الأرضِ أهلُ العلمِ طرّاً والثقه
كم تجنّوا من حاريتهم واتهموا
كلّ من ليس حاراً مثلهم بالزندقه !

obeikandi.com

٦

ثورة على الدين

obeikandi.com

قيل إنَّ الشاربَ الخمرَ إلى النارِ يصيرُ
قَالَ لا يركنُ القلبُ إليها ، فهي زورُ !
إن يكنُ منقلبُ الشاربِ والعاشقِ ناراً
فقدأ سوف ترى الجنةَ كالراح^(١) قفارا !

قيل في الجنة حورٌ قاصراتِ الطرفِ عينُ
وخمورٌ جارياتٌ في نهورٍ وعيونُ
أيّ ضميرٍ إن طلبنا الحورَ والخمرَ هنا ؟
إن هذا هو عقبي الأمر . . فيما يذكرُون !

(١) جمع راحة ، وهي باطن الكف .

قال مَنْ صارت لهم في العلم والتَّقْوَى الإمامة :
« يُحْشَرُ المرء على ما كان إذ لاقى حِمامه »
ولهذا نلزم الحسنة دوماً والمدامه
فصاننا هكذا نُحْشَرُ في يوم القيامة !

قيل لى : ما أطيب الجناتِ بالخور الحسانِ
بيد أنى قلتُ : ما أطيبها بنت الدنانِ !
فدع القرض ، عليك الآن بالنقد الوكيدِ
يا صديقي ، إن صوتَ الطبلِ يحلو من بعيدِ !

يا فؤادى ، لم يرَ الجنةَ والنارَ بشر
أم أنى من ذلك العالمِ آتٍ بخبرٍ ؟
إن ما نَحْشَى وما نرجو منوطان بشيء
ليس يبدو منه إلا أسمٌ ووصفٌ للنظر !

آه ، كم أبني على الماء من الوم قصورا ؟
سئمت نفسي أوثانا لعمري وديورا
أيها الخيام ، من قال لنا نتم جحيم ؟
من تولى في جحيم أو تدلى من نعيم ؟

كرّ بي الفكرُ إلى أول يومٍ في الخليقة
ناشداً في اللوح والجنة والنار الحقيقه
وإذا العقل ينادي قائلاً : ما أضيعك
ويك إنَّ اللوح والجنة والنار معك !

أكرع الراح ، فإن صرتَ تراباً في الترابِ
صار مشواك تراباً لكووس وخوابي !
دع حديث النار والجنة وأفرغ منها
لم يفتّر بشيء مثل هذا ذو صواب ؟

أهمل السُّنةَ والفرضَ ونصَّ الشارعَ
وأبدل اللقمة لا تبخل بها عن جائع
ثم لا تُؤذِ عباد الله أو تَغْتَبِ جليسا
وأنا الضامن بالأخرى .. فهات الخندريسا!



إخديمن كلَّ خليع ماجن في الندماء
وأطرح اعباء صوم وصلاة ودعاء
إسمع الحق من الخيام ، ما فيه مرء :
إصنع المعروف .. وأحسُّ الخمر واطرب بالغناء!



إسمع العقل الذي يبحث في سُبُل السعادة
إنه ينبيك ألفاً كلَّ يوم ، وزياده :
أنَّ إبانك هذا العمر ، لا عمر سواه
لست بالكرّاث ينمو بعد إذ أنهوا حصاده!

— ٥٠ —

قُلْ لَمْ يَأْتُوكَ بِالخَمْسَةِ كَالْوَرْدِ الْجَنِيِّ
قَبْلَ أَنْ تَدْمِكَ الْأَشْجَانُ فِي اللَّيْلِ الدَّجِيِّ
أَيُّهَا الْغَافِلُ الْجَاهِلُ ، مَا أَنْتَ نَضَارُ
فِيوَارُوهُ الثَّرَى كِي يَنْشُرُوهُ بَعْدَ طَيِّ

— ٥١ —

دُونَكَ الْكَأْسَ ، فِي الْوَلَدِ سَتَلَقَى مَفْرَدًا
مَفْرَدًا ، دُونَ أَنْيْسٍ ، أَوْ قَرِينٍ ، أَوْ خَلِيلٍ
هَآكِهِ سَرًّا مَصُونًا ، لَا تُدْعُهُ أَبَدًا :
أَبَدًا لَا تَزُهِرُ الْوَرْدَةُ مِنْ بَعْدِ الذَّبُولِ !

— ٥٢ —

أَيُّهَا النَّاتِجُ مِنْ أَرْبَعَةٍ فِي ظِلِّ سَبْعَةٍ
وَهُوَ فِيهَا دَائِبُ الْفِكْرِ ، أَخُوهُمْ وَلَوْعَهُ
إِشْرَبِ الْخَمْرَ .. فَقَدْ قَلْنَا وَقَلْنَا لَكَ الْفَأْ :
إِنْ تَوَلَّيْتَ تَوَلَّيْتَ ، فَلَيْسَتْ لَكَ رَجْعُهُ !

لى يدٌ تأخذ بالمصحف والأخرى بجامى
وحياةٌ تنقضى فى حلالٍ وحرامٍ !
فأنا فى الدهر لا أنى ، ولا الناصح حقا
لست بالكافر إطلاقاً ، ولا المسلم صدقا !

أسفاً أن يدأ تأخذ جام الراح محضا
كيدى تأخذ بالمنبر والدفتر أيضا !
أنت عفتٌ يابسٌ ، لكنى غاو ندي
ولهيب النار لا يورى ندياً يا أخى !

يزعم اللوامُ أنى فاسقٌ حلفُ الخنا
وأنا المظلوم ، فانظر للتبطنى ما جنى !
أنا يا أهل التثقب لم أرتكب فى الشرع إثماً
طول عمرى ، غير كفرانٍ ومُكرٍ وزنا... (١)

(١) هذبنا الشطر الرابع من هذه الرباعية كما ذكرنا فى المقدمة .

لا يميزُ القلبُ بين الحبِّ في أشراكِ صائِدٍ
فهنا هوُ الحميَّا ، وهنا تقوى المساجدِ !
يبدأنا في هوى المحبوب والكاسِ المصنَّى
في الحوانيتِ هنا أنضجُ منا في المعابدِ !

ليَ ذنبٌ فادحٌ يكسر ظهر الدين كسرا !
فاضحٌ ، يكسر سوقَ العابدي الأصنام طرا !
باهضٌ ، أخشى إذا ما وزنوه يوم أفضى
مرّةً أن يكسر الميزان يوم الحشر أيضا !

ربِّ درويشٍ رأيتُ أقعد الأرضَ سنينُ
حاد عن كفر وإسلام ، وعن دنيا ودينِ
وأشاح الوجهَ عن حقِّ وشرعٍ ويقينِ
يانرى أجراً في الدارين منه من يكون ؟

obeikandi.com

٤
ثورة على السماء

obeikandi.com

obeikandi.com

رَبِّ مَسْكِينِ رَمَوْهُ فِي بَوَادِي الْعِلَالِ
دَبُّرُوا مِنْ دُونِهِ الْخَطَّةَ لِلْمَسْتَقْبَلِ
لَهُمْ يَخْتَلِقُونَ الْيَوْمَ شَيْئًا حُجَجٍ
وَعَدًّا يَحْدُثُ مَا قَدْ بَيَّنْتُوا مِنْ حِيلٍ !

مَا بِنُحُورِ الدَّيْرِ يُرْجَى ، أَوْ سِرَاجِ الْمَسْجِدِ ؟
وَحَسَارُ النَّارِ ، أَوْ رِيحِ النِّعِيمِ السَّرْمَدِ ؟
أَنْظِرِ اللَّوْحَ تَجِدُ ثَمَّةَ أُسْبَاطِ الْقَضَا
خَطٌّ فِيهِ مَا هُوَ الْكَائِنُ حَتَّى الْأَبَدِ !



وَيْلَتِي ، مَهْذَجَبَلُوا فِي قَالِبِ الْخَلْقَةِ طِينِي
كَمْ أَتَارُوا الشَّرَّ مِنْ هَذَا التَّرَابِ الْمَسْتَكِينِ ؟
لَيْسَ فِي مَقْدَرَتِي أَنْ أُغْتَدِي أَفْضَلَ مِنِّي
هَكَذَا مِنْ مَصْهِرِ التَّكْوِينِ كَانُوا أَفْرَغُونِي !

عندما صورنا الباري^١ من هذا التراب
كان يدري ما سنأتي من أثم وصاب
إننا لم نَجِنِ ذنباً ليس من تقديره
فلم التعذيبُ في النارِ إذن يوم الحساب ؟

قلمُ المقدارِ أجروهُ بأمرى ، دون أمرى !
فلماذا ساءلوني منه عن خيرٍ وشرٍّ ؟
ذهب الأمسُ بدوني ، وأتى اليومُ بدوني
فقدأ بالله ما حجتهم إن حاسبوني !؟

سُطِرَ الكائنُ من خيرٍ وشرٍّ وأنحسَمُ
ولقد كلَّ بما خَطَّ على اللوحِ القلمُ !
كلُّ ما يحدثُ قد قُدِّرَ من يومِ القِدمِ
فهبلا كلُّ ما ننفقُ من سعيِّ وهمِّ !

إن أمرَ الحيِّ والميتِ يا ربِّي إليك
ولك الأفلاك لا يخرج ما فيها عليك
إنني عبدك مهما كنتُ مردولاً ، قتل لي
أيُّ ذنب لابن أُنْتَى هو من صنع يديك ؟

إنني يا ربَّ عبدٌ مذنبٌ ، أين رضاؤك ؟
وفؤادي كالدياجي مظلمٌ ، أين ضياؤك ؟
وإذا أعطيتنا الجنة بالطاعة منا
كان هذا منك بيماءً ، أين ياربُّ عطاؤك ؟

ربُّ قل لي ، من هو المعصوم من إثمٍ وعيبٍ ؟
ربُّ كيف أسطاع أن يحبي أمرؤٌ من غير ذنبٍ ؟
أنا عبدٌ أصنع الشؤء فتجزيني بسوء
فإذن ما الفرق ما بيني وما بينك ربِّي ؟

— ٧٠ —

أنت ياربِّ كريمٍ ، أنت ذو لطفٍ ومَن
فماذا تطرد العاصيَ عن جنَّةِ عَدْنٍ ؟
ليس جوداً منك أن تعطيتني عن حسناتي
إنما جودك أن تؤتيتني عن سيئاتي !

— ٧١ —

وكأني من نديمٍ كان حرّاً النفس أهلاً
كان مثلي شربُه الراحَ بعين العقل سهلاً
علمَ اللهُ بشرِّي هذه الصبَاءُ ، قديماً
فإذا لم أحسها لم يكُ علمُ اللهِ علماً !

— ٧٢ —

قل لمن هان عليه الذنبُ لا يخشى مآله
هذه النكتهُ إن كان أريباً ذا أصله :
جعلوا علةً كلَّ الذنبِ علماً أزلماً
إن هذا عند أربابِ النهي عينُ الجهالة !

— ١٩١ —

زَيْنَ الصَّانِعِ تَرْكِيبَ طَبَاعِ الْبَشْرِ
فَلَمَّا إِذَا شَانَهَا بِالنَّقْصِ أَوْ بِالْوَضْرِ ؟
إِنْ تَكُنْ جَاءَتْ مَلَا حَا .. فَلَمَّا إِذَا خَرَبُهَا ؟
أَوْ تَكُنْ جَاءَتْ قَبَا حَا .. فَعَلَى مَنْ عَيْبُهَا ؟

فَيْمَ يَا خَيَّامُ هَذَا الْحَزْنَ لِلذَّنْبِ الْكَبِيرِ ؟
وَالْأَمْسَى لَيْسَ بِمُجْدٍ فِي قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ ؟
إِنَّ مَنْ لَمْ يَجْنِ ذَنْبًا لَمْ يَكُنْ لِلْعَفْوِ أَهْلًا
وَيْكَ مِنْ أَجْلِ الْمَعَاصِي كَانَ غَفْرَانَ الْغَفُورِ !

تَعْمُرُ الْحَاةُ مِمَّا نَحْتَسِي فِيهَا الْمَدَامَا
وَعَلَيْنَا دَمُ الْفِي تَوْبَةٍ بَيْنَ النَّسَامَى !
مَا جَدَا الرَّحْمَةَ إِنْ لَمْ أَقْتَرِفْ إِثْمًا جَسَامَا ؟
زِينَةُ الرَّحْمَةِ مِمَّا نَجْتَنِي نَحْنُ الْأَثَامَا !

أنا لم أقنط مع العصيان والجور العظيم
من رجاء الخالق الغافر والربِّ الرحيم
إن رقدتُ اليوم سكرانَ صريعاً ، خرباً
فندأ ينفسر كلَّ الذَّنْبِ للعظم الرميم !

قيل لي : ثمَّ حسابٌ وعقابٌ يومَ حشرٍ
يوم يشقُّ الحبيبُ المرتجى في كلِّ أمرٍ
ليس عند الخير المحض سوى الخير لعمرى
فاغتمط صاح ، فعقبى الأمر ليست غير خيرا

يا إلهى أنا من قد برأتى قلدتكَ
فترعرتُ عزيزاً ، دللتنى نعمتكَ
سوف أمضى فى المعاصى جاهداً سبعين عاماً
لأرى معصيتى أوسعُ أم مغفرتكَ !

قلت لى : إني لُمُصَلِّيك سَميراً بِالعينِ
خبرٌ ما ازددتُ خوفاً منه بين المذنبينُ
فلعمري لا عذابٌ فى مكانٍ أنتَ فيه
ومكانٌ لستَ فيه أين يا ربُّ يكونُ؟

إن فى المسجدِ والبِيعَةِ من شَتَّى العبادِ
من يخافُ النارَ أو يرجو نعيماً فى المعادِ
بيد أن العارفينَ اللهُ عرفانَ سدادِ
أبدأ لم يزرعوا بذراً كهذا فى الفؤادِ !

هَامَ قومٌ بجزافٍ فثَنُوا لِلعُجْبِ جِيدا
ومضت طائفةٌ تطلب حُوراً وخالودا
لو أميطَ السترُ يوماً لتبَدَّى أنهم
وقصوا منك بعيداً ، وبعيداً ، وبعيداً ..

إن من هم صنوة الدنيا وأعلام الورى
ببراق الفكر يطوون الثريا والثرى
كلهم فى فهمهم ذاتك مثل الفلك
مستهامون حيارى ، خبطوا فى حلك

❖ — ٨٣ — /

لو درى للقلب على التحقيق أسرار الحياة
لدرى سرّ الألوهية أيضاً فى المات
إنك اليوم مع النفس ولا تدرى بأمر
فندأ بالله إن فارقها ماذا ستدرى ؟

❖ — ٨٤ — /

قال لى القلب : هوى العلم اللدنيّ بنفسى
فاذا أوتيت حظاً منه فانهنى بدرس
قلت : فاسمع ، ألف . قال : تمهل ويك يكفى
إن يكن فى الدار من يسمى فسى فرد حرفاً

هذه الأجرام في إيوانها العالى المكين
حيّرت أسرارها أهل العقول الباحثين
لا تضيّع رأس خيط العقل ، واعلم أن من
عندهم تدير هذا الكون صرعى ذاهلون !

٥
ثورة على الدهر والأفلاك

obeikandi.com

يا زمانا بأفاعيل يديه يـمـزف
وهو في زاوية الجـسـور مقيمٌ معكف
تُسبغ الفضلَ على الوغد وتؤذي من أنف
أنت لا تخلو من اثنين : حمارٍ أو خرفٍ !

لستُ في نهجك يا دهرُ براضٍ أو سعيدٍ
فكُ عنى القيدَ ، ما مثلي خليقٌ بالقيودِ
إن يكن مَيْلُك يا دهرُ مع الدونِ البليدِ
فأنا لستُ بذاك البلذخ القدر الرشيدِ !

فلكَ النعمة ، توتى النذل ما عزَّ وجلَّ
فله الحتامُ ، والطاحون ، والقصر المملئ
بينما يرهن حراً ثوبه في قوتِ يوم
فلكُ مثلكِ أولى هدمه علواً وسفلاً

آه لو كنتُ على الأفلاكِ رباً في سماءي
لهوتُ الآن هذا الفلكَ الضخمَ البناء
ولأنشأتُ بنفسى من جديدٍ فسكاً
بندوكِ الأحرارُ فيه ما اشتها ، دوتِ عناه

إن فصل الظير والشرِّ لفي طبع البشر
وأرى الأفراح والأراح من فعل القدر
لا تحل شيئاً على الأفلاكِ قدأ كبرتِ أعره
فهي أشتى في طريق العقل منكم ألف مرة

قال لي في أذنِ قلبي الفلكُ الدوّارُ همسا :
أنظنُّ الحكمَ حكى في الوري سعداً ونحسا ؟
أنا لو كان بأمرى دَوْراني في مداري
لأرحتُ الآن نفسي من هيامي ودواري !

obeikandi.com

٦

هل من مُنَازِل؟

(الغاز الوجود)

obeikandi.com

جاء بي في البدء مضطراً إلى دنيا الترابِ
حائراً ما أزددتُ فيها غير جهلٍ واضطرابِ
ثم وليتُ برغمي .. غيرَ دارٍ في آبابي
لمَ قد كان مجيئي ، ومقامي ، وذهابي !

ما أفاد الفلكُ الدوّارُ ربّما من حياتي !
لا ولا زاد جمّالاً أو جلالاً بوفاتي !
أنا لم أسمع مدى عمري في دار الشتات
ما هو المقصود فيها من حياتي ومماتي ؟

— ٩٤ — * ❁

وَمَدَارٍ فِيهِ جَنَّا وَذَهَبًا تَقَلَّبَ
خَفِيَّ الْأَوَّلِ وَالْآخِرُ مِنْهُ وَتَحَجَّبَ
أَمَا مِنْ فِطْنٍ يَأْتِي بِرَأْيٍ صَائِبٍ
مُنْبِتًا مِنْ أَيْنِ جَنَّا ، وَإِلَى أَيْنِ سَنَذُوبُ ؟

— ٩٥ — ❁

بَتَقَعَّ يُؤَلِّدُ فِيهِ وَجَلَّ أَوْ خَطَرُ
لَمْ يَزِدْنِي فِيهِ إِلَّا حَبْرَةً مَا أَنْظَرُ
لَيْسَ مَعْلُومًا إِلَى أَيْنِ وَمِنْ أَيْنِ نَرَى
فِيهِ رَكْبًا يَتَوَارَى وَسِوَاهُ يَظْهَرُ

— ٩٦ — ❁

وَيْحَ قَلْبِي ، ضَاعَ رَأْسُ الْمَالِ مِنْ أَيْدِي الْأَمَلِ
وَلَسْكُمْ أَدَمْتُمْ مِنَ الْأَكْبَادِ أَظْفَارُ الْأَجَلِ
لَمْ يَجِيءْ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ مِنْ أَسْأَلِهِ :
كَيْفَ صَارَتْ حَالُ مِنْ أَمْسَى مِنَ الدُّنْيَا أُرْتَحَلُ ؟

إنما حظك يا قلبُ جِراحٌ وضحى
كلَّ يومٍ لك حالٌ بعد حالٍ تتحوَّلُ
ولماذا أنتَ يا روحَ حلتَ البدنَا
برهةً ما دمتَ في عاقبة الأمرِ مترحلُ ؟

قطرةٌ كانت من الماءِ إلى البحرِ مضتْ
ذرةٌ كانت من الأرضِ إلى الأرضِ أنتهتْ
فأجبنى ، جئتَ هذا الكونَ من جِراءِ ماذا ؟
بقيةٌ جاءت فطنتْ ، ظهرت ثم أخفتْ !

أنا إن كنتُ فريدَ الحسنِ ، موفورِ الشبابِ
وردةً خدِّي ، وسرواً قامتي ، غضاً إهابي
فلماذا ليت شعري زانَ خلقي واعتنى بي
مُدُّ جلاني الصانعُ السرمدُ في ملهى الترابِ ؟

هو جامٌ أُعجِبَ العقلُ بهِ حتى تَدَلَّه
ولقد قَبَّلَهُ من كَلَفِ سَبْعِينَ قَبْلَهُ !
يا لَحْزَافَ القِضا ، يُبَدِّعُ جاماً مِثْلَ هذا
وتراه يَضْرِبُ الأَرْضَ بهِ من غيرِ عِلَّةِ !

هي كَأْسٌ حَسُنَتْ صنْعاً ، فما أَرشَقها !
يا ترى هل يملك السكرانُ أنْ يَسْحَقها ؟
كم خُدودٍ لِقِـسْوَانٍ ، ونهودٍ ، وقُدودٍ
حُبٌّ مَنْ أَلْفها ، أو حَقْدُ مَنْ مَرَّقا ؟

ربِّ طامِسٍ ذَميِّ — كيف أَسْرَى في البِدايهِ ؟
وأَسْلَسٍ مُحْكَمٍ — كيف سَيَّهَوَى في النِّهايهِ ؟
ذاك سرٌّ ليس يُدْرَى بقياسٍ وعِنايهِ
لا ولا يوزنُ في ميزانِ عِقلٍ وِدرايهِ

٧
ثورة على العقل

obeikandi.com

ليس هذا الفلكُ الجارى الذى فيه اختلفنا
غير فانوسِ خيالٍ ، شَبَّهًا منه عرفنا
هو فانوسٌ كأنَّ الشَّمْسَ مصباحٌ له
وكأنَّا صُورٌ فيه ، أتينا وانصرفنا !

— ١٠٤ —

لا تَسَلْ ما ذلك النُقشُ المجازيُّ العَجَبُ
إن أقلُّ ما هو ، طال الشرحُ فيه وأنشعبُ
هو نقشٌ جاء من أعماقِ بحرٍ فبدأ
وإلى أعماقِ ذاك البحرِ ولَّى فاحتجبُ !

— ١٠٥ — ❖

إنه بحرٌ وجودٍ جاء من طيِّ الخفاء
دُرَّةٌ للبحثِ لم تُثَقَّبْ بعلمٍ أو ذكاء
كلُّهم جاء بقولٍ من تظنَّ وهراء
غير أن الحقَّ لم يظهَرَ عليه ابنُ فناء

— ١٠٦ — ❖

لم يَتَّخِ قَطُّ للإنسِ حلًّا أسرارِ الأزلِ
أو خروجٌ عن حدودِ الطبعِ شبراً، أو أقلَّ
أنظرِ الناسَ من الأستاذِ حتى المبتدى
لا تجدُ عند ابنِ أنى غير عجزٍ باليدِ !

— ١٠٧ — ❖

أبيكةُ التحقيقِ لم تثمر بأرضٍ أو زمانِ
ذاك ألا كُفءٌ في غمرة هذا المعمانِ
كلُّهم هزَّ بكفِّ العجزِ غصنَ الأملِ
فافرضِ اليومِ كأمسٍ ، وغداً كالأزلِ !

لا أنا الدَّارِي ولا أنت بأسرار الأزل
لا أنا القَارِي ولا أنت المعَى قد عَضَلُ
إن ما أحكى وما تحكى لمن خلفِ سِتَارِ
لا أنا الباقي ولا أنت إذا السِتْرُ زَحَلُ ا

إن من صاروا محيطَ العلم بين العالمين
وغدّوا في الفضل مصباح الهدى للمهتدين
لم يشقُّوا من دجى الشكِّ طريقاً ليقين
إنما قصُّوا أساطيرَ وناموا بعد حين ا

رُبَّ جهالٍ قد أَمَى ثقبوا دُرَّ المعاني
قد هدّوا في الفلك الجارى ضروب الهديان
ثم لما عجزوا عن درك أسرار الحياة
أطرقوا بالذقن حيناً، ثم غطُّوا في الشبات ا

يَا لَرَهْطٍ طَوَّفُوا الْأَرْضَ وَجَابُوا الْخَافِقِينَ
فَرَمُوا فِي طَلَبِ الدُّنْيَا فَجَاجَ الدُّنْيَوِيِّينَ
لَسْتُ أَدْرِي ، أَرَامَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ
عَرَفُوا شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ بِإِحْدَى الْحَالَتَيْنِ !

خَارَ قَوْمٌ بَيْنَ شَكِّ وَبِقِينٍ ، يَا صَدِيقُ
وَأَطَالَ الْفِكْرَ فِي الْمَذْهَبِ وَالِدِينِ فَرِيقُ
أَنَا أَخْشَى أَنْ يُنَادَى ذَاتَ يَوْمٍ : أَنْ أَفِيقُوا
أَيُّهَا الْجَهْمَالُ ، لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ الطَّرِيقُ !

يَا لِأَسْرَى الْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ ، كَمْ أَضْوَاهُمُ النَّمِّ !
فِي هَوَى الْمَوْجُودِ وَالْمَعْدُومِ لَاقُوا أُمَّ قَشَمَ !
فَاطْلُبِ الْجَهْلَ وَعَاقِرِ بِنْتَ عَنُقُودٍ ، فَكَمْ كَمْ
عَالِمٍ صَارَ زَيْبِيًّا وَهُوَ لَمَّا يَتَحَضَّرَمُ !

هؤلاء المنفقون العمرَ في عقلٍ وفكرٍ
عبثاً — هيهات أن يحتلبوا ضرعاً ثوراً !
كان أولى لهم أن يرتدوا بزّة جهلٍ
فلعمرى ما يباع اليومَ كراتٌ بعقلٍ !

يا فتى من صولجان الدهر كالأكرّة يجرى
سراً شتالاً ويمينا ، ثم لا تنطق بأمرٍ
إن من ألقاك في المحنة من كرتٍ وفرّ
هو يدري ، وهو يدري ، وهو يدري ، وهو يدري !

إن قلبي أبداً لم يُحرمَ العلمَ لعمرى
وقليلٌ ما اختفى عني من مكنونٍ سرٍّ
بيد أنى اليوم في السبعين إذ راجتُ فكري
صرتُ أدري كيف أنى أبداً ما كنتُ أدري !

أطلبِ الجهلَ ، أذا العقل ، وعشْ في جدلِ
تسربِ الخمرَ من أيدي سُكارى الأزل !
أيها الجاهل ، ليس الجهلُ فناً لك مُلقَى
إن من لا يدرك الجهلَ هو الجاهل حقا !

٨

الموت فى الميدان

(فناء البقاء)

obeikandi.com

ذهبَ الأحبابُ طراً من خليلٍ وجليسِ
مذ تراموا تحت أقدام المنايا في الرموسِ
مجلسُ العمرِ سَقانا من شرابِ واحدِ
فإذا السَّكرةُ تعرُّو الصَّحبَ قبلِ بكوؤوسِ !

يا قبوراً صار أهلها صعيداً في الصعيدِ
وتجافوا ذرَّةً عن ذرَّةٍ تحت اللحدِ
أيِّ جامِ ذا الذي لم يفرغوا من شرِّبه
فإذا هم ذهلوا عن كلِّ شيءٍ في الوجودِ ؟

خبروني ، أين محصول مجيئي وذهابي ؟
وشيباك نسجت من خيط عمري ورغابي ؟
كم نحور ، وخصور ، وشعور للحسان
أحرق الدهر فصارت عدماً ، أين الدخان ؟

— ١٢١ — * ❁

أيها العين انظري الأجداث إن كنت ترين
وانظري الآفات في الدنيا ملآن الخافقين
كم رجال ضمت الأرض لو كآ ورعايا
ووجوه أكل النمل كأقمار اللجين

— ١٢٢ — * ❁

المولون القدامى والحديثون الجدد
ركضوا خلف الأمانى قليلاً أي ركض
إنه كون قديم ليس يبق لأحد
قد أتينا وسنمضي ، وسيأتي من سيمضي ا

فِي ذُرَى قَلَمَةِ طُوسٍ بَصُرْتُ عَيْنِي بِطَيْرِ
يَتْرَوِي قَحْفَ (كِيكَاروس) طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ
وَيَنَاجِيهِ حَزِينًا : لَهْفَ عَمْرِي ، لَهْفَ عَمْرِي
أَيْنَ أَجْرَاسٍ وَأَطْبَالٍ تَدْوِي ، لَيْتَ شِعْرِي ؟

يَا بَجْمَشِيدَ وَقَصْرِ كَانِ فِيهِ يَشْرَبُ
وَلَدْتُ فِيهِ ظَبَاءً ، وَأَسْتَكَنَّ الثُّعْلَبُ
يَا لَبْهَرَامَ الَّذِي كَانِ يَصِيدُ الْعَيْرَ عَمْرًا
أَرَأَيْتَ الْقَبْرَ كَيْفَ اصْطَادَهُ لَا يَرْهَبُ ؟

رَبِّ قَصْرِ زَحَمَ الْأَفْلَاكِ يَوْمًا مِنْكَ بَاهٍ
وَمَلِكِ عَفَّرَتْ حُرَّ النَّوَاصِي فِي ثَرَاهِ
وَقَعْتُ عَيْنِي عَلَى فَاخْتِيبَةِ فَوْقَ ذُرَاهِ
قَعَدْتُ تَنْدُبُ أَهْلِيهِ وَتَنْعَى مَنْ بَنَاهِ

إنما التدميرُ من حقدك يا هذا الفلك
والأذى والجورُ دأبٌ من قديمٍ كان لك !
أسفًا يا أرضُ ، لو يُفْتَحُ عن صدرك يومًا
فلكم من جواهرٍ فيه نفيسٍ قد سَلَكَ



أيها المفتون بالدينا ، ألا كفيف جواك
أفلا فكَّرتَ في صرْفِ الليالي إن دهاك ؟
بِدَكرِ آخرِ أنفاسك ، وأستجمع نَهْاك
وتأمل ما أفاعيل الليالي بسواك !



كان من قبلك في الدنيا رجال ونساء
زَيَّنوا الآفاق ، كالأنجم لاحوا وأضأوا
سوف يفسدو جسمك المختال طينًا ، فهو طينٌ
كان جسمًا لألوف الناس من قبلك جاؤا !

كان من قبلي ومن قبلك ليلٌ ونهارٌ
ونجومٌ زاهراتٌ في السموات تدارُ
فاعتبر وأمشِ على الأرض رويداً ، حين تمشي
إنما موطئٌ نعلتك لعينٌ أو عذارا

نحن إنا ارتحل الروحُ غداً عن جسدنا
ركزوا آجرتي طين براسي مرقدنا
فإذا هم طلبوا أجرًا لهد لسوانا
سكبوا الصلصال في القالب من حافرتنا

كم إلى كم يتصباك هوى لونٍ وريحٍ ؟
وإلى كم تفتني كلَّ جميلٍ وقبيحٍ ؟
إن تكن ماء حياة الخلد أو ينبوع زمزم
فستمضي غائراً في الأرض يوماً ، فكان لم ..

— ١٣٢ —

أفتدري ما يريد الديكُ فجراً بالصباحِ ؟
وهو لا ينفكُ يزقُّو في صرِيخٍ ونُوحِ ؟
هو يعني : عرضوا في لوحِ مرآةِ الصُّباحِ
أنَّ يوماً مات من عمرك إذ لستَ بصاحي ا

— ١٣٣ — *

كنتَ لا تحتاجُ يوماً وطعاماً ودَعَةً
قبل أن يحوجهنَّ الشركاءُ الأربعة
كلها يأخذُ ما أعطاك يوماً عن سَعَةٍ
فستغدو كالذي كنتَ متى ما أسترجعه ا

— ١٣٤ — *

ويح أرضِ قَطُّ لا تشبع من أكلِ الوَرَى !
وسماءِ قَطُّ لا تسمعُ أمراً للفتى
إنما غرَّكَ أنَّ الأرضَ لم تأكلْكَ ، فاصبرِ
لا تعجِّل ، ستوافيك ، فما فات المدي !

— ٢٢٤ —

— ١٣٥ —

إن من جاءوا وقاروا في شؤونٍ وشجونٍ
مستهامين بدلًا ، أو ببحرٍ منتشين
شربوا كأسًا فضجوا ، وتهاووا ذاهلين
ومم معتقون اليوم في نوم للنون !

— ١٣٦ —

إنتى ألقى على فرشِ الترابِ الناعمين
وأرى تحتَ طباقِ الأرضِ رطبا الخفيفين
كلما سرحتُ طرفي في مغازات المنون
بصرت عيني بمن لم يقدموا والراحلين !

— ١٣٧ —

طالما طُفنا رُبعمرانٍ وشاهدنا يبابا
وسلكنا في فجاجِ الأرضِ غورا وهضابا
لم نجد من عاد من هذا الطريق المتراعى
سكة من سار فيها لم يجد منها مآبا !

— ٢٢٥ —

ربّ طاسٍ جوّدوا الصنعة فيه ماهرين
حطّموه ورّموه في طريق الغابرين
فاحذروا لا تطأوه إن مشيتم ، سادرين
فلقد صاغوه من طاس رؤوس الغابرين ا

إنتى حطمتُ دنأ للحميا مؤهنا
ثملاً كنتُ فكان الفعلُ منى أرعنا
فسمتُ الدنّ يشكو قائلاً : يا ابنَ الفنا
إننا مثلك كفا ، وستغدو مثلنا ا

كان هذا الكوزُ مثلى ، عاشقاً جدّ كئيبِ
سحرته طرّةُ المحبوبِ بالحسنِ المعجيبِ
وتأمل عروةً في جيده مؤنفةً
فلقد كانت ذراعاً طوّقتُ جيدَ حبيبِ ا

ربِّ كوزٍ يشرب الماء به كلُّ أُجِيرٍ
صنعه من مآقي المَلِكِ أو قلب الوزيرِ
كلُّ جامٍ في يد الخُمور قد صاغوه من
عارضِي سكرانٍ أو ثغرِ حَصَّانٍ في الخدورِ

إنِّي أبتعتُ من الكوَّازِ كوزاً ذاتَ مرَّةٍ
فحكى لي الكوزُ ما لاقى ، وأفشى لي مرَّةٍ
قال : إنِّي كنتُ سلطاناً من المسجدِ جامي
وغدوتُ الآن للخَمَّارِ يا ويلي جرَّةُ !

نابني في معمل الكوَّازِ فكرُ في الأمورِ
ههنا الأستاذُ يجثو عند دولا ب يدورِ
منشئاً للكوزِ رأساً ويدا — يا للجسورِ
من محيّا ملكٍ أو كفتٍ شحاذٍ قسبرِ !

أَنْظِرِ الْكُوَازَ فِي مَعْمَلِهِ عَنِ كَتَبِ
مَبْدَعًا مِنْ طِينِهِ كُلِّ طَرِيفٍ مُعْجِبِ
كَلِمَا أَبْصَرْتُ كُوَزًا — وَإِنْ كَانَ الْعَبِي
لَا يَرِي شَيْئًا — أَرِي فِي كَفِّهِ طِينَ أَبِي أ

لَا ح لِي فِي مَصْنَعِ الْخَزَافِ إِذْ جِئْتُ أَرَاهُ
أَلْفُ كُوَزٍ ، نَاطِقِي أَوْ صَامِتِ أَطْبِقِ فَاهُ
سَأَلْتَنِي إِذْ رَأَيْتَنِي بِلِسَانِ الْحَالِ : مَنْ
بَايَعُ الْكُوَزَ ، وَشَارِيهِ ، وَكُوَازُ بَرَاهُ ؟

وَلَقَدْ شَاهَدْتُ خَزَافًا دَوُّوبًا لَا يَبِينِي
إِرْكَلُ الطَّيْنِ عَلَى الدَّكَّةِ كَالْمَتْنِ أ
وَإِذَا بِالطَّيْنِ يَشْكُو بُلْغَاءُ قَائِلًا :
كَنتُ يَوْمًا مِثْلَكَ الْيَوْمَ ، فَأَسْجِجْ وَأَرْعِنِي !

سُتُّتُ فِي بَعْضِ الْمَبَانِي رَجُلًا فَرْدًا حَقًّا —
يُرَكَّلُ الطِّينَ بِرَجْلَيْهِ — امْتِهَانًا وَغُرُورًا
فَسَمِعْتُ الطِّينَ نَادِي بِلِسَانِ الْحَالِ : مَهْلًا
أَنْتِ أَيْضًا سَتَقَاسِي مِثْلِي الرُّكْلَ كَثِيرًا !

أَيُّهَا السُّكُورُ ، أَمْسِكِي وَأَرْتَدِيغِي إِنْ كُنْتِ تَنْهَمِي
كَمْ إِلَى كَمْ تَزْدِرِي طِينَ الْوَرَى لَا تَتَأَمَّمِي ؟
أَنْتِ فِي الدُّوَلَابِ تُتَلَقِي كَفًّا كَيْخَسِرُوا الْعَظْمَ !
وَأَسَارِيرَ فَرِيدُونَ ، فَإِذَا تَتَوَهَّمِي ؟

وَيْحَ خَزَافِينَ بِالطِّينِ لَمْ حِذَقُوا مَبِينِ
فَلْيَطِيلُوا الْفِكْرَ فِيهِ ، عَلَّاهُمْ يَدُّ كُرُونِ
كَمْ أَهَانُوهُ بِصَفْعِ وَبَلَاكُمِ غَافِلِينَ
إِنَّهُ تَرَبُّهُ أَجْسَادِ ، فَإِذَا يَحْسَبُونَ ؟

قِفْ تَأْمَلْ فِي تَرَابٍ تَحْتَ رِجْلِ الْحَيَوَانِ
كَانَ أَطْرَافَ الْأَحْبَاءِ وَأَعْطَافَ الْغَوَانِ
كَلِّ أَجْرَةَ طِينٍ فِي ذُرَى هَذِي الْقُصُورِ
لَهِيَ كَفٌّ لِمَلِكٍ ، أَوْ جِبِينٌ لَوْزِيرِ

صَاحٍ مَا مِنْ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَرْقٍ وَعَرَبِ
لَمْ تَكُنْ طَلْعَةً مَحْبُوبَةً سَبَّتْ مَهْجَةً صَبًّا !
فَتَرَفَّقَ بِالذَّرَى تَنْفِضُهُ عَنْ خَدِّ حَبِّ
فَهُوَ أَيْضًا كَانَ خَدًّا لِحَبِيبٍ كَانَ يَسِيًّا !

يَا زَهْرٍ مُنَوِّقٍ رَفًّا عَلَى شِطْءِ الْغَدِيرِ
أَتَرَاهُ قَدْ نَمَى فَوْقَ خُدُودِ وَتُغُورِ ؟
فَتَبَيَّقَ ، لَا تَطَّأُهُ بِأَحْتِقَارٍ وَغُرُورِ
فَلَقَدْ أَيْنَعَ مِنْ تَرَبَّةٍ وَجْهَهُ كَالزُّهُورِ

كلما شاهدت في البطحاء أزهار الشقائق
فذكر أنها قد نبتت من دم عاشق !
وتأمل هذه الزهرة من هذا البنفسج
فهي خال كالف في خد مليح يتوهج !

أنظر الوردة فكت جنبها ربح الصبا
فانتشى البلبل وجداً ، وتغنى طرباً
إجلس الآن إلى الورد ، فكم من مرة
خرج الورد من الأرض وفيها احتجبا !

وردة قصت حديثاً للصبا وانقضت
نصت الثوب صباحاً ، ثم مالت فقضت !
يالفدر الدهر ، في عشرة أيام قصار
برعماً صارت ، فصارت وردة ، ثم مضت !

تَبَّتِ الأَفلاكُ ، لم تُخْرِجْ من الأَرْضين زهره
سِرَّةً إلا ووارثها الثرى ثاني مره !
لو أَقَلَّتْ بَدَلَ الماءِ الثَّرى تلك الغمامه
أمطرت من دمِ أَحبابٍ إلى يومِ القِيامه !

كم ستبقى بعدنا في الدنيا ونبلى في اللحد
حين يعفو الرسمُ والأسماءُ منا والعهودُ
لم نكن قبلُ فما كان اختلالُ في الدنى
وسنمضى وسيتقى كالذي كان الوجودُ !

قد حللنا معضلاتِ الكونِ طرًا لِلليلِ
من حضيضِ الأرضِ تاللهِ إلى أوجِ زحلِ
ووثبنا من أحابيلِ خداعِ وحييلِ
ففضحنا كلَّ سرٍّ . . ما عدا سرَّ الأجلِ !

٩

فشل الثورة

(مأسى الحياة)

obeikandi.com

غَبِرْتُ دُنْيَا شَبَابِي ، وَأَنْطَوْتُ طَيِّبَ الْكِتَابِ
فَبَدَّلْتُ شِتَاءَ مِنْ ربيعٍ مُسْتَطَابِ
وَبِح طَيْرِ غَرْدِ كَان يُسَمَّى بِالشَّبَابِ
لَا أَرَى كَيْفَ آتَى أَوْ كَيْفَ وُلَّى ، يَا سَحَابِي !

حَنَّتِ الْأَيَّامُ عَوْدِي ، وَرَمَتْنِي مِنْ عِلَاءِ
وَتَرَدَّتْ بِي أُمُورِي ، وَمَضَى عَنِّي مَضَائِي !
قَلْتُ لِمَا أَوْعَى الرُّوحُ رَحِيلًا : قَدْ تَوَلَّى !
قَالَ : إِنْ الدَّارُ تَنْهَارُ ، فَكُلْ لِي مَا بَقِيَ ؟

ويح عمرى ، كله إخفاقٌ سعيٍ وضجرٌ
أبدًا ينقصُ فيه الصَّفوفُ أو يربو الكدرا
أحمدُ الله ، فما من محنةٍ أحوجني
قطُّ أن أطلبها من أحدٍ بين البشرِ ا

يا لمن أعطى ضحكك الشَّعيرَ للقيدِ الوضءِ
كيف أعطى دامي القلبَ لرهطِ التمساءِ
فإذا لم يؤتتنا البهجة لم نأمنَ عليها
قد حباننا ألفَ مأساةٍ ، فأكثرُ بالعطاء !

هو عيشٌ يتولَّى بعضه إنى إثرَ بعضٍ
فتأملُ كيف يمضى العمرُ بالحزنِ الممضُ !
إننى لم أعرفِ النبطةَ والراحةَ عمري
فسلامٌ حياةٍ هكذا تأتي وتمضى !

— ١٦٤ —

قد تولتَ سَمَكاً من شَبَكِ آمالِ عَمري
ومضى العيشُ كما تمضى سُدَى ليلَةٍ سكر!
وحياةٍ لحظةٌ منها تُساوي كلَّ دهرٍ
كيف ضاعت من يدي في غير شيء، يا لَخُسرِي!

— ١٦٥ —

يا خليلي، تعبنا عبثاً حتى بَدِيننا
ورمانا منجساً لُ الدهرِ شمالاً ويمينا
لهف نفسي، لهف نفسي، لم نكد نفتح عيننا
في حياةٍ لم تكن وفق للنبي حتى قَنِينا!

— ١٦٦ —

كالعصافير وقعنا في أحاييس الزمانِ
متعبى القلبِ، حيارى بين أيدي الحَدَثَانِ
حولنا دائرةٌ لا بابَ أو سطحَ لها
لم نجئ فيها ولم نذهب وفاقاً للأمانِ!

إن هذا الدهر لا يجرى كما نرجو ونهوى
فمن التفكير والسعي نُرَجِّى أَيَّ جدوى ؟
قد قعدنا أبدأ في حشرات آسفين
أنا جئنا بطاء وسنمضى مسرعين

لست تدري لم صار السرور والسوسنُ سيره
أبدأ تمضغها الأفواه في كل عشيره
فهذا ألسنُ عشرون ، لكن صامتاتُ
ولذا ألفُ يدي ممدودة ، لكن قصيره !

لُعبٌ نحن بأيدي الفلك اللاعب نجري
ليس هذا بمجازٍ ، بل هو الحقُّ لعمرى
ولعبنا برهةً في مسرح الدهر الخضمِّ
واختفينَا كلُّنا في جرف صندوق العدم !

أيت للراحة مثنوى يُبْتَنَى ، أو مستَقَرًّا
أو لهذا الدُّرْب من آخِرَةٍ تُرْجَى وتُدْرَى
ثم ليت المرء من بعد دهور داهراتِ
يُرْتَجَى كالعشب أن يثبت فوق الأرض أخرى !

إنها كالطَّاس مقلوباً هوت هذى السماء
تحتها خراً ذَوُو الأفهام ، صرعى تضاء
أنظروا للحبِّ بين الدنِّ والكَاس ، أنظروا
لشفاهٍ تتلاقى ، بينها تجرى الدماء !

يا قلبي المستهام المتداعي الخاسرِ
ما سما للمسكين من عشق الحبيب الساحرِ
منذ أعطوني شرابَ العشق يوماً يسدى
مرزجوا كأسِي مرزجاً بدماء الكبدِ !

وحبيبٍ بالتجاني لوعَّ القلبَ العليلاً
ذاقَ مثلي في مكانٍ آخرَ الحزنَ الطويلاً !
أنا مالي أطلب البرءَ لنفسي في الهوى
وطيبي بات مثلي يشتكى الداءَ الوبيلاً !

— ١٧٤ —

آه .. لا يبلغُ وردَ الخدِّ صبّاً في جهادِهِ
دون أن يبلغ شوكُ الدهرِ سوداءَ فؤادِهِ
أنظر المشط ، لقد شقَّ له سبعون ضلعاً
قبل أن يظفر من فرقٍ مليحٍ بمراحِهِ !

— ١٧٥ —

يا فؤادي ، لا ترُمِّ عارفةً عند الزمانِ
لا ترُمِّ منه ثراءً أو علاءٍ في مكانِ
إن تطلبت دواءً زدتَ في دائك داءَ
فارضَ بالداءِ ولا تطلب من الدهرِ شفاءَ

— ١٧٦ — * ❁

صاح مهما زينوا الكون ومهما زخرفوا
لك - فاصدِفْ عنه ، فالعاقل عنه يصدِفُ
كم نظيرِ لك يمضي ونظيرِ لك يأتى
فاختطف حظك منه قبلما تُختطف ا

— ١٧٧ — ❁

يا صديقي ، كم طوافُ الأرض أو طيُّ البلادِ ؟
تبوخى حاجةَ الجسم وأطباع الفؤادِ ؟
سـنـوئـى مثل من ولّوا ، ويأتى من يوئى
دون أن يحظى ابنُ أنثى فى حياةٍ بالمـراد

— ١٧٨ — * ❁

إن تكن طالت هموى وأستبدت بي حقه
وتولتكَ المـسراتُ فما فانتك رغبه
فذرِ الحالين ، لا تركزنِ إلى أيهما
إن هذا الدهرَ خلفَ السـترِ يُخفى ألفَ لعبه ا

— ٢٤١ —

إنما تَطْعَمُ من مطبخ دنيـسك الدخَانَ
فإلى كم هم ما لم يك في الدهر وكانا؟
هذه الديننا على أبنائها خسر جسام
فاترك الخسر يكن حظك ربنا وأمانا!

إستمع نصحي يا صفوة صبي القسـماء
لا تضق ذرعاً بكونٍ دون سـفلى وعلاء
إتخذ زاويةً تقبع فيها قانماً
وأشهدن العوبة الأفلاك في هذا الفناء!

السَّعيدُ الحقُّ من لم يك معروفَ المكانِ
لم يصِرْ في فوطية ، أو جُبَّية ، أو طيلسانِ
فهو كالمنقاء ، قد طارَ عن الدَّارينِ طـراً
لم يكن مثلي يوماً بين أطلال الزمان!

لم نُصِبْ إِلَّا عَنَاءً وَبِئْسَ لَنَا مَضْرَبَةٌ
فِي زَمَانٍ قَدْ نَزَلْنَا فِي مَكَانٍ مِنْهُ مَرَّةٌ
وَقَضَيْنَا الْعَمْرَ مَا أَنْحَلَّتْ لَنَا مَشْكَلَةٌ
فَتَوَلَّيْنَا فِي الْأَنْفُسِ مِنْهَا أَلْفُ حَسْرَةٍ !

هَذِهِ الْأَفْلَاكُ لَمْ تَجْرِي عَلَى مَرْجُوٍّ حُرٍّ
فَافْتَرَضْهَا سَبْعَةً أَوْ تِسْعَةً إِنْ شِئْتَ تَجْرِي !
وَالْفَتَى يَفْنَى وَيَفْنَى مَا تَمَنَّى ، فَسَوِّأَ
مَنْ غَدَا النَّمْلُ بِقَبْرِ ، أَوْ غَدَا الذِّئْبُ بِقَعْرِ !

سَأَلْتُ (١) الْبَطَّةَ فَوْقَ النَّارِ يَوْمًا سَمَكَةً :
أَبْعُودُ الْمَاءَ فِي الْوَادِي ، وَيَجْرِي مَسَلَكَهُ ؟
فَأَجَابَتْ : إِنَّنَا مُتْنَا وَأَصْبَحْنَا كِبَابَا
فَلْتَكُنْ مِنْ بَعْدِنَا الْأَرْضُونَ بِحَرًّا أَوْ سَرَابَا !

(١) أَى سَأَلْتُ . وَكَثِيرًا مَا وَرَدَتْ هَكَذَا فِي شِعْرِ الْعَرَبِ .

قالت الوردةُ : إني يوسفُ الرّوضِ الحبيبِ
وفى المملوكِ بالعسجدِ يا قوتُ مذهبِ !
قلتُ : هاتى حجّةً إن كنتِ حقاً يوسفاً
قالت أنظر لقميصى بدمٍ كيف تخضبُ !؟



قالت الوردةُ : لا حسنَ إلى حسنى تسمى
فسلامَ الضيمُ من عاصر مائى ، وإلما ؟
فأجاب البلبلُ الشادى شجياً مستهما :
آه ، مَنْ يضحكُ يوماً ثم لا يُجهشُ عاماً ؟

كنتُ أسى أسمى فى إثرِ الحميا والحبيبِ
فبذت لي وردةً ذارياً قرب لبيبِ
قلتُ : ما أجزمتِ كى يُضلوكِ ناراً ، يا جيله ؟
فأجابتنى : تبسّمتُ قليلاً فى الخليله !

أين من يحفظُ سرّاً فأنبئيه لغيره
ما الذي سرّاً على آدم من أول أمره ؟
مُبْتَلَى ، صُورَ من طينة غمٍّ ووجَلْ
جال في الدنيا شريداً — برهة ثم أرتحل !

إنما الأفسلاكُ من أعمارنا الرثة لمحّة
إنما جيحونُ من مدمعنا المخضوبِ سفحة
وجحيمُ النار من حرّ الأبي الباطلِ قدحه
ونعيمُ الخلد من راحتنا في العيش نفعه

أجدُ العالمَ غمّاً دائماً ، والدمرَ غولاً !
وأرى الأفسلاك آفاتٍ وظلماً وكبولاً
كلما فكرتُ في الدنيا أرى المراتح فيها
ليس موجوداً ، فإن كان فقد كان قليلاً

— ١٩١ —

هذه الأفلاك لا تفدقُ إلا الكمد
أعطتِ اليومَ لكي تسلب ما أعطت - غداً !
لو درى من لم يجيئوا بعدُ دينا سدى
ما تقاسى من بلاء لم يجيئوا أبداً !

— ١٩٢ —

إن يكن حقاً عمائى ، فأجبنى ما حياتى ؟
ولمَ الأطماع والأوهام فى دار الشتات ؟
منزلٌ لا يُترَكُ النازلُ فيه وادعاً
لمَ يرضى فيه أن يبقى ويهتم لآتى ؟

— ١٩٣ —

آه ، لو كان يجيئ بيدي ما كنتُ جئتُ
آه ، لو كان ذهابى باختيارى ما ذهبتُ !
كان خيراً لى فى دار الفنا لو أتى
لم أكن جئتُ ، ولا عدتُ ، ولا كنتُ أقت !

— ١٩٤ — ❖

لم أكن يوماً طليقاً قطُّ من أصفاد دهرى
لا ولا ذقتُ هنا لحظةً من كلِّ عمرى ا
قد تلمسْتُ على الدهر طويلاً ، غير أنى
لم أصِرُّ بعدُ بعلم الكون أستاذاً لعمرى ا

— ١٩٥ —

كلما باعدتُ نفسى زدتُ من نفسى دُنُوءاً ا
وأرانى أتدلىُّ كلما رمتُ عُلوّاً ا
يا لها خسر وجودٍ أحسبها ، بيد أنى
كلما أزددتُ بها سكرأً أرانى أزددت صحوا ا

❖ — ١٩٦ —

نحن منا تنبع البهجة والحزن ، وفينا
نحن أصل العدل والجور ، أبينا أم رضينا
قد سمّونا وأخطأنا ، وكلنا ونقصنا
إننا جامٌّ تألفنا ، ومرآة صَدِينا ا

— ٢٤٧ —

— ١٩٧ —

نحن أطهاراً أتينا ، فاكسينا وضرنا
مستريحى البال كنا ، فامتلائنا كدرا
وجريئنا من لهيب القاب فى ماء المآقى
وطرحنا العمر فى الريح ، وصرنا فى الثرى ..

— ١٩٨ —

قد نزلنا هذه الدار بقاء مذبذبنا
وانحططنا عن على الإنسان فيها ، وذللتنا
وحياة زودتنا غير ما كنا أملنا
ليتها كانت تولت ، فلعمري قد مللتنا

— ١٩٩ —

إننى فى الفلك الدائر مكروب جنانى
ناقم النفس على خسة طبعى ، وهوانى
لم يصير لى علمى أن أفقه أسرار الزمان
أو يصل حزيمى أن أفرغ من دنيا الأمانى .

— ٢٤٨ —

خَاطَ لِلْحِكْمَةِ خِيَامٌ خِيَامًا وَأَرْحَمَلِ
مَذْهُوِي الْمَسْكِينِ فِي أَتُونِ حَزْنٍ ، وَاشْتَعَلَ !
قَطَعَتْ أَطْنَابَ دَنِيَاهِ مَقَارِيضُ الْأَجْلِ
وَرَخِيصًا بَاعَهُ فِي السُّوقِ دَلَالُ الْأَمْلِ !

أَلَمَتِ الْأَفْلَاكُ يَا خِيَامُ فِي بَرِّ الْأَرْضِ
خِيَمَةً كَبِيرَى ، وَسَدَّتْ بَابَ قَوْلٍ وَجَدَلِ
وَلَقَدْ أَحْدَثَ سَاقِي الدَّهْرِ فِي جَامِ الْقَضَا
أَلْفَ خِيَامٍ لِعَمْرَى ، كَالْحَبَابِ الْمَرْجَلِ !

قَدْ تَرَحَّلْنَا ، فَمَا فِي جُورِ هَذَا الْمَنْزِلِ
غَيْرِ قَبْضِ الرِّيحِ مِنْ مَسْتَقْبَلِ أَوْ أَمَلِ
فَاكْرُوا مَوْتِي لَا بِالْحَزَنِ ، بَلْ بِالْجَمَلِ
فَقَدْ أَسْطَعْتُ خِلَاصًا مِنْ عَوَادِي الْأَجْلِ !

obeikandi.com

١٠
فرار الشاعر
(عدم الوجود)

obeikandi.com

— ٢٠٣ —

دع شرابَ العيش يصفو تارةً أو يتعكّر
ولتكن كسوتنا الطّمْرَ أو البُرْدَ الحَبْرَ
كلُّ هذا عند ذى النّية جهلٌ وهراء
أفهلٌ حادث الموت لدى عقلٍ تدبّر؟

— ٢٠٤ —

يا أخا العقل ، حديثُ الغد أو هامٌ فظيره
والتباهى بالأقاويل أدّعات غريره
يعلم اليومَ لعمري كلُّ دارٍ ذى بصيره
أن هذا الكون طرّاً .. لحظةً الحلال القصيره !

— ٢٥٣ —

قد لزمنا في صبانا مجلسَ الأستاذ حيناً
ودُعِينَا بعدُ أستاذاً قفزنا ورضينا
فاستمع آخرةَ الأمرِ إلى أين انتهينا :
من ترى الأرضَ خرجنا ، ومع الريح مضينا ..

دعك مما تطلبُ الأفراحَ ، فالعمرُ قصيرُ
والثرى أشلاء جشيدٌ وبهرامَ الجسورُ
إنما أحوالُ هذا العيشِ في دارِ الفناء
لنمامٌ ، وخيالٌ ، وخداعٌ ، وغرورُ

أنت لا تهلك إلا مرةً ، يا ابن الفناء
وبيك فاهلك مرةً وأرتحُ ، فما هذا الشقاء ؟
إنها حنفة أنجاسٍ وجلدٍ ودماءٍ
فافترضها لم تكن قط ، ودع عنك البكاء !

— ٢٠٨ —

إن ملكت الصين والروم ، وسخرت العبابا
وحكمت الأرض طرأ ، وتبوات السحابا
فتيقن أن حظينا من الدنيا أخيراً
عشرة أذرع بـزٍ ، وذراعان ترابا ..

— ٢٠٩ —

يا فؤادي ، هنيك حققت الذي رجيت كله
فازدهى روضُ مسراتك في أبهج حله
فكأنى بك ظلٌّ ظلت فوق الزهر ليله
وتبخرت صباحاً ، فكان لم تك وهله

— ٢١٠ —

إفرض الدهر بما تأمر عراً ثم ماذا ؟
وافترض أن قد قرأت الكون سِفرًا ثم ماذا ؟
هنيك قد عشت سعيد القلب عصراً ثم ماذا ؟
ثم بعد العصر عصراً ، أو فدهراً ثم ماذا ؟

— ٢٥٥ —

— ٢١١ —

إن تَعِشْ قَرِينِ أَوْ أَلْفِينِ فِي دَارِ الْفَنَاءِ
فَسُتَلْقَى خَارِجَ الْمَنْزِلِ ، مِنْ غَيْرِ مَرَاءِ
وَلتَكُنْ شَحَّاذَ سَوَاقٍ ، أَوْ أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ
فَكُلَا سَعْرَيْهِمَا فِي آخِرِ الْأَمْرِ سَوَاءٌ !

* — ٢١٢ —

يَا صَدِيقِي ، كُلُّ مَعْدُومٍ هَبَاءٌ فِي هَوَاءِ
كُلُّ مَوْجُودٍ بِهِ نَقْصٌ وَسُرٌّ لِلْعَفَاءِ
فَهَبِ الْمَعْدُومَ مَوْجُوداً وَدَعِ عَنكَ الْأَسَى
وَهَبِ الْمَوْجُودَ مَعْدُوماً وَدَعِ عَنكَ الْعِنَاءِ

— ٢١٣ —

إن من فِكْرٍ فِي الدُّنْيَا ابْتِداءً وَانْتِهَاءً
وَجَدِ الْأَفْرَاحَ وَالْأَتْرَاحَ فِي الدُّنْيَا سَوَاءً
وَمَصِيرُ الطَّيِّبِ وَالخَبِيثِ إِذَا كَانَ الْفَنَاءُ
خَلَّتْكَ إِنْ شِئْتَ دَاءُ كُلِّهَا ، أَوْ فِدْوَاءُ !

— ٢٥٦ —

— ٢١٤ —

يَسْتَوِي حَسَنٌ وَقَبِيحٌ فِي عَيُونِ الْبَاحِثِينَ
وَجَجِيمٌ وَنَعِيمٌ فِي مِثَالِ الْعَاشِقِينَ
وَحَرِيرٌ وَبَلَّاسٌ كِسْوَةٌ لِلْبَاسِئِينَ
وَوَسَادٌ وَحِجَارٌ لِرُؤُوسِ الْيَاسِئِينَ

— ٢١٥ —

أَنْتِ إِنْ عَشْتِ سَعِيداً بِالْحَيَا وَالْحَيَا
وَتَمَّتْ بِأَقْصَى لَذَّةٍ، مَا دَمْتَ حَيَا
فَتَمْتَضِي آخِرَ الْأَمْرِ إِلَى دُنْيَا فَنَاءٍ
فَإِذَا كُلُّ الَّذِي شَاهَدْتَ فِي دُنْيَاكَ رُؤْيَا

— ٢١٦ —

عَبْتُ رُؤْيَاكَ الدُّنْيَا .. فَهَوَّنَ مَا رَأَيْتِ
عَبْتُ مَا قَلْتَ أَوْ أَسْمِعْتَ ، مِنْ كَيْتٍ وَكَيْتٍ !
عَبْتُ رِكَضَكَ فِي الْآفَاقِ فَأَرْبَعٌ ، وَلِعَمْرِي
عَبْتُ سَعْيَكَ فِي الْبَيْتِ دَيْبِيَا ، لَوْ دَرَيْتِ !

— ٢٥٧ —

باطلٌ جسمك هذا ، أي هذا الفاعل
باطلٌ هذا السَّكُّ الذهبيُّ الحافل
وأمرنا برهةً في دار كوني وفسادِ
فاطرح الممَّ ، فهذا هو أيضاً باطلٌ !

۱۱

فی المنسفی

obeikandi.com

❖ - ٢١٨ -

إسقني الجـريالَ شقراءَ بلون الأرجوانِ
أيها الساقى فإني ضاق بالهمّ جناني
إسقنيها تسلب العقلَ ولو بعض أوان
علني أذهل عن نفسي وأحداث الزمان !

❖ - ٢١٩ -

جئتُ لكن لم أجيءُ عن رغبتي أو طلبي
وسأمضى لا بتـديري ولا عن أربي !
أيها الساقى فشمر ، وتقدّم بالطلا
فلنظهر شجن الدنيا بماء العنب !

قم وجنتي بدواء يبرى القلب المعنى
جى بتلك الراح ، كالمسك شذا والورد لونا
كما رمت دواء مفرحاً يُفرج عنا
فياقوت الحميا وحرير العسود جئنا^(١)

إشرب الراح ، وفرح قلبك الجمّ الشجون
ثم أقلل ذكر ما كان وما سوف يكون
إنما عارية النفس لكالغاني السجين
فأرخها من عقال العقل حيناً بعد حين !

إنتى اليوم - وهذا هو إبان شبابى
أحتسى الراح ، فإن الراح أنسى ورغابى
لا تعبها . . مرةً لكنها طيبة
مرةً حقاً ، ولكن كحياتى يا صحابى !

(١) كان الباقوت والحرير جديان من الأجزاء المفرحة في الطب القديم .

حبذا الخمرة كالورد على ورد الخيلة
فاسقني من دم هذا الجام ، وأسفك سلسيله
ويح نفسي ، ليس لي في هذه الدنيا جميعاً
خارج الجام صديقٌ طيبٌ صافي الدخيلة !

آه ، لم يبق سوى أسمٍ من هنا وددٍ
أو سلافٍ غرّةٍ من صاحبٍ ذي رشيدٍ !
صاح لا تقيض يداً عن كأس هذي الصرخدِ
إنه لم يبق غير الكأس شيءٌ باليد . .

اسقني من ذلك الياقوت في الجام الأغرُّ
من أليفٍ مؤنسٍ كلِّ كريم النفس حُرُّ
أنت تدري أن دنيا الأرض ليس غير ربح
فاسقني الصهباء كي تسرع كالريح وتجرى !

إشربِ الجريالَ ما ساعفَ دهرٌ ، وأطربنا
وأذكِرْ أن لن يعودَ العمرُ إنا ذهابنا
أنت تدري أن عقي هذه الدنيا خرابنا
فكُ دوماً بالحميتنا أنت أيضاً خرابنا !

فليكُ الصبُّ معني القلب ، موصولَ الجنونِ
وأتمَّ السكره ، منضوحاً ، على مرَّ السنين !
إننا في الصَّحْوِ نلتقى كلَّ شيءٍ ترحين
فإذا نحن ثملنا . . فليكن ما قد يكون !

إحتسِ الصهباءَ وأعلم أنها راحةٌ روحك
وشفاءٌ لمآسيك ، وطبُّ لجروحك
كلما اجتاحت طوفانُ الأسي من كلِّ صوب
فتملِّق بالحميتنا ، فالحميتنا فلكُ نوحك !

لستُ أحسو الخمر من أجل نشاطٍ أو طَرَبٍ
أو خروجٍ عن طريق الدين أو حدَّ الأدبِ
غير أنى أشتهى الغفلة عن نفسى قليلاً
إننى من أجل هذا أحتسى بنت العنب !

يا ندى ، حين أحمو يفتونى كلُّ بشرٍ
وإذا أسكرُ يخبو النورُ فى مشكاة فكرى
إن بين الصَّحوِ والسُّكرِ لحالاً ومَظاناً
أنا أهواها لعمرى ، فى العيش لعمرى !

إن شربتَ الراح فاشربها مع الواعى الذكى
أو مع الدمية ذات الخدِّ كالورد الجنى
ثم لا تُكثِرْ ، ولا تُدَمِّنْ ، ولا تشفَّ جهراً
بل أصب منها قليلاً ، ثم غيباً ، ثم سراً !

— ٢٣٢ —

يمرق العمرُ من الأيدي مروقَ الزُّبُقِ
فاسكب الجِريالَ ياساقِي ، وأطفيءِ حُرْقِي
هذه نارُ شَبَابِ المرءِ ليست غيرَ ماءٍ
وأرى اليقظةَ ليست غيرَ نومٍ مطبوقِ !

— ٢٣٣ —

أنا مالي أجمع الغمَّ لفقري أو ثرائي ؟
ولهذا العيش يمضي في شقاءٍ أو هناءٍ ؟
أعطني الكاسَ دهاقاً ، لست أدري أمأحي
نفساً آخرَ أم في نفسي هذا أنقضائي !

— ٢٦٦ —

إن تقضى العمر يا صاحِ أَسْتوى حلوةً ومرُّهُ
وإذا ما طَفَحَ الكاسُ أَسْتوى مصرٌ ومصرُ
أشرب الراح ، فكم بدرٍ سبتلوه محاقُ
حين نفنى ، ومحاقٍ دامسٍ يتلوه بدرُ

— ٢٣٥ —

ومدارٍ ليس يبدو منه غورٌ أو قرارُ
أرتشف فيه الطلا ، فهو على الجور يدَارُ !
وإذا ما جاءك الدَّورُ فلا تجزع بحالٍ
فهو جامٌ كلُّهم ينهلُ منه بالتوالى

— ٢٣٦ —

فم فشمَّرْ واطَّرِحْ هَمَّ الحياةِ الفانيه
واقضِها باللَّهْ وأسعدْ بالأمانى العالیه
لوغَدَا في خُلُقِ الدنيا وقلا لقرینُ
لم یجیْ دَوْرُكَ فیها بعد دور الآخرینِ !

أيها الغارس دَوْحَ الحزن في القلب ليشقى
أُتْلُ آياتِ الهنا ، وأحبي رخيّ البال طلقا
إشرب الراح واخلّ القلبَ ينعمَ بالأمانى
فمن المعلوم كم في هذه الدنيا ————— سبق

كم تقضى العمر بالأثرة لا يثنيك تصدُّ؟
متعَبًا ، في أثر الموجود والمفقود تعدو؟
إشرب الراح ، فإنَّ العمر يتلوه الحِمَامُ
نظايقُ أن تقضُّ ————— بسكرٍ أو منام

إنهب اللذاتِ نهبا من قطوفِ دانيه —————
فسيأتى يوم تغشى كلَّ حيٍّ غاشيه —————
أكرع الترقف ، لا تجمرع هموم الفانيه —————
وذريّ الهمَّ لمن يؤتني حياةً باقيه ١

ليست الدنيا مقاماً لك أودار مثاب
فليب من غدا فيها خراباً بالشراب
صب من ماء ابنة الكرم على نار الأسي
قبل أن تلتقى ، وفي كفك ريح ، في التراب

زرع الدهر كثيراً مثلنا واحتصدا
فالأسي الباطل لا ينفع منا أحدا
صُب لي الراح وضعها في يدي ، يا ذا المغاتين
أنشفت قدحاً آخر ، فالكائن كائن

عسس الليل ، فقم بالله يا كنز الدلال
إحتس الراح وناغ العود ، حالاً بعد حال
فالمقيمون مقيمون إلى غير مطال
والذين ارتحلوا لن يرجعوا بعد أرتحال

دع فراش النوم ، وانهض نرتشف بنت الدنان
قبل أن نجمع كأس العرّ من كفّ الزمان
إني هذا الفلك العابس لن يماننا
برهة نشرب فيها الماء يوماً في أمان!

ذر هموم الغد يا صاح ، وصبّحنا بجام
واغنم اليوم قصير العيش ، واظفر بالمرام
فعداً إما برحناً مرةً ديزر الفنا
نتساوى مع من قد رحلوا مذ ألف عام!

هذه الأفلاك ترمى لماتى ومماتك
ولها نيةٌ سوء في حياتى وحياتك !
فارتشف جاماً على الأزهار فى نضرتها
فقريباً تزدهى فوق رفاتى وورفاتك !

خذ كهذا السوسن الغضُّ بيناك القسح
ومع الحسناء فاشربها ، إذا الحظُّ سمح
إن هذا الفلك الأزرق طالعٍ إن جمع
وعدًا — ألقاك أرضاً كالتراب المطرَح !

فلكُ النعمية ما باح بسرِّ لأحد
قد قضى ألفَ مليونك ، ونجنى وأستبد
فاحمها ، لن يهبوا عمراً جديداً لأمريء
كلُّ من غادر هذى الدار يوماً لم يعد

لا تـمـاند قطُّ هذا الفلك المستهترا
وارتشفها ما قطنت العالمَ المشـتـجراً
أنت في الأول والتالى ثرى يا صاحبي
فافترض تحت الثرى نفسك ، لا فوق الثرى !

عش سعيداً وأطرح همَّ الزمان الفاسدِ
وكنَّ العادل في هذا الطريقِ الجائرِ
آخرُ الدنيا فناءً ، فافترض أنك فانٍ
وأحيى في دنياك حراً مستريح الخاطرِ

كم تعاني من تصاريف الزمان الدائرة؟
ترحاً ، قلبك دامٍ ، والآق فائره؟
إثرب الصبية وافرح ، وانغم اللذات وامرح
قبل أن تُلَقَّ غداً خارج هذى الدائرة!

مَنْ مِنَ العادين في هذا الطريقِ المستطيلِ
عادَ كي أسأله عن بعض ما يشفي غليلي؟
إحترس ، في مفرق الرغبة والحاجة هذا^(١)
لا تدع شيئاً ، فما من رجعة بعد الرحيل

(١) للفرق بفتح الراء وكسرها : الوضع الذي ينشعب منه الطريق .

شَقَّ نَورُ البدرِ جِليابَ الدِّياجي حينَ لاح
فهو آنَّ لا تُرَدُّ أَطيبَ منه أن يُتَاح
لا تفكر ، واشرب الراح .. فهذا قرء
كم سيدو فيرانا هجماً تحت الصفاح !

لم يُصِبْ من غدهِ في الدهرِ إنسانٌ ضمنا
فاغم الآن ، وأسدِّ قلبك التواقِ آنا
إحتسِ الصبباءِ يا بدرى ، هنا في ضوءِ بدرِ
كم سيفشى الليلَ بالضوءِ ولكن لا يرانا !

جاء من حانوتنا صوتٌ ينادى سَحَراءِ
يا خليع الحيِّ ، يا مجنونتنا المستهترا
قم بنا نترع من الصبباءِ كاماً قبلما
نترع الأيامُ يوماً كأننا المنتظرا !

إنهض أنهض من فراش النوم ياساقى الشمول
هاتِ هاتِ الراحِ أصقى من زلال المسبيل
صُبِّ في الطامس من الكوز رحيق الخندريس
قبل أن يصطنعوا الكيزان من طامس الرووسِ !

أشرق الصبحُ بهيجاً طيباً ، فدَّتْكَ نفسى
فأدرِ في الجام ما ظلَّ لنا من خمرِ أمسِ !
آتى كأساً ودعنا اليوم نغمَ كل أنس
فقدأ نصبح آجرًا لقصرٍ أو لرمسِ !

بِسْتَعْنَى الْمُسْطَارِ كالمسك شَذَا والورد لونا
تُلْقِي عبء القيل والقالة عن قلبى المعنى !
لهاثها في الكاس يا ساقى الندامى قبلما
تصنع الأفلاكُ من طينى ومن طينك دنًا !

بفم الكوزة ألصقتُ في أشقي الغليلا
أبتغى منها التي تنفحني العمير الطويلا
فحكّت لي بلسان الحال هذا السرّ هماً:
إني عشتُ كما عشتَ .. فعاشرني قليلاً!

طربَ الزهرُ وزفَ العشبُ ياساقى وطابا
فتيقنُ أن سيغدو بعد أسبوعٍ ترابا
إجنِ زهراً وأحسُ جريالاً ، ففي كرةٍ طرفٍ
تجدُ الزهرَ تراباً ثمَّ والعشبَ هباباً!

غسل الغيمُ خدودَ الربيع في وجه الربيع
وصحا الدهرُ الكسيرُ القلبِ امن بعد هجوع!
فاشرب الراح مع العسادة في الرّوضِ على
ذكرٍ من فوق ثراه أينع الرّوضُ بضوع!

يا فؤادى ، إن هذا الدهر يُؤثِّقُ الشَّجَنَ
وستقلو هذه الروحُ غداً هذا البدنُ
فاجلس اليوم على الحضرة وأنعم بهواك
قبل أن تزدهر الحضرة يوماً من ثراك !

غسل الغيمُ ضحى النيروزِ أعطافَ الشقيقِ
فأتينا بالجام تزهو الحمرُ فيه كالعقيقِ
إن فى الأزهار إمتاعاً لك اليوم ، فأيقنْ
أن ستتمو من ترى لحدك يوماً ، يا صديقى !

عادتِ الشَّعبُ على الأعشابِ تبكى هاميه
أفيحلو العيشُ من دون اللدام القاننيه ؟
هاهي الحضرة ذى نزهتنا ، نزهة مَنْ
سوف تغدو يوم تغدو من ثرانا زاهيه ؟

إشرب الخراطوم كالورد على مشهد ورد
كلما أوتيت ورد الخد في سروة قد

قبلما يمسي قميص العسر في ربح الحمام
فجأة مثل قميص الورد ماتي في الرغام

أحملي الدن مع الأقداح ، يا سحر حياتي
وأخطري بين الأزهير على شط الأضائة
فلكم أحدث هذا الدهر أقداحاً ودناً
للحميا .. من قدود الغانيات القاتنات

أمس عرّجتُ على الحانوت ليلاً في طريقى
فإذا شيخٌ على منكبه دنُّ الرحيق
قلتُ : ما تخبجل يا شيخ من الله تعالى ؟
قال : الله كريمٌ ، فاحسُّ واسكُتْ ، يا صديقى !

غادرَ الحانَةَ شيخٌ ثملٌ كاد يطيحُ
بيدِ سَجَّادَةٍ والكأسُ بالأخرى تفوحُ !
قلتُ : ما تصنع يا شيخ ، وما حالك هذى ؟
قال لى : ويمك خذ كأساً ، فإن الكون ريحُ !

وبدا لي في وصيد الحان شيخ يسمر
قلت: يا شيخ، ألا حدثت عن غبروا؟
قال لي: خذها شمولاً، فكثير مثلنا
غبروا لم يأت عنهم منذ صاروا خيراً!

وجئنا في الركن شيخ نام سكران الفؤاد
تخذ الشك مقاماً وجفا دار الرشاد
شرب الحمره وأسغرق مضى في الرقاد
وهو يتلو ثم: الله لطيف بالعباد!

د - نخب الزاهد الرجال

- ٢٧٠ -

أيها الزاهد بالتدليس فينا كل مذهب
المعنى بقصير العمر ، يحتاج وينصب
قلت لي : أين ذهبى يا ترى بعد الردى ؟
أعطني ويحك جام الخمر ، واذهب حيث تذهب !

- ٢٧١ -

لا تشهر بالسكرى من أفويق الكروم
أوتخاشن فنة الأبرار من كل كريم
إشرب الراح ، فافى شربها أوتركها
تدخل الجنة إتما كنت من أهل الجحيم !

- ٢٨٠ -

هاتِ جامًا في أوانِ الوردِ كالوردِ وما
وارتشفها مع لحنِ النسيبي أو شهيدِ اللّبي
إنتي أشربُ جذلانِ فؤادي ، فإذا
كنتِ تأبأها فما أصنع ، فاشربِ علقما !

إنَّ آجرًا سِدادِ الدنِّ خيرٌ منِ عُلَى جَمِّ
وشذا الأقداحِ أشهى نكهةً من رزقِ مريمِ
ربِّ آهٍ يرسلُ الخمارُ في جوفِ الدجى
هي أحلى من تسابيحِ أبي سعدٍ وأدهمِ

صاحٍ ما أطيبَ شُربَ الراحِ من راحِ الجميلِ
صاحٍ ما أطيبَ لحنِ النايِ في نايِ العذولِ
وغبيٍّ زاهدٍ لم يَدْرِ ما جامِ الشمولِ
صاحٍ ما أطيبَ أن يبعدَ عنا ألفَ ميلٍ !

- ٢٧٥ -

سئمتُ نفسي أباطيلَ نفاقٍ وتمارى
فتعجّلُ أيها الساقى ، وجثنى بالعقار
قم فيبع سجاجدنى بالراح ، وأدفع طيلسانى
أيها المحبوب ، كي يصبح بالباقي أفتخارى !

- ٢٧٦ -

قيل شربُ الخمر يُؤليك سقاماً وندامه
ويؤدّيك إلى النار غداً يوم القيامة
صدقوا.. لكنّ خيراً من جميع الدنيويين
أن يكون المرء سكران ، ولو طرفة عين !

- ٢٨٢ -

قوةُ الجسم وقوتُ الروح كأسُّ ذاب تبرا
خمة تكشف لي من كلِّ خافٍ ما أستسرا
فدعوني من طماعات حياءٍ وماتٍ
جرعة الصهباء خيرٌ لي من دنيا وأخرى ا

إن ركبَ العمر يمضي عَجَلًا لا يترقبُ
فأقضيه يا صاح بالأفراح والذات واطربُ
أيها الساقى ، إلامَ الفكرُ في حشرٍ ونشرٍ ؟
أعطني الكأس على الكاس ، فإن الليل يذهبُ !

قم بنا نعزف على القيثارة الحان الغرام
نحتسى الراح ولا نمفصل صيتاً في الأنام
فلنبع سجادة التقوى بكأسٍ من مدام
ولنحطم في الثرى قارورة الزهد العنّام ا

يا فؤادى ، أنت لا تدرك أسرار السماء
لا ولا تدرك أهل العلم والفهم نهك
ههنا فاتخذ الجنّة من جام طلاك
فقدأ قد تدرك الجنّة أولا .. ههناك !

قيل لى ثمة جناتٌ بها حورٌ وكوثرٌ
وبها أنهارٌ خمرٌ ، وبها شهدٌ وسكرٌ !
فعلَى ذكر الحمّيات كأساً وتعجّل
إن نقدأ فى يدى أفضل من ألفٍ مؤجّل !

أنا لا أعلم هل قدر ربّى إذ برانى
أن سأغدو من فريق النار أو أهل الجنان
قدح الصبء ، والحساء ، والعود ، وروضا
أعطنى ذلك نقدأ ، وخذ الجنّة قرضا !

إن أتبعته لى من الحور كغاب في الربيع
أتحتى من يديها الراح في المرج المرّيع
صاح مهما أشتدّ قولى فى الورى قبحاً وهجته
فأنا أدنى من الكلب إذا أستذكرتُ جنّه !

إلزم الحسور ، يزِدُن العيش حسناً ويزِنُه
والطلا ، والروض ، والجدول . . ما فزت بهينه
لا ترُمّ أطيب من هذا ، ولا تُضرم جعياً
إنما الجنة هذى . . إن يكن ثمة جنّه !

أنا مهما كنتُ بالاثم شقياً ، يا نديى
لستُ مثل العابدى الأصنام فى ياسٍ مقيم
فتى أفضٍ لفرط الشكر وهناً قمرؤى
هو كأمى وحيبى . . فى نعيم أو جعيم !

قبل شهر الصوم أوفى ، وأتانا من جديد
فنداً حوضُ الحميا غير ميسور الورد
أنا في آخر شعبان سأحسو من مداى
ما سأهوى ثللاً منه إلى العيد السعيد ا

وبك حتام صيامٍ وصلاةٍ ساهيه ؟
إشرب الحجر ولو مستطياً في الناحيه !
كم سيبرى من ترى جسمك يا خيام قومٍ
تارة دنأ ، وطوراً قدحاً ، أو خاييه . .

ليس في الحان وضوء بسوى الراح يباح
وإذا السمعة ساءت لم يحسنها صلاح !
فاسقنيها . . لقد أنشق حجابُ الستر شقاً
لم يعُد ينفع رتق فيه أو يخشى اقتضاح !

خرقة الزهدِ خلعنا ، وعلى الدنِّ وضعتنا
وتيممنا صعيدَ الحانٍ وجداً .. وركعنا !
فسانا ههنا في الحانٍ نسترجع عمراً
غابراً في حُجراتِ الدرسِ كنا قد أضعنا !

نحن والقينةُ والصهباءُ إبان الصبحِ
لا تُرجى قطُّ منا نَيْسَةُ التَّوْبِ النَّصُوحِ
أيها الساقى ، فكم تلو لنا قصة نوحٍ ؟
قم فعجل وأسقني يا حلوُّ من راحةٍ روحى !

أخرجن باللهٍ من رأسك أوهامَ الحالِ
وأنهبلِ الراحَ بكأسٍ مُترَعٍ طولَ اللَّيْلِ
عِشْ سعيداً مع بنتِ الكرمِ ، فالبنتُ حراماً
في مجالِ حسنِها أشهى من الأُمِّ الحلالِ !

هو صنفوه هياً الدهرُ فعنه ليس يُغضَى
وحبيبُ القلبِ إن خانَ فعنه ليس يُرَضَى
إغثم يا صاحِ عمراً في يدك الآن غضاً
إنه ليس صلاةً ، فإذا ما فات يُقضى ا

إن هذا اليوم يدعى في الورى بالجمعة
فاكرع الصباء بالكاسِ دهاقاً مترعة
أيها الشاربُ منها كل يومٍ قدحاً
إن هذا سيد الأيام ، فاشرب أربعة ا

إن قرآناً دَعَوهُ في الورى خيرَ البيانِ
ليس يُتلى دائماً ، بل بين آنٍ وأوانِ
وعلى الأفداحِ خُطت آيةٌ بيّنةٌ
أبداً تُقرأ ، في كلِّ زمانٍ ومكانِ !

إنه فصل زهور ، وطيور ، وغدير
ورياض تهادى فى رباها بضع حور
هاتِ كاساً .. فالذى يحسو أفويق الطلاب
مستريح من محارب ، خلى من دور

أطلا تنفى أسمى الكثرة والقلة كلة
وتنحى فكر الثنتين والسبعين ملة !
فاشرب الصبأ واطرب ، لا تصم عن كيمياء
جرعة واحدة منها تداوى ألف علة !

أنا والخمرة والمحجوب فى ركن الخراب
والحجى والجامم والجبنة رهن بالشراب !
فارغ من أمل الرحمة أو خوف العذاب
وأسمى ماء ، ونار ، وهواه ، وتراب ..

إِنَّ دِينِي هُوَ أَنْ أفرغَ مِنْ دِينِ وَكفِرًا
وحياتي هي أَنْ أحيي أَخا سُكْرِ وَبِشْرٍ
قلتُ يوماً لعروس الدهر : ما مَهْرُكَ حَقاً ؟
فأجابت : يا حبيبي ، قلبك الجذلان مهري !

- ٢٩٩ -

أنا إن لم يسقني تُحْيِيَسَةَ النفس الحبيب
لم تقبّل رجلي الأفلاك ألقا وتيب
قال لي الأصحاب : تبُّ لله فالحين قريب
فإذا لم يرد الله لنا كيف نتوب ؟

- ٣٠٠ -

ألورى فان ، فإني عن سوى الفتن رغوب
وسوى الراح وهو العيش عنسدى لا يطيب
قال قوم : قبل الباري منك التوب .. كلا
رب لا تقبل ، وإن تقبل فإني لا أتوب

- ٢٩١ -

ما كَرِ اللذاتِ والخيراتِ من سبيلِ الزمانِ
وخذ الكأسَ على عرشِ الهوى والعنفوانِ
رَبُّنَا اللهُ غنيٌّ عن معاصي وتقيٍّ
فاتغنم في هذه الدنيا متاحاتِ الأمانِ

إسمع الحقَّ صراحاً ، يا صديقي ، وعِ قولي
لا تفارق كأسَ جريالٍ ولا طرةَ خيلٍ
وتعلم أن رباً خلق الأكوان خلقاً
لا يبالي شاربٍ مثلك أو لحيةً مثلي !

رَبِّي أفتح لي باباً يتأني منه رزقي
وابعث القوت إلى حلقى ، بلا مينة خلق
ربُّ واحفظني صريعاً بالحجيا طولَ عمري
فن الغفلة لا أعرف ما يقلق فكري !

ز - نخب العقل

- وألفاظ الوجود

- ٣٠٤ -

ليس مَنْ أدركَ ماذا حجبت تلك السدولُ
أو درى كيف حلول الروح ، أو فيم الحلولُ
ليس للانسان غير اللحد مغنى أو مقييلُ
فاكرع الصهباء .. هاتيك حكايات تطولُ !

- ٣٠٥ -

ليس وجه الكونِ إلا نقشٌ وهمٍ وخيالِ
والذى يجمل هذا ليس من أهل الكمالِ
فاقترب يا صاح وأشرب قدح الجريالِ وأطرب
وأنس هذا النقشَ ، وافرغ من خيالات المحالِ !

- ٢٩٣ -

ما لنا بالله أسرى بيد العقول العقام؟
ما حياة المرء يوماً واحداً أو ألف عام؟
فافتح الراقود وأملأ من رحيق الراح جامي
قبل أن نصبح في الشوق جراراً للأفام

منذ عهدٍ ومديحُ الخمر تسبيحي ووردى
ومعدّاتُ الحميا كلُّ ما حولي وعندى!
إن يكن أستاذك العقل ، أبا الزهد ، هنا
فتنعم .. إن أستاذك تلميذي أنا!

ليس للمرء مقامٌ في ذرى الدهر المقيم
فَقِلا الخمره والمحجوب تقصيرٌ عظيم
كم أقاويلٌ قديمٍ وحديثٍ يا حكيم؟
أنا إن متُّ فما المحدث عندى والقديم؟

أيها القادم من عالم روح وسرائر
وهو في الخمسة والستة والسبعة حائر
أنت لا تعلم أني جئت أو أين ستذهب
فاشرب الصهباء واطرب واغتم اللذات والعب

كم حديث الخمس والأربع في دار الفناء؟
أي شيء مشكل الواحد والألف لنا؟
إنما نحن تراب ، فتفرّد يا مغني
إننا ريح ، فجننا أيها الساقى بدن

فيم هذا الهم للكائن في الدنيا الولود؟
والأم الفكر في كل قريب وبعيد؟
عش سعيداً واقض أيامك في أنس وعيد
فلعمري لم ينيطوا بك تدبير الوجودا

أنت أولى لك أن تهرب من درس العلوم
فتعلق بعذار الحبِّ كالخشف العظيم
إبتهج وأسفح دماء الجمام في الكاس إزاءك
قبل أن يسفح هذا الدهرُ يا هذا دماءك

نحن لانملك في الواقع حقاً وبقينا
أفئني العمرَ في الشكِّ حيارى قاعدينا ؟
صاح لانلقِ كؤوسَ الراح من أيدي للراح
فسولا في ظلام الجهل سكرانُ وصاحي !

نفسٌ من منزل الكفر إلى منزل دين
نفسٌ من عالم الشكِّ إلى دنيا اليقين
فتعهد طيبَ هذا النفسِ القدِّ الثمين
إنه محصولنا من هذه الدنيا الخوون

إن أقوامًا تولوا ، أيها الساق المليحُ
قد تولوا في غرور ضمهم منه ضريحُ !
فأمضِ وأحسُّ الراح ، وأسمعْ لكلام الحقِّ مني
أيها الحلو الثني ، كلُّ ما قالوه ربحُ !

يا خليلي ذراني أرتشف بنت الدنانِ
بصطبغ خدي من الراح بلون الأرجوانِ
لأصبنَّ على العقل الفضوليِّ قلبك
من سلافٍ ، علَّه إن نام خلاني وشاني !

سوف أحسو اليومَ بالجام الذي يملأ رطلا
وبجامين سأغدو موسرًا جدِّي أعلى
فلأطلقْ يانديي الدينَ والعقلَ ثلاثًا
فسأبني بابتة الكرم ، ولا أسمعْ عدلا !

— ٣١٨ —

قدحًا يا ساقِي الجريال ، فالدنيا خُلسُ
إن تُصِبْ فيها سرورًا فكفى منه نفسًا !
إغتبظ أنت بما يأتيك ، فالدهرُ غيرُ
لم يدرُ قطُّ على ما يشتهي قلبُ بشرُ

— ٣١٩ —

يا خليلي تَقْضَى اليَوْمَ يومٌ من حياتي
مثل ماء في مسيل ، أو هواء في فلاة !
أنا لم أذكر أمي يومين في دار الشتات
يوم أمي قد تولى ، وغد في الغيب آتى

ظَلَّ لِي السَّعْيُ إِلَى سَائِقِ الطَّلَا مِنْ رَمَقِي
ظَلَّ لِي مِنْ حَبِيبَةِ الْخَلْقِ دَوَاعِي الْحَتَقِ
مَنْ شَمُولِ الْأَمْسِ لَمْ يَبْقَ سِوَى بَاطِيئَةٍ
وَمَنْ الْعَمْرُ لِعَمْرِي لَسْتُ أُدْرِي كَمْ بَقِيَ !

أُنْظِرُنْ سُوءَ فِعَالِ الْقَبِيئَةِ الزَّرْقَاءِ فِينَا
وَفِرَاحَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْأَصْدِقَاءِ الذَّاهِبِينَ
فَابْتَدِرْ وَقْتَكَ مَا أَمْكَنْ ، لَا يَذْهَبُ سُدَى
إِنْغَمِ الْحَالِ .. وَدَعِ أَمْسَ وَلَا تَحْفِلْ غَدَا

أَلْقِ عَنْ قَلْبِكَ أَثْقَالَ الْأَمْسِ وَالشَّجَنِ
وَعَنَاءِ الْعَالَمِ الْفَنَاءِ ، وَهَمِّ الزَّمَنِ
مَا مَضَى فَاتٍ وَمَا لَمْ يَأْتِ غَيْبٌ لَا يُرَى
فَاطْرِحْ أَعْبَاءَ مَا كَانَ وَمَا لَمْ يَكُنْ

إِنَّ أَمْسًا قَدْ نَوَى لَا تَعَاوِدُ ذِكْرَهُ
وَعَدَا لَمَّا يَجِيءُ لَا تَتَدَبَّرُ أَمْرَهُ
لَا تَشِيدُ فَوْقَ مَا فَاتَ وَمَا لَمْ يَأْتِ أَمْرَكَ
فَتَنْعَمَ .. لَا تَبَدَّدْ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ عَمْرَكَ

فِيمَ غَمِّ الْمَالِ يَا هَذَا ، وَهَمْ الْقَانِيَةِ ؟
أَتَرَى الْعَيْشَةَ كَانَتْ لِابْنِ أَتَى بِأَقْبَسِهِ ؟
هَذِهِ الْأَنْفَاسُ فِي جَمْعِكَ هَذَا قَاضِيهِ
فَاغْتَمِ عَارِيَةَ الْعَمْرِ وَعِشْهَا عَارِيَهُ !

لَا تَطَّأُ لُمَمَاتِ الزَّمَانِ الْجَائِرِ
أَوْ تَذَكِّرْنَا أُمِّي أَبْنَاءِ أَمْسِ الدَّابِرِ
لَا تَذِقْ قَلْبِكَ مِنْ زَادِ سَوِي رَيْقِ الْمَلَّاحِ
وَالْحَمِيَا .. لَا تَضِغْ عَمْرَكَ أَدْرَاجِ الرِّيحِ

قم بنا نصُبحِ الرّاحَ فقد ضاء الصّباحُ
ولنحطّم في الثرى جرّةً صبتِ وصلاحُ
فانفضنُ يميناك من كلِّ تمنٍ وطماخُ
وخذ العود بها الآن ولباتِ المِلاخُ

حاسبنُ نفسك يا عاقلُ ما أوردتَ قبلا
يوم أقبلتَ ، وما تُصدِرُ لما تتولّى ؟
قلتَ : لا أشربُ خمرأ ، قالفتي لا بدّ يقضى
الفتى لا بدّ يقضى ، أشربتِ الحرام لا ! ..

يا صديقي ، لا لك اليوم بأمر الغد حيله
وهوم الغد ليست غير أوهامٍ وخيله^(١)
فأهتبل فرصة هذا الوقت إن كنتَ أريباً
ليس باقى العسر بالباقي ، فلا تهدر قليله

(١) الخيلة : التخييل والتظني .

إن شربت الراح يا خيام ، فاسكر وأطربن
وإذا جالست بدرأ فتمتّع وألعبن
آخر الدنيا فناء ، فافترض أنك فان
وبما أنك حيّ فتنعم واشربن

عاقِرِ الصهباء في المرج إلى جنب الغديرِ
وأطرح عنك هموم العيش في دنيا الغرور
ليس هذا العمرُ الغالى سوى أن قصير
فلنكن فيه نضيري الوجه بسامى الثغور

هذه الأنفاس تمضى حين تمضى من حياتك
فاقضها بالأنس واللأسو إلى يوم مماتك
رأس مال الكون يا صاح هو العمر لدينا
وهو يمضى مثلما تمضى به يا صاح بذاتك

إيه خيام ، هو الدهر شموخ يزدرى
كلّ من يقعد مهموماً حليف الكدر
فضع الإبريق واشرب ، مع لحن المزهر
قبل أن ينكسر الإبريق فوق الحجر ا

أقبل البلبلُ نشوانَ إلى بعض الجنانِ
فراى الوردَ وكأسَ الخمر فيه يضحكانِ ا
فأتانى قائلاً فى أذنى : يا ابن الأمانِ
ليس بالعائد يوماً ما انقضى من عمرِ فانى

سوف أطوى من غدٍ تالله راياتِ النفاقِ
وسأقفوا أثرَ الخمر بشيبي ، يا رفاقي ا
أنا فى السبعين من عمري ، شيخٌ أشمطُ
فإذا لم أنشط الآت فأنى أنشط ا

إنَّ طبعي أبداً يهفو إلى الوجه الجميلِ
ويعيني أبداً تهفو إلى كأس الشمولِ
إنني منتفعٌ من كلِّ جزءٍ بنصيبي
قبل أن تندمج الأجزاء في الكل الرحيبِ

ليس للإنسان أن يأمسى فيبلى حزننا
حاطماً في صخرة المخرقة ساعات الهنا
صاح من يدري بما يحدث في الدهر غدا؟
باكر الصهباء والمحبوب ، وافرح بالمني

يا حبيبي ، أنت لا تدري من العالم سرّة
فعلام الممّ فيه بين تفكيرٍ وحسره؟
إن هذا الدهر لا يجري على ما تمنى
فتمتّع برهة ما دمت في دنياك مرّة!

لا تَنْبُ عَنْ بِنْتِ كَرَمٍ ، مَا أُتِيحتْ كَالْعَفِيقِ
وَلِيَجِيءَ أَلْفُ مَتَابٍ بِمَدِّ هَذَا فِي الطَّرِيقِ !
هَاهِي الْأَزْهَارُ فَاحْتِ ، وَطَيُورُ الرُّوضِ نَاحِتِ
أَيْجُوزُ الثَّوْبِ فِي وَقْتِ كَهَذَا ، يَا صَدِيقِي ؟

لِئِنَّهَا الرَّاحُ ، حَيَاةُ الْخَلْدِ أَوْ خَلْدُ الْحَيَاةِ
لِئِنَّهَا حَفْظُكَ مِنْ عَهْدِ الصَّبَا ، وَهِيَ مِنْهَا
ذَا أَوَانَ الزَّهْرُ وَالْخَمْرُ ، وَالصَّحْبُ نَشَاوِي
فَاغْنِ الصَّفْوَةَ ، فَإِنَّ الْعَيْشَ هَذَا لَا سِوَاهُ !

دُورَانُ الدَّهْرِ لَا يُغْنِي بِلَا خَيْرٍ وَسَاقِي
وَمَغْنِي يَرْسُلُ اللَّحْنَ مَعَ النَّايِ الْعِرَاقِي
قَدْ تَأَمَّلْتُ شُؤُونَ الْكُونَ فِي دَارِ الْفَنَاءِ
فَإِذَا مَحْصُولُنَا الْمَتْعَةَ ، وَالْبَاقِي هِبَاءُ

قد زها روضُ أمانيك وطابَ الحاضرُ
فلماذا صِفرتَ يَمناكَ من كأسٍ ، لماذا ؟
إحتسِ الصبَاءَ فالدهرُ عدوٌّ غادرُ
ومِنَ النادرَاتِ تحظى بيومٍ مثل هذا

ما أحبَّ الطلعةَ الحسناءَ والروضُ ظليلُ
وصبَا النـيزوز تجرى ، والأزاهيرُ تميلُ
كلَّ ما تحكى عن الأمس لنا فهو ثقيلُ
فاغتبط واترك حديث الأمس ، فاليوم جميلُ

إرتشفها ، فالحميةُ ملكُ كسرى وعلاء
واسمع الناي ، فما مزمار داودَ سواه
لا تفكرْ بعدُ في ماضٍ وآتٍ لا تراه
إنغم الحلال ، فهذا القصد من هذى الحياه

ط - نخب الحبيب

— ٣٤٤ —

لهف نفسي ، منذ ميزتُ يدي عن قدميًّا
غلَّ هذا الفلكُ المرذولُ لي كلتا يديًّا
يا لقلبي ، سيعذُّون من العمر عليًّا
ما تقضى عبثًا دون حبيبٍ وحميًّا!

— ٣٤٥ —

ويح قلبٍ ليس فيه ضرْمٌ للحبِّ فاتك
لم ينَّيمه جميلٌ بهوى كالحبيل هاتك
إنَّ يوماً يتقضَّى لك في غير غرامٍ
لهو يومٌ ضاع ، لا أضيع منه في حياتك!

— ٣٠٧ —

ليس في العشق المجازي رِواءٌ أو نضاره
فهو مثل الجمر نصف الميت ، ما فيه حراره !
إنما العاشق من يلتاع ليلاً ونهاراً
ليس يستمرى طعاماً ، أو مناماً ، أو قراراً !

فلأباكر فرصة البهجة في الروض الظليل
بيدِ فرع حبيبي ، ويدِ كأسِ شمولى
أرشفُ الجريالَ ، لا أحفلُ بالأفلاك تجرى ..
ثملاً من نخرة الوصل مع الحبِّ الجميلِ

قيل لي : أقلل من الصهباء وأقصد في المجون
أيُّ عذرٍ لك في هذا التماذى والجنون ؟
إن عذري ثغر محبوبى وجريالٍ صبوحي ..
أيُّ عذري يا ترى أوضح من هذا يكون !؟

قم فأقبِلْ يا حبيبَ الروح ، إكراماً لقلبي
بسنا حسنك أدركني ، وفرِّجْ لي كربى !
هاتِ كوزاً نشربِ الراح به ، يا وئى^(١)
قبل أن يصطنعوا من طيننا كوزاً لشربِ !

إتبع نهجَ دراويش الحميِّاء الظرفاء
لا تُردِّ غير سِلافٍ ، وحيبٍ ، وغناء
إحتمل في الكفِّ كاساً ، وعلى المنكبِ دناء
واشرب الصهباء يا حلو ، ودع قول المراءاء

يا حبيبي فاسقنيها ، ما هنا وقت الكلامِ
تترك المبتسمُ الليلةَ قوتى وطعامى !
أسكب الصهباء تذكو مثل خديك وناركِ
فلمعري توبقى اليوم التوت مثل عذارِكِ !

(١) أى : يا وئى .

أشتهى ديوانَ شعيرٍ ، معه عُسٌّ مدام
ورغيفاً ، وكفافة العيش من دنيا الحطامِ
عندها أمضى وإيّاك إلى قفْرِ يبابِ
ذاك أحلى لي من ملك السلاطين العظام !

أيها الساقى ، تعالت نعمة الأشجان عندي
ونمادى السكرُ حتى لتعدّى كلَّ حد
خفّ بي الشيبُ ، فن خرك يا جمّ الأيادي
رجعت شيخوخة الرأسِ ربيعاً في فؤادي !

صدّ لي عشقك شيبى في أحابيل الدلالِ
يا أخا الحسن ، وإلا ما لصهباء ومالى ؟
صاغ عقلى توبةً حطّما ربُّ الجلالِ
وأعدّ الصبرُ ثوباً شقّه كره اللبالي !

بلغت في الدين ثنيتين وسبعين المثل
فمن الله لي عشقك دين وأمل
صاح ما كفر وإسلام ، وتقوى وزلل ؟
أنت أنت القصد ، قارفع بيننا هذى العلل !

سوف تلقاني صريحا ذات يوم بالمدامه
قد هوى رأسي على رجلك ، مهدور الكرامه !
وهوت من قبضتي الكاس ، ومن رأسي العامه
وثنيا في هوى وجهك ، يا رب الوسامه !

ی - نخب الو نخب

- ۳۵۷ -

أنتِ يا خمرُ شرابی الفاضحی بین الصحابِ
فلا عاقِرَ منك ما أخرجُ فيه عن صوابی !
فیرانی مَنْ یرانی مِنْ بعیدِ فینادی :
عجبا ، من أين تأتینا آیا ربَّ الشراب ؟

- ۳۵۸ -

مذ بدا المیزانُ فی عرض السَّما والمشتری
ما رأی أحسنَ من هذی الطلا ذو بصرِ !
عجبی من بائع الصهباء فی غفلته
یا ترى أفضلَ مما باع ماذا یشری ؟

- ۳۱۲ -

هَبَّتْ أَسْتَارَنَا بَيْنَ الْوَرَى هَذَى الْحِيَا
غَيْرَ أَنِي لَسْتُ بِالْمَاجِرِهَا مَا دَمْتُ حَيَا
عَجَبًا لِلْبَائِعِ الصَّبَاءِ فِي غَفْلَتِهِ
أَتَرَاهُ يَشْتَرِي أَفْضَلَ مِمَّا بَاعَ شَيْئًا؟

عِنْدَمَا آخُذُ فِي يَمْنَايَ جَامًا مِنْ شَرَابِ
وَمِنَ الْغَبْطَةِ أَغْدُو ثَمَلًا ضَاعَ صَوَابِي
تَقَاتِي مَعْجَزَاتٌ عِدَّةٌ فِي كُلِّ بَابِ
مِنْ طِبَاعِ لِي كَالنَّارِ وَنَطَقِي كَالعَبَابِ

إِنْ حَسَا الصَّبَاءُ شَحَاذٌ أَصَارَتْهُ أَمِيرَا
أَوْ حَسَاهَا ثَعْلَبٌ أَصْبَحَ ضَرْغَامًا مَعْمُورَا
أَوْ حَسَاهَا الشَّيْخُ رَدَّتْهُ غَلَامًا يَافِعَا
أَوْ حَسَاهَا الْيَافِعُ الْغَضُّ غَدَا شَيْخًا كَبِيرَا

إنها الجريال ، لو صُبَّتْ على الطودِ رقص
فالذي ينتقص الصهباء كان المنتقص !
كيف تدعوني إلى التوبة منها يا صديقي ؟
إنها روحُ ربِّي النفسَ أو يجلو الفصص !

قلتُ : لن أشربَ بعد اليوم خمرًا عندمَا
إنما الجردم الكرم ، فلا أحسنُ الدمَا !
قال عقلي الشيخُ : جدُّ منك هذا أم خرافه ؟
قلتُ : كلابل مزاحٍ ، كيف لا أحسو السلافه ؟

أنا لا أحتمل العيش بلا خمرٍ تَضُوعُ
لا ولا أحمل جسي ، فهو محمولٌ فظيعُ
أنا أهوى لحظَّةٍ يسألني الساقى بها :
قدحًا آخرَ فاشرب ، وأنا لا أستطيع !

كَمَا أَشْرَقَ صَبْحٌ وَاضِحٌ الْفُورَةَ أَزْرَقُ
فَضَعَنْ بَيْنَ يَدَيْكَ الرَّاحَ فِي الْجَامِ الْمَرُوقِ
شَاعَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْحَقَّ فِي الْأَفْوَاهِ مَرَّةٌ
فَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْحَمْرُ يَا قَوْمُ هِيَ الْحَقُّ

ظَاهِرُ الْمَوْجُودِ وَالْمَعْدُومِ أَدْرَى كَيْفَ كَانَا
بِاطْنُ الْأَرْفَعِ وَالْأَوْضَعِ لِي أَنْحَلَّ وَبَانَا
مَعَ هَذَا الْعِلْمِ ، فَلَا تُخْبِلْ إِذْنِ مَنْ كُلِّ عَلَى
إِنْ أكنْ أَعْرَفَ فَوْقَ الشُّكْرِ فِي الدَّهْرِ مَكَانَا

يَا خَلِيلِي أَجْمَلًا قَوْتِي مَا عَشْتُ الْجَمِيئَا
تَجَمَّلَا كَهْرَبَ هَذَا الْوَجْهِ يَا قَوْتَا نَقِيئَا
وَمَتَى حَانَتْ وَقَاتِي فَاغْسِلُونِي بِسَلَاةٍ
وَمِنَ الْكَرَمِ أَعِدُّوَا لِي تَابُوتَا سَوِيئَا

دوخُ عمرى سوف يُستأصلُ من روضِ الحياةِ
ثم يبلى جسدى الفانى ، وتنحلُّ رفاى
فإذا ما صنعوا جامَ سلافٍ من ترابى
عدتُ حياً فيه إن أترعتموه بالشراب !



عندما أهوى برأسى تحت رِجلِ الأجلِ
يوم يُستأصلُ عمرى من جذورِ الأملِ
فاصنعوا بالله جاماً من ترابى ، فعسانى
فيه أحيى كلما أترع من بنتِ الدنان

هيّ فلاشربُ من الصبَاء ما يأتى شذاه
من نرى بلدى متى أصبحتُ شِلواً فى نواه
فإذا قادت إلى رمسيّ سكبراً خطاه
عاد من ربحِ شرابى ثملاً ضلَّ حباه !

حين أقضى فاطموا قبيري بين الدارين
واجعلوا سيرة حالي عبرة للعالمين
ثم رشوا برحيق الخمر لخدَى وتراي
واصنعوا الآجر من جسدى سداً للغواي!

يا أحبائى ، إذا مُتُّ فبالراح أغسلونى
ومتى لَقنتمونى فبـخـمـرٍ لَقنُونى
وإذا أحببتم فى الحشر أن تلمسونى
فتحرّوا فى ثرى الحانوت عنى تجدونى

أيها الأخدان ، إنا ضمكم مجلس أنس
فاذكروا هذا الصديق الحرّ ، فالأيام تُنسى
ومتى عاقرتم الصهباء ، يا أحبّاب نفسى
وأنى فى الشرب دوى .. فاقلبوا بالله كأسى !

كلما أنفكم بعدى شراباً أو ددُ
فتملوا بعضكم من حُسنِ بعضٍ ، وأسعدُوا !
وإذا طافت كؤوسُ الراح بين الندماء
فاذكروا هذا الفتي المسكين أيضاً في الدعاء !

١٢

ستار الختام

obeikandi.com

— ٣٧٥ —

إن مَنْ هم في الحوانيت سكارى لا يَمُون
والمقيمين الليلى ، سُجِّدًا لا يهجعون
ما بهم ناجر ، فهم في اللجَّ غرقى أجمعون
واحدٌ يقظان والباقون صرعى نائمون

— ٣٧٦ —

ليس في الدَّير ولا المسجد يا صاح مكانى
خالقى يعلم ما كنهُ ثرىّ منه برانى
كفكير كافرٍ ، أو مومس شوهاء شانى
قد عدِمَتُ الدين والدنيا ، وآمال الجنان . . .

— ٣٧٦ —

إن أكن سكراناً من خمرِ الجوسِ الكافرين
أو أكن صَبًا خليعاً ، مارقاً لآيِ دِينِ
فلأكن !.. كلُّ فريقٍ لهمُ فيَّ ظنون
بيد أنى ملكُ نفسى .. كيفما شئتُ أكون !

مقارنة بين تفكير الخيام والمعري

قارن الكثيرون بين أقوال الحكيمين مقارنات ليست بالوافية ، فأحببت أن أتوسع في الأمر من غير إسهاب . وفيما يلي طائفة من أشعار المعري توخيتُ السهولة والوضوح عند اختيارها من اللزوميات أو الذاكرة . وأكثرها يشابه رباعيات الخيام ، ومنها ما يقاربها ، ومنها ما يناقضها ، ومنها ما يبدو كأنه تعقيب عليها ، ومنها ما يذكر ببعض الفاظها . وأنا أترك للقارى أن يقارن ويستخلص لنفسه ما يشاء . ولكن من الحق علي أن أذكره أن هذه المقارنة مجحفة بالمعري ، لأن له من جوانب الفلسفة وروائع القول ما لم تدعُ المناسبة إلى ذكره هنا .

الرباعية :

(١) قال المعري :

بني زمني ، هل تعلمون سرائراً _____ علمتُ ، ولكن بها غير بأصح ؟

إذا قلتُ المحال رفعت صوتي
وإن قلتُ اليقين أطلتُ همسي

مالي رأيت دعاة الشرِّ ناطقةً

والرشد يصمت خوف القتل داعوه

إلى الله أشكو مهجةً لا تطيعني

وعالمٌ سوء ليس فيه رشيدٌ

حجى مثل مهجور المنازل دائرٌ وجهل كسكون الديار مَشِيدٌ

(٢) قال المعري :

وعندي لو أمنتك علمٌ سرِّي عن الجهال غيبه مَكِيمٌ

(٣) قال المعري :

لا تقيِّد عليَّ لفظي فإني مثل غيري ، تكلمي بالمجاز

ولدي سرِّي ليس يمكن ذكره يخفي على البصراء وهو نهارٌ

أما الهدى فوجدته ما بيننا سراً ، ولكن الضلال جهاراً

(٤) قال المعري :

أكرم حديثك لا يشعر به أحدٌ من رهط جبريل أو من رهط إبليس

(٦) قال المعري :

لا تَدُنُونَنَّ مِنَ الشَّرِّ وَأَهْلِهَا فَتَكُونُ عَنِ أَهْلِ الْعَلَى مُتَبَاعِدًا

(٧) قال المعري :

إِجْتَنِبِ النَّاسَ وَعَشْ واحداً لا تَظَلِمِ النَّاسَ وَلا تَظَلِّمْ

فَلا يَغْرُرُكَ بِشَرٍّ مِنْ صَدِيقٍ فَإِنَّ ضَمِيرَهُ إِحْنٌ وَخِيبٌ

(١١) أَكْثَرَ الْمَعْرِيِّ مِنْ دَمِ الزَّوْجِ وَعَدَدَ مَسَاوِيهِ وَمَشَاكِلِ

الْوَلَدِ وَلا سِوَا الْبَنَاتِ . وَلِنَتْرِكَ التَّفَاصِيلَ وَنَجْتَزِي بِقَوْلِهِ فِي النِّسَاءِ :

لا تَدُنُونَنَّ مِنَ النِّسَاءِ .. فَإِنَّ غَيْبَ الْأَمْرِ مَرَّةً ا

وقوله فيهن وفي الولد :

صَحْبِكَ فَاسْتَفَدْتَ بِهِنَ وَوُلْدًا أَصَابَكَ مِنْ أَدَانِكَ بِالسَّمَاتِ

وَمِنْ رُزْقِ الْبَنِينَ فَغَيْرُ نَاءٍ بِذَلِكَ عَنْ نَوَائِبِ مَسَقَاتِ

وَمِنْ رُزْقِ الْبَنَاتِ فَأَيُّ بَوْمَسَ تَبَيَّنَ مِنْ وَجْهِ مَقْسَمَاتِ ا

(١٢) و (١٣) قال المعري :

أُولُو الْفَضْلِ فِي أَوْطَانِهِمْ غَرِبَاءَ تَشِدُّ وَتَنَأَى عَنْهُمْ الْقُرْبَاءُ

فَمَا سَبَّأُوا الرَّاحَ الْكَمِيتَ لِلذَّةِ وَلا كَانَ مِنْهُمْ لِلخِرَادِ سَبَاءُ

وَحَسْبُ الْفَتَى مِنْ ذَلَّةِ الْعَيْشِ أَنَّهُ يَرُوحُ بِأَدْنَى الْقَوْتِ وَهُوَ حَبَاءُ

(١٤) و (١٥) قال المعري :

والعقلُ زينٌ ولكن فوقه قدرٌ

فما له في ابتغاء الرزق تأثير

هو الرزق يُجْرِيه المليكُ ، ولن ترى

أخا عيشة بالحرص يُطعم أو يُسقى

(١٧) قال المعري :

توحّد فإن الله ربك واحد ولا ترغبن في عشرة الروساء

(٢٠) قال المعري في هؤلاء المتعاطمين :

لولا تكن في القوم أصغرهم ما بان فيك عليهم كبر !

وقد أخذه عن قول عمر بن الخطاب « ما رأيت امرأة يتزبد

إلا لنقص يجده في نفسه » ولعله في هذا أسبق من تكلم على

ما يسمونه مركب النقص ، بهذا الوضوح .

(٢٢) قال المعري :

من مذهبي ألا أشدّ بفضية قدحى ، ولا أصغى لشرب معوج

لكن أفضى مدتي بتقني ، وأفرح باليسير الأروج

هذا ولست أود أنى قائم بالملك في ثوبي أغر متوج

(٢٤) قال المرى :

وإِذَا مَا سَأَلْتُمْ دَائِبَ رِغَى الْمَطَايَا وَيَسُوقَ الْحَمِيرِ !

(٢٩) قال المرى :

وَقَدْ قَتَّسْتُ عَنْ أَصْحَابِ دِينٍ لَمْ نَسْكَ وَلَيْسَ لَهُمْ رِيَاءُ !

تَسْتَرُوا بِأُمُورٍ فِي دِيَانَتِهِمْ

وَإِنَّمَا دِينُهُم دِينُ الزَّانِدِيقِ

نَكَذَبَ الْعَقْلَ فِي تَصْدِيقِ كَاذِبِهِمْ

وَالْعَقْلَ أَوْلَى يَا كِرَامٍ وَتَصْدِيقِ !

(٣٠) قال المرى :

يَحْرَمُ فِيكُمْ الصَّبَاءُ صَبِيحًا وَيَشْرِبُهَا عَلَى عَمْدٍ مَسَاءً

يَقُولُ لَكُمْ غَدَوْتُ بِلَا كِسَاءٍ وَفِي لَدَائِمِهَا رَهْنُ الْكِسَاءِ !

إِذَا فَعَلَ الْفَتَى مَا عَنهُ يَنْعَى فَمَنْ جَهَنَّمَ لَا جِهَةَ أَسَاءُ

(٣٣) قال المرى :

وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ دِينٌ وَلَا نُسُكٌ

فَلَا تَتْرَكَ أَيْدِيَهُمْ تَحْمِلُ الشَّبَحَا

وكم شيوخ غدوا بيضاً مفارقهم
يسبحون ، وباتوا في الخناسِ
لوتقل الأرض ودّت أنها صفرت
منهم فلم يرَ فيها ناظرٌ شبحاً

إنما هذه المذاهب أسبا بٌ بلذب الدنيا إلى الرؤساء ا

(٣٤) قال المعري :

رويدك قد غررت وأنت حرٌّ بصاحب حيلة يعظ النساء
كم قائم بغطائه متفكّه

في الدين يوجد حين يكشف عاهرا

(٣٧) قال المعري :

قد حجبَ النور والضياء وإنما ديننا رياه
يا عالمَ السوء ، ما علمنا أن مصليك أتيه ا
لا يكذبنّ أمرؤ جهولٌ ما فيك لله أولياه

تأمرنا بالزهد في هذه الـ دنيا وما همك إلا هي ا

إذا رام كيداً بالصلاة مقيماً فتاركها عمداً إلى الله أقرب ا

(٣٨) قال المعري :

لحسب الله قوماً إذا جتتهم بصدق الأحاديث قالوا كَفَرُوا!

(٣٩) قال المعري :

ولا تحسب مقال الرسل حقاً ولكن قول زورٍ سطره

(٤٤) قال المعري :

هَفَّتِ الحنيفَةُ ، والنصارى ما اهتدت

ويهودُ هامت ، والجوسُ مضلّله

إنّان أهلُ الأرض : ذو عقلٍ بلا

دينٍ ، وآخرُ دينٍ لا عقلَ له !

(٤٦) قال المعري :

أفبقوا ، أفبقوا يا غواة ، فإنما

دياناتكم مكرٌّ من القدماء

أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا

وبادوا ، ودامت سنة اللؤماء !

إذا رجع الحصيف إلى حباه تهاون بالشرائع وازدراها

(٤٧) قال المعري :

والخير أفضل ما اعتقدت ، فلا تكن
هَمَلًا ، وصلَّ بقبلةٍ أو زمزم
والزمزم صلاة المجوس على الطعام .

ما الخير صومٌ يذوب الصائمون له
ولا صلاةٌ ، ولا صوفٌ على الجسدِ
وإنما هو ترك الشرِّ مُطَرَّحًا
ونفضك الصدر من غلٍّ ومن حسدِ

ما دامت الوحشُ والأنعامُ خائفةً
فرسًا فما صحَّ أمرُ النسكِ للأسدِ !
والقرس من وزن قوس : الافتراس

(٤٨) قال المعري :

وأفضلِ الخيرِ فالحديدِ ث كثيرٌ قد اختلفوا

(٤٩) قال المعري :

إن العقول تقول موليةً ليس الأنامُ كُنَّابِتِ البقلِ
مولية : حالفة . ولا يظهر من سياق الشر قصده من نفي

الشبه بين الأنام ونابت البقل ، مع أنه أثبت هذا الشبه في
أماكن أخرى من لزوميته . ولكن حسبنا اتفاق هذا البيت
مع الرباعية في ابتدائهما بالعقل وانتهائهما بالبقل ، وأن الأول
يؤكد أن الإنسان لا يشبه الثاني . ولعل غرض الحكيمين واحد .

(٥٠) قال المعري :

حياة ثم موت ثم نشرٌ حديث خرافة يا أم عمرٍوا

(٥١) قال المعري :

دفنهم في الأرض دفن تيقنٍ ولا علم بالأرواح غير ظنونٍ!

(٥٢) قال المعري :

جسدٌ من أربعٍ تلحظها سبعة راتبة في اثني عشرٍ

قصده الشيخان : العناصر الأربعة والأفلاك السبعة . وزاد

المعري هنا الشهور الاثني عشر ، وزاد الخيام في مواضع أخرى

الحواس الخمس والجهات الست . ويقول المعري على عادته متردداً

في أمر البعث :

زعم الفلاسفة الذين تنطسوا أن المنية كسرّها لا يجبر

مع أننا رأينا — آنفاً — يذهب أحياناً مذهب هؤلاء

الفلاسفة الذين تنطسوا .

(٥٦) قال المعري :

لعلّ أناساً في المحارب خوّفوا
بأي كناسٍ في المشارب أطربوا
مساجدكم ومواخيركم سوا ، فبعداً لكم من بشر!

(٦٣) قال المعري :

إن كان من فعل الكبائر مجبراً
ففقابه ظلم على ما يفعل
والله إذا خلق المعادن عالم
أن الحديد البيض منها تجعل

(٦٤) قال المعري :

وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ولكن بأمرٍ سببته المقادر
فقل للغراب الجون إن كان سامعاً :
أأنت على تغيير لونك قادر ؟

(٦٥) قال المعري :

ما باختيارٍ ميلادي ولا هري
ولا حياتي ، فهل لي بعدُ تخيير ؟

(٦٦) قال المعري :

أرى شواهد جبرٍ لا أحققه كأنَّ كلاً إلى ماماء مجروراً !

(٦٩) قال المعري :

عيوبى إن سألتَ بها كثيراً وأيّ الناس ليس له عيوب ؟

(٧٢) هذه الرباعية يعزوها بعضهم إلى الخواجه نصر

الدين الطوسي .

(٧٣) قال المعري :

جيلةٌ بالفساد واشـجبةٌ إن لامها المرء لام جابلها !

(٧٦) قال المعري :

إن أدخل النار فلي خالقٌ يحمل عنى مثقلات العذاب
يقدر أن يسكننى جنّةً فيها ترمى بالمياه العذاب !

(٨٣) قال المعري :

أرواحنا معنا وليس لنا بها علمٌ فكيف إذا حوتها الأقبُر ؟

وربما كان الأصح (إذا حوتنا الأقبُر ..)

(٨٤) المعري هنا يخالف الخيام ويناقضه :

أثبت لي خالقاً حكياً ولست من عشر نساء
(٨٥) ويخالفه هنا أيضا :

أقر بأن لي رباً قديراً ولا ألقى بدائعه بجحد
(٨٦) قال المعري :

توقعوا من دهرم عدلهُ والدهرُ لا يحسن أن يعدلا
في كل دهرٍ جنفٌ كامنٌ والنحسُ في المولد والسعدُ لا
(٨٨) ترجمة النصِّ الفارسيِّ للشطر الرابع : « الأولى أن
يُسلح على فلك كهذا » وقد هذبناه .

(٩١) قال المعري :

والدهرُ لا يدري بما هو كأنُّ فيه ، فكيف يُلام فيما كانا ؟
(٩٢) قال المعري :

خرجتُ إلى ذى الدار كرهاً ، ورحلتى
إلى غيرها بالرغم ، واللهُ شاهدُ ما
نفارق العيشَ لم نظفر بمعرفةٍ
أي المعاني بأهل الأرض مقصودُ ؟

لم تعطنا العلمَ أخبَارٌ يحيى بها
نقلٌ ، ولا كوكبٌ في الأرض مرصودٌ

(٩٤) قال المعري :

ولم يدِرْ لما أن أتاها ، ولا درى
إلى أين يمضى ، فاستكان مديراً
ولكنه يقول في مكان آخر وكأنه يجيب على تساؤل الخيام
وتساؤل نفسه :

نمر سراعاً بين عُدْمين ، ما لنا
لباثٌ ، كأننا عابرون على جسر
(٩٥) قال المعري :

وركبٍ واردٍ ليقم عصراً
وآخرٌ قد أجدَّ به الرحيلُ
(٩٦) قال المعري :

فهل قام من جدثٍ ميّتٌ
فبخبرٍ عن مسمعٍ أو مرمى ؟
وقال عن الموتى :

طلبتُ يقيناً يا جهينة عنهم
ولم تخبريني يا جهينُ سنوى الظنِّ
فإني تعهديني لا أزال مُسألًا
فإني لم أعطَ الصحيحَ فاستغني !

(٩٧) قال المعري :

وما تريد بدارٍ لست مالِكها تقيم فيها قليلاً ثم تنطلقُ ؟

(٩٩) قال المعري :

اللهُ صوّرني ولستُ بعالمٍ لمَ ذلك، سبحانَ القديرِ الواحدِ !

(١٠٠) قال المعري :

رَبُّ الزمانِ مفرِّقُ الإلْقَيْنِ فأحكمُ إلهي بينَ ذلكَ وبينِي
أنهيتَ عن قتلِ النفوسِ تعمُّداً وبعثتَ أنتَ لقتلها ملكينَ ؟
وزعمتَ أن لها معاداً ثانياً ما كان أغناها عن الحالينِ !

(١٠٢) قال المعري :

ويجهلُ حتى يسألُ الفلكَ الذي يدورُ عليه كيفَ بدءَ مدارِهِ ؟

وتشاجروا في قبلةِ الفلكِ التي

ما زال يعظمُ في النفوسِ عمودها

فيقولُ ناسٌ سوفَ يدركها البلي

ويمينُ ناسٌ لا يجوزُ همودها

يمينُ : يفتري

(١٠٤) قال المعري :

سألتوني فأعيتني إجابكم من ادّعى أنه دارٍ فقد كذبا!

(١٠٥) قال المعري :

أما اليقين فلا يقين ، وإنما

أقصى اجتهادي أن أظنّ وأحدسا

تقول على المجاز ، وقد علمنا بأنّ الأمر ليس كما نقول !

(١٠٦) قال المعري :

جميعنا يخبط في حنّدي قد استوى الناشئ^١ والكهل^٢

(١٠٧) قال المعري :

وما جدّالُ الأقبام إلا تعلّة مصوّرة من باطلٍ متوهم^٣

(١٠٨) قال المعري :

وبصيرُ الأقبام مثلي أعمى فهلثوا في حنّدي تتصادم^٤ !

(١١٢) قال المعري :

غدوتَ مريضَ العقل والدين ، فالتقى

لتعرف أنباء الأمور الصعاح

(١١٦) قال المعري :

وأشهد أتى غاوي جهولٌ وإن بالغتُ في بحثٍ ودرسٍ

(١١٧) قال المعري :

إذا كان علمُ الناسٍ ليس بِنافعٍ ولا دافعٍ فالحُسْرُ للعلماء !

إذا علمي الأشياء جبراً مضرّةً إليّ فإن الجهول أن أطلب العلماء

(١١٨) قال المعري :

أما الصّحاب فقد مرّوا وما عادوا

وبيننا بلى بلى الموت ميعادُ

أعلل مهجتي ويصيح دهرى ألا تغدو؟ فقد ذهب الرفقُ!

(١٢١) قال المعري :

صاح هذه قبورنا تملأ الرُّحـبَ فآين القبور من عهد عادٍ؟

(١٢٢) قال المعري :

ومن شيمِ الأيام ، وهي كثيرةٌ فناء كبيرٍ واقتبالُ غلامٍ

فهادجٌ حاملٌ عكازةٍ وفارسٌ معتقلٌ صدّة

وأخِرٌ يدرك من قبله ويُترك الدنيا لمن بعده

قدوم أصاغِرٍ ورحيلُ شيبٍ وهجرة منزلٍ وحُلُولُ رمي

(١٢٤) العَيْرُ من وزن طير : الحمار الوحشي . يقابلها في الفارسية « كور » من وزن نُور ، وهي تعني العير والقبر معا ، وقد استعملها الخيام لكتابتها في هذه الرباعية ، فأصبح « الكور » مَصِيداً وصائداً . ولم نستطع نقل هذا الجنس التام إلى العربية إلا بهذا الجنس الضئيل بين كاتي العير والقبر ، على أنه جاء عفواً ..

(١٢٥) كلمة « كو ؟ » الفارسية من وزن ذُو ، تعني « أين ؟ » وترجمة الشطر الرابع من الرباعية هي « قدمت تقول : كو كو كو كو ؟ » بمعنى « أين ، أين ، أين ، أين ؟ » . ولم يستطع أحد ترجمة هذا التوافق التمتع بين المعنى وحكاية صوت الفاخنة إلى أية من اللغات .

(١٢٧) ذال المعرى :

من دبارٍ قد جاءها القادم الآتى فلم يعتبر بمنصرفيها

(١٢٨) قال المعرى :

قد كان قبلك ذادة ذمة — اول

ذادوا ، وما صرّف الخطوب ذيادة !

وما الناس إلا خالفٌ بعد سالفٍ
كذلك نبت الأرض يعقبه النبتُ !

(١٢٩) قال المعري :

خففِ الوطاء ، ما أظنُّ أديم الأ
رض إلا من هذه الأجسادِ

وقبيحُ بنا وإن قدمَ العهـ
دُ هوانُ الآباءِ والأجدادِ !

سر إن اسطعتَ في الهواءِ زويداً
لا اختيالاً على رفاتِ العبادِ

على أنه ينظر إلى الموضوع من زاوية أخرى أحياناً ، فيقول :
طأ بالحوافر قتلى في مصارعها فالجسم بعد فراق الروح كالمدرِّا

(١٣١) قال المعري :

ولو أني أعدُّ بألفِ بحرٍ
لمرَّ عليّ موتٌ فاحتسائي !

(١٣٢) قال المعري :

سَرَى الموتُ في الظلماءِ والقومُ في الكرى
وقام على مساقٍ ونحنُ قعودُ

وتأكلنا أيامنا ، فكأنما تمرُّ بنا الساعات وهي أسوداً

(١٣٣) قال المعري :

فردُّ إلى الأصول ، وكلُّ حيٍّ له في الأربع القدم انتسابٌ

(١٣٤) قال المعري :

ننتار من أمنا الغبراء حاجتنا وللبيطة من أجسادنا ميرٌ

وما الأرض إلا مثلنا الرزق تبغى

فما كلُّ من هذا الأنام وتشرباً

فلا أغرر إذا أجلى خطاني سيأتي الموت أغفل ما أكونا

(١٣٥) قال المعري :

وما نفيق من السكر المحيط بنا إلا إذا قيل هذا الموت قد جاء

(١٣٦) قال المعري :

وشخص أقوام تلوح ، فامة قدیمت مجددة وأخرى تهلك

(١٣٧) قال المعري :

والترب مشوي ومشوام وما رأينا أحداً منه قام

(١٤٢) قال المعري :

فلا يُمسِ فخّاراً من الفخّر عائداً
إلى عنصر الفخّار للنفع يُضربُ
لعلّ إناء منه يُصنع مرةً
فياكلُ فيه من يشاء ويشربُ
ويُنقل من أرضٍ لأخرى وما دَرَى
فواهاً له ، بعد البلى يتغربُ !

(١٥٠) قال المعري :

لعل مفاصل البناء تضحى طلاءً للسقيفة والجدار

(١٥٢) قال المعري :

وكم وطئت أقدامنا في ترابها جبينَ أخي كبيرٍ وهامةً أبلجِ
سر إن أسطمت في الهواء رويداً
لا اختيالاً على رفاتِ العبادِ !

(١٥٤) قال المعري :

وما الناس إلا خالفٌ بعد سالفٍ
كذلك نبت الأرض يعقبه النبت

(١٥٧) قال المعري :

نمضى ونترك البلاد عريضةً والصبح أنور والنجوم زواهرها
وما عالمي إن عشتُ فيه بزائدٍ ولا هو إن أقيتُ منه بناقصٍ
نزول كما زال آباؤنا ويبقى الزمان على ما ترى

(١٥٨) قال المعري :

أما الصحاب فقد مروا وما عادوا وبيننا بقاء الموت ميعادُ
سرٌّ قديمٌ وأمرٌ غير متضحٍ فهل على كشفنا للسرِّ إسعادُ؟
مضت قرونٌ وتمضى بعدنا أمٌ والسرُّ خافٍ إلى أن يُنفخ الصُّورُ

(١٥٩) قال المعري :

وقد تعوّضتُ عن كلِّ بمشبهه فما وجدتُ لأيام الصِّبا عوضاً
سار الشبابُ فلم نعرف له خبراً ولا رأينا خيالاً منه مُنتاباً

(١٦٠) قال المعري :

لوانٍ من ليلٍ وصبحٍ لوّناً شعري، وأضعفني الزمان الأيدُّ
جسمي أودى سرُّ السنين به فلتطلب النفسُ منزلاً بدكّه

والجسم للروح مثل الربع تسكنه

وما تقيم إذا ما خرب الجسد

(١٦١) قال المعري قريباً من معنى الشطرين الأولين :

دنياك دار شرورٍ لا سرور بها
وليس يدري أخوها كيف يحترس !

عرفتُ سجايا الدهر ، أما شروره
ففقْدُ وأما خيره فوعودُ

(١٦٣) قال المعري :

وقد بلونا العيشَ أطوارَهُ فما وجدنا فيه غير الشقاء

(١٦٤) قال المعري :

وشبَّ وشاب ، وأفنى الشبابَ .. وسقياً له من خضابِ نَصَلٍ
ومن بعد ذلك يجيء الحمامُ .. فانظر على أيِّ شيءٍ حَصَلَ ؟
وقال يخاطب الدنيا :

وظلمٌ أن أحاول فيك ربحاً ولم أخرج إليك برأس مال !

(١٦٥) قال المعري :

تعبٌ كلُّها الحياة ، فما أء .. جب إلا من راغبٍ في ازدياد !

(١٦٦) قال المعري :

حياة كالهيئة ذات مَسْكَرٍ _____ ونفسُ المرءِ صيدٌ أعلقته !

فلنَّ يدور على معاشرَ جَمَّةٍ وكأنه سجنٌ عليهم مطبقٌ
على أنه يبشر الطائر الذي أعلقته حبائل الحياة بالخلع ،
ولكن في سخرية عنيفة قاسية ، فيقول :

يا طائراً من سجون الدهر في قفصٍ

لتذبحنَّ ، فلا سجنٌ ولا شركٌ !

(١٦٧) قال المعري في معنى الشطرين الأولين :

تَقْنُونِ وَالْفَلَكُ الْمَسْخَرُ دَائِرٌ وَتَقْدُرُونَ فَتَضْحَكُ الْأَقْدَارُ !

(١٧٠) قال المعري :

فليت الفتى كالبدر جُدِّدَ عمره يعود هلالاً كما فني الشهرُ

(١٧٤) قال المعري :

وهذه الدنيا على أنها محبوبة لم تُخَلِّنا من ألمِ

(١٧٥) قال المعري :

وما أوْمَل عند الدهر مصلحةً وإنما هو إتلافٌ وإفسادُ

(١٧٦) لم أتبين سرَّ التناقض بين أول الرباعية الذي

يدعو المرء إلى العزوف عن الدنيا وآخرها الذي يحضه على

اختطاف حظه منها .

(١٧٧) قال المعري :

سَلَّ الْفَوَادِ عَنِ الْحَيَاةِ .. فَإِنَّهَا شَرٌّ وَشُرٌّ
قَدْ نَلْتَمَسْنَا مِنْهَا مَا كَفَاكَ .. فَمَا ظَفَرْتَ بِمَا يَسْرُ
وَالشَّرُّ ، بضم الشين : العيب .

(١٧٨) قال المعري :

مَنْ يَغْتَبِطُ بِمَعِيشَةٍ فَأَمَامَهُ نُوْبٌ تَطِيلُ عِنَاءَهُ فُجَاعَتُهَا
(١٧٩) قال المعري :

أَصْحَابُ الدُّنْيَا تَشَابَهُ مَيْتَةً
وَنَحْنُ حَوْلِيهَا الْكِلَابُ النُّوَابِحُ
فَمَنْ ظَلَّ مِنْهَا آكِلًا فَهُوَ خَاسِرٌ
وَمَنْ عَادَ عَنْهَا سَاقِبًا فَهُوَ رَاجِحٌ

تَزَوَّجَ دُنْيَاءَ الْعَيْشِ بِجَهْلِهِ
فَقَدْ نَشَرْتَ مِنْ بَعْدِ مَا قُبِضَ الْمَهْرُ
تَطَهَّرَ بَعْدَ مَنْ أَذَاهَا وَكَيْدُهَا
فَتَلِكُ بِنْيِئٍ لَا يَصْحُحُ لَهَا طَهْرٌ !

عرفتُ من أمِّ دَفْرِ شِيمَةَ عَجَباً

دلَّت على اللُّؤْم ، وهي العنْف بالخدمِ-

ومن يُبِينُهَا تَصْنُهُ عن مكارِهُهَا

بعض الصِّيَانَةِ ، فأرْفُضُهَا بلا ندمِ-

وما لِنَفْسِي خِلاصٌ من نَوَائِبِهَا

ولا لغيريَ إلا الكونُ في العدمِ

(١٨١) قال المعري :

تَغَيَّبْتُ في مَنْزِلِي بَرَهَةً سَتِيرَ العيوبِ فَمَقِيدَ الحسدِ

إذا ما شِئْتُمْ دَعَاةً وَخَفِضاً فَعِيشُوا في البريةِ خَامِلِينَا

(١٨٦) قال المعري :

تَسَمَّى سروراً جاهل متخرصٌ

بفيه البرى ، هل في الزمان سرورٌ ؟

نعم ثمَّ جرّة من ألوفٍ كثيرةٍ

من الخير ، والأجزاء بعدُ سرورٌ !

(١٩٠) قال المعري :

ألا إنما الدنيا نُجُوسٌ لأهلها

فما في زمانٍ أنت فيه سعودٌ

جيبُ الزمان على الآفات مزرورُ
ما فيه إلا شقيُّ الجدِّ مزرورُ

(١٩١) قال المعري :

متى ملأت كفيكَ دنياك أرسلت
مِلًّا يُعيدُ الكفَّ من جودها صفرا
كأن وليدًا مات قبل سقوطه
على الأرض ناجٍ من حبالها طفرًا !

وأفكك فيها والداك فلا تَضَعُ
بها ولدًا يلقى الشدائد والنكرا

وأرحتُ أولادي ، فهم في نعمة الـ
عدم التي فضلت نعيم العاجل !

(١٩٢) قال المعري :

حياةٌ وموتٌ وانتظار قِيامةٍ ثلاثُ أفادتنا الوفاءَ معانٍ
ألم ترَ عالمًا يأتي ويمضي سواء كانه مرعيًّا بقلٍ ؟

وكيف أجيد في دارٍ بناءً وربُّ الدارِ يؤذني بنقلِ ؟

أهذي الدار ملكٌ لابنِ أرضٍ بها رامَ المقامَ ، أم اكرها ؟

وما تريد بدارٍ لست مالِكها تقيم فيها قليلاً ثم تنصرف ؟

(١٩٣) قال المعري :

لنفسى أن تنأى عن الجسم روعةً

كروعة أتى أُجليتُ عن ديارها !

فإن رحلت بالرغم عن مستقرها

فما كان مكنهاها له باختيارها

وردتُ إلى دار المصائب مجبراً

وأصبحت فيها ليس يمجبنى النقل !

(١٩٤) قال المعري :

أراني غمراً بالأمر ، ولم أزل

أجوب دجاها أو أخوض غمارها

(١٩٦) قال المعري :

والخير والشر ممزوجان ما افترقا فكل شهد عليه الصابُ مذرورُ

(١٩٧) كأن الخيام يريد في هذه الرباعية أن يحلل

تركيب الإنسان إلى عناصره الأولى على نظرية العناصر الأربعة .

فالنار قلبه ، والماء دموته ، والهواء حياته ، والتراب متواه ! . .

ولعله قصد نفس المعنى في الشطرين الأولين من الرباعية فقال إننا

جئنا أطيباراً كالهواء فأكتسبنا الوضر كالتراب ، وكنا وادعين

كالماء برداً وسلاماً فأصابنا الغم كالنار — ثم فصل المعنى على وجه

آخر في الشطرين الأخيرين . ويقول المعري في معنى الرباعية :

أخوكِ معذبٌ يا أمَّ دفرٍ أظلمته الخطوبُ وأرهقته

وما زالت مساناة الرزايا على الإنسان حتى أزهقته

إذا خُشيتُ لشرِّ عجلته وإن رُجيتُ لخيرِ عوقته

حياة كالحبالة ذات مكرٍ ونفس المرء صيدٌ أعلقته !

سقته زمانه مَقِرّاً وصاباً وكأس الموت آخرُ ما سقته !

أمَّ دفرٍ : الدنيا . المَقِرُّ ، بكسر القاف : المرء أو الحامض .

(١٩٨) قال المعري :

ربّ متى أرحل عن هذه الدنيا ، فإنني قد أطلتُ المقام

لم أدري ما نجمي ، ولكنه

مذ كان في النحس جرى واستقام !

والعيش سقمٌ مُنصبٌ للفتى

والموت يأتي بشفاء السقام

(١٩٩) قال المعري في معنى الشطر الأول من الرباعية :

نعمتُ الرضا حتى على ضاحك المزنِ

فلا جادني إلا عبوسٌ من الدَّجنِ

وقال في معنى الشطر الثاني :

خسئتِ يا أمنا الدنيا ، فأفَّ لنا بني اللثيمة أنذالٌ أخسَاءُ

وأخوالحجى أبداً يحارب طبعه فتراه وهو محارب كسالم

وقال في معنى الشطر الرابع :

أيها الدينيا ، لكِ الله من ربةٍ دلٌّ

ما تسلى خلى عنك وإن ظن التسلى

إني ونفسي أبداً في جذاب أ كذبهَا وهي تحب الكذاب

(٢٠٢) قال المعري :

وهوّن ما نلتق من البؤس أنفا على سفير، أو عابرون على جسر

متى ألق من بعد المنية أسرتي أخبرهم أني خلصت من الأسر

العيش أفقرَ منا كل ذات غنى
والموت أغنى بحقِّ كل محتاجٍ
إذا حياة علينا للأذى فتحت
باباً من الشر لاقاه بأرتاجٍ!

(٢٠٣) قال المعري :

يسارٌ وعدمٌ ، وادِّكارٌ وغفلة
وعزٌّ وذلٌّ .. كل ذلك غرورٌ !
وكيف أفضى ساعةً بمسرةٍ
وأعلم أن الموت من غرمانى ؟

(٢٠٥) قال المعري :

تلك أنباء أرتنا عبراً
في حياة كخيال طارقٍ
معجباتٍ كأحاديث السمرِ
شغلَ الفكرَ ، وخلَّك ومراً

(٢٠٦) قال المعري :

أراك الجهلُ أنك في نعيمٍ
وما سمحت لنا الدنيا بشيء
وأنت إذا افتكرت بسوء حالٍ
سوى تعليل نفس بالمحال

(٢٠٧) قال المعري :

إن مدحوني ساءنى مدحهم
جسمي أنجاسٌ ، فما سرّنى
وخلتُ أنى في الثرى سُخْتُ
أنى بمسك القول ضُمَّخْتُ

(٢٠٨) قال المعري :

تعالى الله ، كم ملكٍ مهيبٍ تبدل بعد قصرٍ ضيقٍ لحدٍ

لو نُخِلَ العيشُ لما حَصَلْتُ شيئاً سوى الموت يدُ الناخِلِ !

(٢١٠) قال المعري :

هبيني عشتُ عمرَ النَّسرِ فيها وكان الموت آخر ما لقيتُ

(٢١١) قال المعري :

بطن التراب كفاني شرّاً ظاهره
وبين العدل بين العبد والملكِ

جاران : مَلِكٌ ومحتاجٌ ، أتى زمنٌ

عليهما فتساوى البؤسُ والترفُ

(٢١٣) قال المعري :

بلوتُ أمورَ الناسِ من عهد آدمٍ
فلم أرَ إلا هالكاً إثرَ هالكِ

إذا كان هذا التُّربُ يجمع بيننا

فأهل الرزايا مثل أهل الممالكِ

وقد زعموا الأفلاك يدركها البلى

فإن كان حقاً فالنجاسة كالظهر 1

(٢١٤) قال المعري :

فلا يُعجَبُ بصورته جميلٌ فإن القبيح يُطوى كالجمال

(٢١٥) قال المعري :

هب الفتى نال أقصى ما يؤمله أليس راعى المنايا خلفه حطماً ؟

(٢١٨) قال المعري :

تمنيتُ أن الخمر حلّت لنشوة تجهنى كيف أستقرت بي الحال

ولكنه يخاف الخمر على عقله فيقول :

يقول الناس إن الخمر تُودي بما فى الصدر من همٍ قديمٍ

ولولا أنها باللبِّ تُودي لكنتُ أخوا المدامة والنديم

على أنه يجد دواء آخر يغنيه عنها ، وهو الموت :

واستشعر العاقل فى سقمه أن الردى مما عناه الشفاء

إذا غدوتُ ببطن الأرض مضطجعاً

فتمَّ أفقد أوصابى وأمراضى ا

(٢١٩) قال المعري فى معنى الشطرين الأولين :

المرء يقدم دنياه على خطرٍ بالرغم منه ، وينأها على سخطِ

(٢٢٧) كأن المعري يعقب على رباعية الخيام إذ يقول :
ستطلقني المنية عن قريب فإني في أسار واعتقال
(٢٢٦) قال المعري :

أياتي نبيٌّ يجعل الخمرَ طِيقَةً
فتحمل ثقلاً من همومي وأحزاني ؟
وهيهات لو حلت لما كنتُ شارباً

مخففةً في الحلم كفة ميزاني ا
فكان الخيام يهون عليه في هذه الرباعية عبث الحميا
بالعقول ما دامت العاقبة هي الخراب . ولكن المعري حيي مفرد
الحياء ، متوجس بسبب فقدان بصره . نبتة أحدهم مرةً إلى أن
الدبس قد قطر على ثوبه فجعل يمسحه قائلاً « قاتل الله الشره ! »
وأقلع بقية حياته عن أكل الدبس . فكيف به لا يدع من
عقاييل بنت العنب ، ولا يجفل من أن يكون (خراباً) ؟

(٢٢٨) بينما يكثر الخيام من ذكر فضائل الخمره يكثر
المعري من ذم شرورها وفعالها بالشاربيها ، مع أنه لم يذمها . وأحسبه
يصف ما يخشى أن يصيبه من أذاها لو عاقرها . من ذلك :
توخَّ بهجرِ أمِّ ليلى ، فإنها عجوزٌ أضلت حى طسمٍ وماربٍ

ديب نِمال عن عقارٍ تخالها

بجسمك شراً من ديب العقارب !

ولو أنها كالماء طلق لأوجبت

قلاها أصيلاً النهى والتجارب

(٢٣٢) قال المعري :

إن الشيبية نارٌ إن أردت بها — أمراً فبادره إن الدهر مطفئها

والمروء في حال التيقظ هاجعٌ — ينو إلى الدنيا بمقلة حالم

(٢٣٥) قال المعري :

نفرٌ من شرب كأس وهي تتبعنا

كأننا لمناينا أحبباء !

لا يرهب الموت من كان امرءً فطناً

فإن في العيش أرزاءً وأحدانا

(٢٤٧) قال المعري :

أرى فلساً ما زال بانخلق دائراً — له خيرٌ عنا يُصانُ ويُخبأ

غَيْبَ مَيِّتٍ فَمَا رَأَتْهُ عَيْنٌ سِوَى رُؤْيَةِ الْمَنَامِ !

(٢٥١) قَالَ الْمَعْرِيُّ :

لَوْ كَانَ يَنْطِقُ مَيِّتٌ لَسَأَلْتُهُ مَاذَا أَحْسَنَ وَمَا رَأَى لَمَّا قَدِمَ

(٢٦٣) قَالَ الْمَعْرِيُّ :

أَرَى الْأَشْيَاءَ لَيْسَ لَهَا ثَبَاتٌ وَمَا أَجْسَادُنَا إِلَّا نَبَاتٌ !

(٢٨١) قَالَ الْمَعْرِيُّ :

أَتَرَكَ هَهُنَا الصَّهْبَاءَ نَقْدًا لَمَّا وَعَدْتُكَ مِنْ لَبَنِ وَخَمْرِ ؟

(٣٠٢) قَالَ الْمَعْرِيُّ :

تَوَرَّعُوا يَا بَنِي حَوَاءَ عَنْ كَذِبِ

فَمَا لَكُمْ عِنْدَ رَبِّ صَاغِكُمْ خَطَرٌ !

(٣١٣) قَالَ الْمَعْرِيُّ :

إِنَّمَا نَحْنُ فِي ضَلَالٍ وَتَعْلِيلٍ فَإِنْ كُنْتَ ذَا يَقِينٍ فَهَاتِهِ !

وَبَصِيرِ الْأَقْوَامِ مِثْلِي أَعْمَى فَهَلُّؤُوا فِي حُنْدَسٍ نَتَصَادَمُ !

(٣١٨) قَالَ الْمَعْرِيُّ :

وَدُنْيَاكَ لَيْسَتْ لِلسَّرُورِ مُعَدَّةٌ فَنِ نَالَهُ مِنْ أَهْلِهَا فَهُوَ سَارِقُهُ !

(٣٢٣) قال المعري :

خُذَا الْآنَ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ ، وَخَلِيَا

غَدًا فَهُوَ لَمْ يَقْدِمْ وَأَمْسٍ فَقَدْ مَرَّ !

(٣٢٤) قال المعري :

وَمَا أَجْسَادُ هَذَا الْخَلْقِ إِلَّا عَوَارِيُّ الْمَقَادِرِ لَا الْهَبَاتُ

(٣٣١) يقول المعري في معنى الشطر الأول :

وَالنَّفْسُ تَفْنِي بِأَنْفَاسٍ مَكْرُورَةٍ

وَمَا طَعُ النَّارُ تُخْبِي نَوْرَهُ اللَّمَعُ

واسكنه لا يتفق مع الخيام في أن الحياة تمضي كما تريد أن

تمضيها ، (كما أن الخيام يفكر ذلك في رباعيات أخرى —

٣١٨ مثلا) . قال المعري :

يَعِيشُ الْفَتَى مَا عَاشَ كَالظَّبْيِ ، لَمْ يُفَيْدْ

بَدْنِيَاءَ إِلَّا أَنْ يُعَالَ وَيَكْبُرَا

وَلَمْ يَدْرِ لِمَا أَنْ أَتَاهَا ، وَلَا دَرَى

إِلَى أَيْنَ يَمْضِي ، فَاسْتَكَانَ مَدْبَرَا

(٣٣٣) قال المعري :

وإذا رجعتَ إلى النهى فذوهاب الـ

أيام غير مؤملٍ رجعاتها

ويعبرُ تعبيراً رائعاً عن فوات الزمن إلى غير رجعة بقوله :

غدى سيُوجدُ أمسى ، لا ينازعنى

فى ذلك خلقٌ ، وأمسى لا يصيرُ غدى !

(٣٣٧) قال المعري :

وعلتُ قلبَ المرءِ يفرقُ فى هوى

دنياه ، خاب مكاتماً ومجاهراً

ماذا أفدتَ بأن أطلتَ تفكراً

فيها وقد أفنيتَ ليلك ساهراً ؟

(٣٥٠) كان المعري يردُّ على الخيام قائله فى الحمر والسماح :

فلا تُعجبَنَّك عروسُ المدام ولا يطربفك مغنٍ صدحاً

(٣٦٠) قال المعري فى معنى الشطر الثالث من الرباعية ،

ولكن من باب الاستفكار :

وتوهمُ الشيبَ المدالفَ أنهم لبسوا على كبرٍ برودَ شبابٍ

أما الخيام فقد قال ذلك استحساناً . وقصد بالشرط الرابع
أن الخمرة تطيل عمر اليافع حتى يشيخ .

(٣٦٩) المعري يريد لثراه بعد موته أن يقضي الطهور :

تَيَمَّمُوا بِتَرَابِي عَلَّ فَعَلِكُمْ بعد الممود يوافيني بأغراضى
وإن جُعِلَتْ بِحَمِّ اللَّهِ فِي خَرْفٍ يقضى الطهور فإني شاكر راضى

وهذا غريب من المعري وهو من نعرف كفراناً بالشرائع
وازدراء لشعائرها ، فلعله قال ذلك من باب التقية . أو لعله قصد
بالطهور مطلق النظافة .

الصفحة

٢٨	مقارنة الرباعيات
٣٠	مناقشة الرباعيات المعتمدة
٣٦	عدد الرباعيات
٤٠	مدرسة الخيام
٤٢	شعره العربي

عقليته

٥٠	الخيام العالم
٥٤	الخيام الفنان
٥٦	عقيدته
٦٠	الإلهاد الرياضي
٦٦	مقارنة بين زنديقين
٧١	تناسخ الأرواح
٧٣	الإلهاد وتقية

الصبيان والحسناء

٨٠	الصبيان
٨٦	الحسناء
٩١	كهانة وتنجيم
١٠٦	شخصيته
١٢٠	فلسفته
١٢٨	فهرس الثورة

الباب الثاني

صوت الخيام

(الرباعيات)

الصفحة

- ١ — ثورة على المجتمع ١٥٥
- ٢ — ثورة على الدجالين ١٦٧
- ٣ — ثورة على الدين ١٧٥
- ٤ — ثورة على السماء ١٨٥
- ٥ — ثورة على الدهر والأفلاك ١٩٧
- ٦ — هل من منازل ؟ (أغاز الوجود) ٢٠٣
- ٧ — ثورة على العقل ٢٠٩
- ٨ — الموت في الميدان (فناء البقاء) ٢١٧
- ٩ — فشل الثورة (مآسى الحياة) ٢٣٣
- ١٠ — فرار النائر (عدم الوجود) ٢٥١
- ١١ — في المنفى ٢٥٩
- أ — نخب الهموم ٢٦١
- ب — نخب الموت ٢٦٦
- ج — شيوخ الحان ٢٧٨

٢٨٠	د - نخب الزاهد الدجال
٢٨٢	هـ - نخب الدين
٢٩١	و - الله كريم
٢٩٣	ز - نخب العقل والفاز الوجود
٢٩٨	ح - نخب اللحظة الحاضرة
٣٠٧	ط - نخب الحبيب
٣١٢	ي - نخب الأنخاب
٣١٩	١٢ - ستار الختام
٣٢٣	مقارنة بين تفكير الخيام والمعري